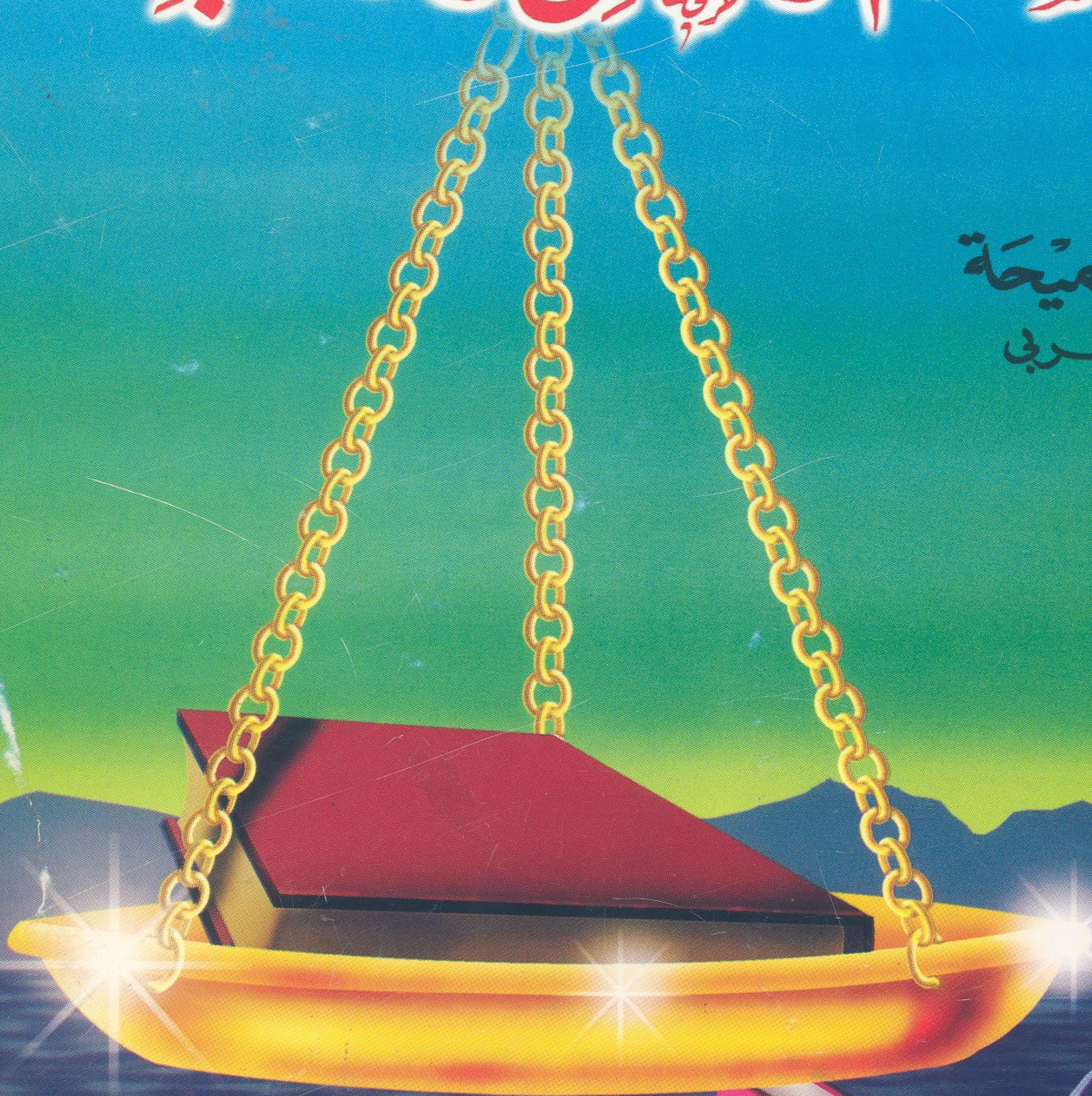
رواية: وليمة لأعشاب البحر

في ميزان الإسلام والعقل والأدب



الدكتور/ جابر قميحة

أستاذ الأدب العربي





دار الاعتصام

الدكتور / جابر قميحة
أستاذ الأدب العربي

رواية: وليمة لأعشاب البحر

في ميزان الإسلام والعقل والأدب

دار الاعتصام

دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع
٨ شارع حسين حجازى ـ القاهرة
هاتف : ٧٩٥١٧٤٨ - ٧٩٤٤٧٤٨ - فاكس : ٧٩٤٦٠٣١
ص . ب : ٤٧٠ القاهرة - الرمز البريدى : ١١٥١١



بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل وتوطئة

حمدًا للّه رب العالمين ، وصلاة وتسليمًا على رسول اللّه وآله أجمعين . أما بعد : فما أكثر أخطاءنا !! وما أشدها !! وما أغربنا حينما نترك الخطأ يأخذ مساره فى طمأنينة عجب حتى يستفحل ويتحول إلى خطيئة !! . وما أكثر الذين صرخوا ، ويصرخون : اتركوا المُلْكَ للمالك .. وذروا الأمور فى طريقها تمضى وتسير ، وإن كان لها خطر فهو ضئيل يسير ، وعمره قصير .. لا تخافوا ، ولا تراعوا !! .

فإذا ما قرعنا أجراس الخطر قبل نزوله ، أو وهو فى باكورته برعم فى شجرة الشر ارتفعت الأصوات صاخبة عالية (أعلى من صوت المعركة) :

** السكون .. السكون .. السكوت .. السكوت ... لا تقلقوا الناس .. فللأبدان والعقول حقوق يجب أن تراعى !!..

** لكن باللّه عليكم .. انتبهوا .. انتبهوا أيها السادة !!. ويأتى الجواب : اعتقالات .. واضطهادات .. أو تقريعات ، وتعنيفات ... واتهامات لا تحصى ولا تعد .

** دعاة فتنة !!.. ركاب موجة ... سوداويون ، صفراويون ... فى التشاؤم مغرقون .. مسرفون .

** يا سادة ... معظم النار من مستصغر الشرر ؛ فاتقوا اللّه ، وقوا أنفسكم وأهليكم نارًا ، وقودها الناس والحجارة .

** لا تبالغوا ... ولا تسرفوا علينا وعلى أنفسكم .. فنحن أنقى وأتقى منكم .. مثقفون نحن .. وتنويريون نحن .. أما أنتم فالسطحيون .. الجاهلون .. الرجعيون .. الظلاميون .. المتقوقعون !! .

** ولكن الوقاية - يا سادة خير من العلاج !!.

** ولماذا الوقاية ؟ إن الوقاية مكلفة .. إنها تهدر الوقت ، وتأكل المال .. ونحن على العلاج قادرون !!

* * *

فإذا ما وقع الفأس في الرأس .. الرأس المكشوف العارى شرع السادة يفكرون فى العلاج .. بدءًا بإيقاف النزف ، وانتهاء بالضمادات والمضادات .. وتمر الأيام والشهور ، والرأس الجريح المضمد فى انتظار لطف اللّه ورحمته .. وتأتى التقارير مشيدة ببراعة الأطباء المعالجين ، وسهرهم المتواصل ، ومتابعتهم المخلصة .

وما كان أغنانا عن هذه النازلة بكل أبعادها لو أننا أخذنا حذرنا ، ومنعنا فأس العدوان من الاقتراب ، وحَصَّنَّا الرأس بخوذة الوقاية والنجاة ، وزرعنا فى العقول الوعى السديد ، وغرسنا فى القلوب الحزم الشديد ، وألغينا من قاموس حياتنا كلمة منحوتة منكودة اسمها « معلهش » . وسجلنا مكانها : يقظة الضمير ، والشعور بالمسئولية ، وحب الحق والخير والجمال ، واعتنقنا - عقيدة وسلوكًا - من الحِكَم أعلاها وأرقاها .. ومنها هذه الثلاث التى تدور فى فلك واحد :

١ - معظم النار من مستصغر الشرر .

٢ - الوقاية خير من العلاج .

٣ - إذا نحن طامنا لكل صغيرة

فلا بد يوما أن تساغ الكبائر

أقول هذا بعد أن رأينا فأسًا تنطلق انطلاق الصاروخ من أقصى شمال الشام إلى مصر لتصيب الرأس .. بل الرءوس فى « يوافيخها » .. عجبًا !! يحاول الضحية أن يدفع عن رأسه حد الفأس براحة كفه العارية ، فتصيب اليد ، وتعض فى الرأس فتدميه .. ويحاول بعض « أولاد البلد » - أنا رأيتهم وأعرف بعضهم - أن يساهموا فى منع الفأس العضوض القاصمة ، أو التخفيف من قوة اندفاعها على الأقل .. فصاح الجنرال « الوسيم » جدًّا - كبير الحرس الرأسى - :

** ويلكم اتركوا الفأس .. فهى مباركة المجرى والمرسى ، وظالم ابن جائر من يوقف مسيرتها .. إنها فأس عربية ، لا تفجعوا صاحبها فيها ؛ فإكرام الضيف - ولو كان فأسًا ، واجب من واجبات الشهامة ، والأريحية ، والرجولة !!

(ملاحظة : أمّن على توجيهه جنرالات من الحرس الرأسى ، وإن كانوا أقصر منه قامة ، وأقل وسامة) .

وأنظر إلى الرأس فلا أرى إلا النزف ، والدموع ، والأوجاع ، والآلام .. ولكنى أشهد - للحق دون مجاملة - أن الجنرال الرأسى صاح فى الضحية :

** أتصرخ ؟ ما هذا ؟ .. فضحتنا يا رجل .. تحمل ، واصبر .. فالصبر ضياء .

ساعتها تذكرت كلمة رائعة لسعد زغلول : « عجبت للذى يقول للمضروب : لا تبك ، ولا يقول للضارب : لا تضرب » !!!

* * *

ومن حق القارئ أن يسأل : هل كانت هذه هى الفأس الأولى فى رأس الفكر والحكمة ، وقيم الدين والمجتمع ؟!

معذرة .. أجيب .. ولكن علىّ أن أرجع إلى الوراء قليلًا .. ولا ضير ولا ملامة فقد صَنَّفَنا « التنويريون » فى فصيل « الرجعيين الظلاميين » !!

* * *

من عدة سنوات قرأت إعلانًا فى الصحف المصرية عن كتاب وُصف مؤلفه بأنه « رائد التنوير الدينى » ، واعتقدت أننى سأجد تحت الوصف اسم جمال الدين الأفغانى .. أو محمد عبده .. أو رشيد رضا .. ولكنى وجدت تحت هذا الوصف اسم المستشار محمد سعيد العشماوى .. والريادة تعنى الأولية والابتكار ، والإتيان بما هو جدير بالتقدير والاعتناق ، والقدرة على التأثير المنتج .. وهذا يعنى - إذا ما آمنا بمنطوق الإعلان - أن نسقط من حسابنا أمثال الأفغانى ..

ومحمد عبده .. ورشيد رضا .. وابن باديس .. وحسن البنا .. ومحمد عبد اللّه دراز .. وقرأت كتب الرجل كلها .. وأقول صادقًا : إننى حاولت أن أعثر على « بصيص من نور » فى كل ما كتب فى مجال الفكر .. والفقه .. والسياسة .. والمجتمع .. والتاريخ .. فعجزت .. ولم أجد إلا محاولات مرعوشة – على درب المستشرقين – لتجريد الإسلام من طوابعه السياسية ، وعزله عن كل ما يمت للحكم والقيادة بصلة .. ويصف أصحاب دعوة « الإسلام دين ودولة » بأنهم « فجار .. أشرار .. جهال » !!

أما نظام الخلافة الإسلامية فهو – فى نظره – :

« لا يختلف عن أى نظام متخلف فى السطو .. والسيطرة .. والغشومة .. والظلم .. والاستبداد .. والتنكر لحقوق الإنسان .. وتنكب حدود اللّه .. وهو نظام جاهلى غشوم مناف لروح الدين ، مناف لمعنى الشريعة » – « والخلافة لم تخدم الإسلام حقيقة .. بل إنها أضرت به حين ربطت العقيدة بالسياسة ، ومزجت الشريعة بنظام الحكم »(١).

هذا وما زال السيد عشماوى يردد – اعتمادًا على أخبار ملفقة زائفة : أن القرآن الذى بين أيدينا به كثير من الأخطاء فى القواعد واللغة(٢).

* * *

والتزوير عنده وارد لا غضاضة فيه ، ولا عيب عليه ، ولا مانع عنده من التصدى لتفسير القرآن بالهوى .. فقوله تعالى : ﴿ ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ... ﴾ [المائدة : ٣] .

---

(١) محمد سعيد العشماوى : « الخلافة الإسلامية » (١٣ ، ٢٥) .

(٢) العشماوى : السابق (١٥١ ، ١٥٢) .

يقول العشماوى :

« الآية الكريمة نزلت بعد أداء النبى ﷺ والصحابة فريضة الحج .. ومن ثمَّ فإن المقصود بها أن اللَّه سبحانه وتعالى أكرم المؤمنين بإكمال فرائض الدين وشعائره .. وليس المقصود بها أن الدين كان ناقصًا وكمل » وأحال العشماوى على تفسير القرطبى – طبعة دار الشعب ص ٢٠٥٩ وما بعدها [١].

وبالرجوع إلى القرطبى نراه يقرر أن النقص وارد .. ولكن من النقص ما ليس بعيب .. كنقصان أيام الشهر ، ونقصان صلاة المسافر ، ونقصان أيام الحيض عن المعهود ، ونقصان أيام الحمل .. فنقصان أجزاء الدين فى الشرع قبل أن تلحق به الأجزاء الباقية فى علم اللَّه تعالى هذه ليست بشين ، ولا عيب [٢]. ولو قيل كانت ناقصة عما عند اللَّه أنه ضامُّه إليها ، وزائده عليها لكان ذلك صحيحًا فهكذا .. هذا فى شرائع الإسلام ، وما كان شرع منها شيئًا فشيئًا إلى أن أنهى اللَّه الدين منتهاه الذى كان له عنده [٣].

وأتى القرطبى بوجه ثان .. وهو أن إكمال الدين يعنى أنه وفقهم للحج الذى لم يكن بقى عليهم من أركان الدين غيره ، فحجوا . فاستجمع لهم الدين أداء لأركانه ، وقيامًا بفرائضه [٤].

وهذا الوجه لا ينفى النقص بالمفهوم السابق ، وهو نقص لا يعيب التشريع .. بل يتفق مع سنة الإسلام فى التدرج التشريعى [٥]. ووصْفُ الأديان السابقة بهذا الوصف لا يعنى الإزراء بها .. وإنما لأنها كانت أديانًا مرحلية .. كل منها لمرحلة زمانية معينة من عمر البشرية ، ثم كان الإسلام الدين الخاتم الصالح لكل زمان ومكان، والذى أعلن رسول اللَّه ﷺ استكماله كل عناصر البقاء والخلود فى حجة الوداع بآية المائدة التى « لم ينزل اللَّه بعدها حلالًا ولا حرامًا » [٦].

---

(١) سعيد العشماوى : « جوهر الإسلام » (٩٣) .

(٢) « تفسير القرطبى » (٢٠٥٩) . (٣) « تفسير القرطبى » (٢٠٦٠) .

(٤) السابق : الصفحة نفسها .

(٥) انظر : جابر قميحة : « المدخل إلى القيم الإسلامية » (٤٢ - ٥٦) .

(٦) « تفسير الجلالين » (٩٣) .

وفي هذا المعنى جاء حديث رسول اللّه ﷺ ، وقد رواه أبو هريرة - رضى اللّه عنه - :

« إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلّا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »[١].

ففي الحديث - كما يقول ابن حجر - ضرب الأمثال للتقريب للأفهام ، وفضل النبى ﷺ على سائر النبيين ، وأن اللّه ختم به المرسلين ، وأكمل به شرائع الدين[٢].

* * *

ومن آرائه المنحرفة ما قاله في آية الحرابة : ﴿ إِنَّمَا جَزَاؤُاْ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[المائدة : ٣٣] .

يقول العشماوى : وواضح من الآية وسبب تنزيلها أنها تقضى بالجزاء على من يحارب اللّه ورسوله ﷺ .. أى يحارب دين اللّه ، وشخص الرسول ﷺ .. فهى بذلك من الآيات ، المخصصة بشخص النبى ﷺ .. والنبى ﷺ وحده هو الذى يوقع الجزاء على من يحاربه ، ويحارب اللّه فى شخصه ، وهو الفيصل العدل فى تحديد شخص من حاربه ، وما يعتبر حربًا عليه .. أما بعد النبى ﷺ ، وبعد خلفائه الراشدين .. فمن ذا يكون كذلك ؟ الخلفاء ومنهم الفاسقون .. أم الفقهاء وفيهم المغرضون ؟[٣]

وهذا يعنى عمليًا إلغاء حد الحرابة من قائمة الحدود التى شرعها

---

(١) متفق عليه . واللفظ للبخارى . كتاب « المناقب » .

(٢) ابن حجر العسقلانى : « فتح البارى بشرح صحيح البخارى » (٦/٦٤٦) .

(٣) العشماوى : « أصول الشريعة » (١٢٩) .

اللّه سبحانه وتعالى ، وبعدها هبت أقلام موكوسة تدعى أن رجم الزانى المحصن ليس من الإسلام(١) .

* * *

وفى الأسواق مجموعة كبيرة من الكتب مطبوعة طباعة فاخرة جدًّا لكاتب « الأهالى » اليسارى « خليل عبد الكريم » وكلها تسير على نهج موضوعى واحد يتمثل فى الانتقاص الفاحش من ثوابت الإسلام ، ورسوله ﷺ ، والصحابة .

وأكتفى بنقل فقرة واحدة مما كتبه عن « مجتمع يثرب » فى عهد النبى ﷺ :

« كانت نزعة معافسة النساء لدى رجال (المجتمع اليثربى) من القوة بحيث دفعتهم إلى تحطيم الحواجز التى أقامتها (النصوص المقدسة) صراحة ، وبلا مواربة .. مثل :

من يظاهر من امرأته ثم يعتليها قبل التكفير ..

وآخر يركب زوجته وهى حائض أو مستحاضة .

وثالث يطؤها فى نهار رمضان...

ورابع ينكح امرأة أبيه ، أو يعاشرها دون عقدة نكاح ..

والمملوك الذى يشرع فى مفاخذة جارية سيده .. وقد يحدث العكس .

المرأة تسعى إلى أجير زوجها ليشبعها ، ويروى لها ظمأها لعجز زوجها عن ذلك ... إلخ .

كل هؤلاء : ذكورًا وإناثًا يعلمون علم اليقين أن الفعل الذى قارفوه حرمته عليهم الشريعة التى بلغها محمد .. ولكن نزعة التلاقى بالآخر تغلبهم وتقهرهم ، وتملك عليهم نفوسهم وعقولهم ووجدانهم ، وتعطل ملكة التفكير السديد عليهم ، فلا يرون فى « النصوص المقدسة » إلا قيودًا تحول دون انطلاقهم .. »(٢) .

* * *

---

(١) من هؤلاء ؟ الدكتورة آمنة نصير !! .

(٢) خليل عبد الكريم : « مجتمع يثرب » (٤٣) .

وأستاذة « مسلمة » تدرس لطلابها وطالباتها فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة رواية لمغربى ساقط بعنوان « الخبز الحافى » ، كلها وصف داعر بألفاظ صريحة مكشوفة للأعمال الجنسية الشاذة القذرة فى بيوت الدعارة ، ودافعت الأستاذة عن نفسها بأن « هذه هى الموجة الجديدة فى الأدب ، وهى موجة يجب أن يستوعبها الطلاب » !!

* * *

وذكرنى ذلك بقصيدة نشرت فى مجلة رسمية بعنوان « الوشم الباقى » تنهج نفس النهج الساقط ، وتزيد عليه كتابة الأصوات الجنسية السريرية ، وهى أصوات محترفات الدعارة (المكونة من الهمزة والحاء - أو الهمزة والحاء المشددة والواو) .

* * *

و « سيد » من قمم « التنوير » يكتب فصولاً وفصولاً عن « جناية الغزو الإسلامى » لمصر ، ويصف جيش عمرو بن العاص - رضى اللّه عنه - بأنه حملة غزو واحتلال .

* * *

ويلتقط الخيط « شاعر » تنويرى جدًّا ، فيصور الفتح الإسلامى لمصر بأنه «غزو همجى » ، ويشبه الفاتحين المسلمين بالهمج والجراد والغربان ، فيقول من كلام طويل :

همجٌ ...
رمت بهم الصحارى جنةَ المأْوى ...
تهرّ كلابهم فيها ...
وتجأر فى المدى قطعانُهم .....
يمشون فى سحب الجراد .....
كأن وجوههم لغربانٍ ...
وأعينهم لذؤبانٍ .....
وأرجلهم لثيرانٍ .....

يدوسون البلاد .....

ويزرعون خرابهم فى كل واد .....

أبناء أوزوريس صاروا لليبابْ .....

يا أيها الرمل ارتحل .....

يا أيها الرمل ارتحل .....

واذهب لشأنك يا جراد .

* * *

وكاتبة « تنويرية » تكتب مقالاً تصف فيه طالبات الجامعة المحتشمات ، واللائى لا يبدين شيئًا من زينتهن بأنهن « لابسات أكفان » . وتصف الاحتشام « بأنه رِدَّة حضارية » !! .

* * *

وآخر ما « أفرزته» الدكتورة التنويرية (ن) ما صرحت به فى تحقيق صحفى من أن « ختان الذكور » عملية وحشية مؤذية وضارة ، وتصرخ فى غضب « كيف تقطع هذه الجلدة مع أن لها فوائد متعددة ؟!! » .

(ملاحظة : السيدة (ن) تتحدث عن ختان الذكور لا الإناث) .

* * *

وتنويرى – فى برنامج تلفازى – يصف الحضارة العربية الإسلامية أن « نصفها حضارة لواط » .

* * *

وتنويرى كبير « جدًّا » – ينازع « تنويريًّا آخر » فى لقب « رائد التنوير » – يدعو فى قناة تلفازية إلى المساواة بين الذكر والأنثى فى الميراث .. فلما استوقفه مقدم البرنامج قائلًا : « ولكن هذا التحديد من الثوابت التى جاءت بها الشريعة !! أردف قائلًا : إن الأنثى فى الجاهلية لم تكن ترث .. فبدأ محمد ﷺ بتحديد نصيبها بنصف الذكر .. أى فتح لنا الطريق ، وعلينا أن نكمل بالتسوية بين الجنسين ..

وتحدث عن الفقهاء المجتهدين بقوله : « هم رجال .. ونحن رجال » .

(ملاحظة : ترى ماذا يبقى من هذا التنويرى إذا ووزن بأحد الأئمة الأربعة ؟ وما رصيده من عدة المجتهد وآلياته ؟) .

* * *

وفى صحيفة الأهرام الصادرة بتاريخ ١٩٩٩/٦/١٦ يتساءل أحمد عبد المعطى حجازى فى غضب : « ... هل نريد حقًّا أن نحرر عقولنا من الخرافة ، ونعالج نفوسنا من الخوف ، ونعامل أجسادنا بما هى جديرة به من اعتزاز واحترام ؟ » .

وتحرير عقولنا ، واحترام أجسادنا فى نظر حجازى لا يتحقق إلا برسم الأجساد عارية ، والسماح بإدخال الموديلات العارية إلى كليات الفنون ليرسمها الطلاب .. بل يتمادى أحمد حجازى فيدعو الفنان صلاح طاهر وآخرين أن يرسموا له صورة من هذا النوع العارى « حتى يراه الناس فى الواقع ، وربما رأوه على نحو أفضل » كما يقول بالحرف الواحد .

* * *

وفى مجال الحديث عن « الفئوس فى الرءوس » ، وعن جو الاختلالات الذى نعيشه يتمثل أمامنا أخطر جهاز إعلامى وهو « التليفزيون » بقنواته المختلفة .. والذى استطاع بنجاح فائق أن يدمر كثيرًا من قيمنا حتى أصبح رمضان – شهر الصيام والقرآن والعبادة والقيام – مرتبطًا ارتباطًا عضويًّا « بالفوازير » .. الفوازير التى تسللت إلى نفوس الناس ، وهيمنت عليها حتى أصبحت علامة من علامات التوقيت الزمنى فيواعد اثنان على اللقاء بعد الفوازير بساعة أو قبلها بساعة .. وهكذا .. ولما طالب بعض « الظلاميين » الذين نحن منهم بإيقاف البث التلفازى من المغرب إلى ما بعد العشاء بساعة حتى يفرغ الناس عمليًّا وذهنيًّا ونفسيًّا لصلاة المغرب والعشاء والتراويح ، هبت فى وجوههم العواصف ، وكيلت لهم الاتهامات ، فكان الإحباط والأسى والصمت !! .

وكنا نعجب أن يجود التلفاز بهذا الهراء الخبيث ، وغيره كثير .. في مصر بلد الأزهر والعلم .. والدين .. والمآذن .. والتاريخ العريق إلى أن جاءت كريمان حمزة ، وفجرت قنبلة خطيرة في كتاب من تأليفها سمته « للّه يا زمري » كشفت فيه المستورات المنكودة المنكوسة داخل المبنى الكبير .. وخلف كواليسه .. والذي يقرأ الكتاب الذي أحدث ضجة كبرى يخرج بانطباع صادق مؤداه أن الخلل في السياسة والسلوكيات الإدارية والفنية وإغفال ثوابت الدين والأمة وكرامة الإنسان ومشاعر الآخرين ... كل ذلك حول هذه المؤسسة إلى « غابة إعلامية » لا مكان فيها للانضباط والقيم والمعيارية العادلة .

وأترك الكاتبة تعبر في كتابها بصوتها عن موقفين .. وهناك عشرات من أمثالها :

ليلة القدر في مسجد أسد بن الفرات :

في ليلة القدر اعتاد الداعية عمر عبد الكافي أن يصلي بالناس ويدعو دعاءً طويلًا .. وكان نجم الرجل قد ارتفع ارتفاعًا لا يتناسب مع صغر سنه .. وتدفق المصلون من كل صوب وحدب خلف هذا الداعية .. أنهار من البشر سدت شوارع الدقي .. وراح مخرج برنامجي (الرضا والنور) الأستاذ أحمد طه يصور لإحدى الشركات الخاصة هذا المشهد الفريد .

وكل هذا الاندفاع نحو داعية شاب ، قوي في إلقائه ، قوي في إيمانه .. واستمتع الجميع بروح دينية عالية المستوى في هذه الليلة المباركة .

فجر هذا النجاح قنبلة أعداء النجاح .. قنبلة من الحقد الأسود .. والغيرة العمياء .. والحسد المشئوم غطى رمادها على كل خير .. ومنع الرجل من الخطابة في مسجد أسد بن الفرات .. وظلم الرجل ظلم الحسين ، وذبحوا الداعية الإسلامي الشاب بسكين الأمن تارة .. وسكين الفتنة الطائفية أخرى .. وحرمت مصر عالمًا شابًّا كان يمكن بشيء من ذكاء السلطة استقطابه لإصلاح الضمائر الخربة ، ووقف استباحة المال العام .. وإعادة بناء الشخصية المصرية السوية .. والحفاظ على طهارة القلب .. وزرع كل القيم التي كم نحن في حاجة إليها .. ولكنها إرادة اللّه .

قضية دعارة متفصلة وجاهزة :

كنت سعيدة قريرة العين بالعمل كنائب رئيس مجلس إدارة إحدى الصحف الخاصة .. وبينما كنت جالسة إذ دخل علينا شاب قدمه لى رئيس التحرير على أنه ضابط فى أمن الدولة .. ودار بيني وبين هذا الضابط حديث حول الدكتور عمر عبد الكافى .. حاول فيه الضابط إلحاق تهمة إفساد العلاقة بين المسلمين والمسيحيين ، وضرب الوحدة الوطنية بالشيخ عمر ... وحاولت بدورى إقناعه أن أى مسلم دارس لأبسط مبادئ الدين لا يمكن أن يقوم بذلك ... وأن علاقة المسلم بأخيه القبطى علاقة يجب أن تقوم على حسن المعاملة .. ورحت أذكر له بعض الأحاديث الشريفة .

قال رسول اللّه ﷺ : « من آذى لى ذميًا فأنا خصمه يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته » .

وهكذا نرى أن رسول اللّه ﷺ سمى أهل الكتاب بأهلة الذمة ليضعهم فى ذمته .. أى فى عنقه .. ثم فى أعناق المسلمين بعد ذلك .

إذن فمحال أن يقوم أى داعية إسلامى بالدعوة إلى الفتنة الطائفية ولكن الذى يفعل ذلك يكون إنسانًا جاهلًا جهلًا تامًا بحقائق الدين .. أليس اللّه هو القائل فى سورة المائدة : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ - ٨٥] .

تململ الرجل فى مقعده وأخذ نفسًا عميقًا وقال متجاسرًا بوقاحة لم أرها فى حياتى :

انظرى بقى يا مدام كريمان ... بقى عمر عبد الكافى هذا إن لم تلبسه جريمة ضرب الوحدة الوطنية فهناك قضية دعارة جاهزة ومتفصلة عليه هيلبسها فورًا ... احنا موش عايزين له أثر .. أى أثر ...

صعقتنى الكلمات المنحطة ... ودارت بى الحجرة ، ثم انسحبت خارجة من المكتب مبهوتة من شدة الفجور والظلم ... وقلت فى نفسى : هل يمكن إلحاق مثل هذه التهمة برجل أكثر ما يميزه فرط الحياء ... فماذا يمكن أن يلحق بى أنا شخصيًا عند اللزوم ؟

لا أعرف ما الذى أصابنى غير أنى كرهت عملى فى هذا المكتب الذى يتعامل مع مثل هذا النوع من البشر ، واشمأزت نفسى تمامًا وكرهت التعاون مع رئيس التحرير الشاب الصغير ابن أحد أئمة المساجد الذى تربطنى به وبأسرته صلات عميقة من المودة والثقة ...

تركت العمل فى هذه الجريدة نهائيًا دون أن أعرب عن السبب .. إذ إن الحديث على هذا المستوى يذكرنى بوحشية الموساد ... وبمراكز القوى فى عهد عبد الناصر وتجاسرهم على الإخوان المسلمين ... وصدق رسول اللّه ﷺ حين قال : « إن الفتى ليتكلم بالكلمة من مساخط اللّه لا يلقى لها بالًا يَهْوِى بها فى النار سبعين خريفًا »(١) .

* * *

كان هذا هو الموقف المأساوى الأول ، وهو لا يحتاج إلى تعليق ، ونترك الكاتبة لتقدم لنا الموقف المأساوى الثانى بكلماتها فى كتابها :

على جثتى إذاعة « العشرة المبشرون بالجنة » :

انغلقت الأبواب أمامى .. فشيخ الأزهر اعتذر لأن له برنامجًا خاصًا .. ومفتى الجمهورية يظهر بصفة يومية فى جميع القنوات .. وأنا أبحث عن الجديد الشيق .. يبقى الدكتور أحمد شلبى أستاذ

---

(١) كريمان حمزة : « لله يا زمرى » (١١٨ - ١٢١) .

التاريخ .. ماذا يمكن أن أسجله معه يوميًا فى رمضان ؟ أشار على زوجى المهندس سامى القاضى بكتاب « العشرة المبشرون بالجنة » .. وكان الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الشريف الأسبق - رضى اللّه عنه - وأرضاه قد أثاره وتحدث عنه وهو « العشرة المبشرون بالجنة » الذين جاء ذكرهم فى حديث شريف ، قال ﷺ : « أبو بكر فى الجنة .. وعمر فى الجنة .. وعثمان فى الجنة .. وعلى فى الجنة .. وطلحة فى الجنة .. والزبير فى الجنة .. وسعد بن أبى وقاص فى الجنة .. وسعيد بن زيد فى الجنة .. وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة .. وأبو عُبيدة بن الجراح فى الجنة » .

كما أن الدكتور أحمد شلبى هو مؤلف كتاب « العشرة المبشرون بالجنة » .. اتصلت بالدكتور شلبى الذى رحب بالفكرة وبدأت المذاكرة والتحصيل واشتريت « العبقريات » للعقاد ، وكتاب « العشرة المبشرون بالجنة » للأستاذ عبد اللطيف عاشور الذى يكتب بأسلوب صوفى محبب لدى الجماهير، ولأن الدكتور أحمد شلبى يكتب بأسلوب أكاديمى بحت .. وخلطت بين الاتجاهات الثلاثة .. بالإضافة إلى خواتيم الحلقات من كتاب « الحلية » ورحنا ننتقى أجمل الأماكن للتسجيل حتى أنى سافرت فى رحلة نيلية على الباخرة بين الأقصر وأسوان وسجلت مع الدكتور أحمد شلبى على ظهر الباخرة وهى تجوب نيل مصر .. ودفعت ثمن التذاكر من جيبى ولم أتجاسر على طلب المبلغ المدفوع من التليفزيون .. إذ إن رئيس التليفزيون يرى بأريحيته أن البرامج الدينية لا تسجل إلا فى الاستديو لا حاجة لها بالجمال ولا الأبهة .. وتم تسجيل ثلاثين حلقة جاءت على مستوى طيب والحمد للّه .

أخبرت السيدة سهير الإتربى بإتمام العمل والمونتاج ومراجعة الرقابة .. فسعت لوضع البرنامج فى وقت جيد ..

جن جنون رئيس التليفزيون .. صاح صارخًا : على جثتى إذاعة « العشرة المبشرون بالجنة » ! ودارت أحاديث كثيرة يندى لها الجبين بين رئيس التليفزيون ونائب رئيس القناة الثانية .. الذى راح بدوره

يوصل لى كلمة بكلمة .. وإليك أيها القارئ الكريم أسلوب رجل مسئول فى التليفزيون .. قال رئيس التليفزيون :

– العشرة المبشرون بالجنة !! ولماذا عشرة ؟

لماذا لا يكونون اثنين .. أو ثلاثة .. أو خمسة من أين تَأتى لها رقم عشرة ؟!!

العشرة من أيام الرسول ﷺ !! لماذا .. مفيش واحد من اليومين دول مبشر بالجنة .. واحد من السلطة مثلًا .. يعنى عاطف صدقى [1] موش مالى عينيها ؟! ولا صفوت الشريف موش من المبشرين بالجنة ؟! الست كريمان موش ذكية بالمرة كانت تختار اثنين من الماضى ... واثنين من الحاضر ... لا ... لا واللّه لن تذاع الحلقات ... على جثتى .

– ده حتى الصحفى (فلان) قال للوزير : إن العشرة المبشرين بالجنة كلهم إرهابيين ..... لا يمكن !!!

ومنعت الحلقات ... وأسقط فى يدى ... وطار بى زوجى إلى الغردقة حيث أمضيت العشرة الأوائل فى رمضان فى Grand Hotel نائمة على ظهرى ودموعى لا تجف .. وأرفع الأمر للّه .

« اللهم حل هذه العقدة ! وأزل هذه العسرة ولقنى حسن الميسور ! وقنى سوء المقدور ، وارزقنى حسن الطلب ! وقنى سوء المنقلب ! اللهم حُجَّتى حاجتى ! وعُدَّتى فاقتى ! ووسيلتى انقطاع صلتى ! شفيعى دموعى ! ورأس مالى احتياجى ! وعجزى كنزى ! اللهم قطرة من بحارك ترويني ! وذرة من عفوك تكفيني ! علمك بحالى يغنى عن سؤالى يا أرحم الراحمين » [2] .

* * *

وهذه الشواهد ، وتلك الجذاذات تمثل نماذج ، بل إشارات قليلة جدًّا لغيوض من السلع الفاسدة التى يتجر بها التنويريون فى سوق الفكر والأدب ، فى مصر ، والوطن العربى .

---

(١) كان عاطف صدقى رئيسًا للوزراء آنذاك .

(٢) « لله يا زمرى » (١٢٤ – ١٢٧) .

والذى يقرأ إصدارات وزارة الثقافة فى عهد الوزير فاروق حسنى يرى سيلًا من « الإبداعات » الشعرية والقصصية تلطم القيم الدينية والخلقية والآداب العامة والذوق الجمالى ، وكأن ذلك ناجم عن خطة موضوعة لتدمير هذه القيم ، ولا تبالى ، ويكون الخطأ خطيئة إذا كان فى عمل نقدى من عمل الوعى الذى لاحظ فيه للأحلام والتحليقات والتهويمات ، وكل - أو أغلب - هذه الأعمال الصادرة عن وزارة الثقافة تضع الدين مقابل العلم .. أى تضع التفكير الدينى مقابلًا دميمًا ذميمًا للتفكير العلمي المستنير ، وتحت يدى آخر إصدارات وزارة الثقافة النقدية [1] ، وهو يصفق لكتب ساقطة .. موضوعيًا .. وفنيًا .. وفكريًا بالمعايير النقدية الحصيفة - بصرف النظر عن قيمتها الدينية ، وموقفها من الدين ، وهذه الكتب هى : « الإسلام وأصول الحكم » لعلى عبد الرازق ، وكتاب « فى الشعر الجاهلى » لطه حسين ، وكتاب « مقدمة فى فقه اللغة العربية » للويس عوض ، وكتاب « الأنبياء فى القرآن الكريم » لأحمد صبحى منصور ، ورواية : « مسافة فى عقل رجل » لعلاء حامد .

وعن هذه الكتب يقول الكاتب : « إنها كتب تخاطب العقل ، أى أنها تستخدم لغة العلم ، أو تخاطب الوجدان وحاسة النقد لدى الإنسان .. وبذلك يكون مفهومًا هجوم المؤسسات الدينية عليها ، وهى مؤسسات لا تستخدم إلا لغة الدين » [2] .

وأكتشف - من كلام الكاتب نفسه - أنه لم يقرأ هذه الكتب التى صفق لها وهلل ؛ فهو يذهب إلى أن الأزهر كان وراء مصادرة كتاب « الإسلام وأصول الحكم » لعلى عبد الرازق « لمجرد أنه ذكر أن النبى محمدًا ﷺ عندما حكم فى المدينة كملك ، حكومة تقوم على ذات الأساس الذى كان موجودًا لدى القبائل العربية فى عهد ما قبل الإسلام » [3] . ويحيل الكاتب استقاء هذه « المعلومة » على كتاب على عبد الرازق ، وكتاب : « الخلافة الإسلامية » لسعيد العشماوى .

---

(١) وهو كتاب : « أنساق القيم فى الإبداع المصرى » لطلعت رضوان : سلسلة كتابات نقدية رقم ١٠٣ - مايو ٢٠٠٠ .

(٢) طلعت رضوان : السابق (٣٠) .   (٣) السابق (٢٩) .

وبالرجوع إلى الكتابين نجد أنهما يذكران نقيض ما ذكره الكاتب : فعلى عبد الرازق يورد قول الرسول ﷺ لرجل ارتعد فى حضرته : « هون عليك .. فإنى لست بملك ولا جبار .. وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة » . ويعلق بقوله : فذلك صريح فى أنه ﷺ لم يكن ملكًا ، ولم يطلب الملك ، ولا توجهت نفسه - عليه الصلاة والسلام - إليه [١].

ويقول سعيد العشماوى عن النبى ﷺ فى المدينة أنه لم يحكم الناس أصلًا - كملك أو أمير أو رئيس أو سلطان ، وإنما حكمهم عرضًا كنبى من الله ورسوله ﷺ إلى الناس[٢].

والأمثلة التى عرضناها لا يمكن أن تنتسب للفكر السوى ، ولا للفن النظيف ، كما لا يمكن أن تنتسب للحرية البناءة الراقية .. فالحرية بلا ضوابط من القيم السامية والوعى الرشيد تتحول إلى فوضوية مدمرة .

فالفن السوى لا ينهل من المراحيض والمستنقعات ، والشذوذ والسفاهة ، ولكنه يمثل النبض الصادق ، والتطلعات الإنسانية فى ظل القيم الرفيعة ، خلوصًا إلى بناء مجتمع سليم ناهض .

ومن الخلل النفسى والتخبط والتناقض أننا - نحن الظلاميين - كلما نقدنا « الإفرازات » اللاأخلاقية ، واللاأدبية - التى ألمعنا إلى بعضها - هاج التنويريون ، واعتبروا نقدنا عدوانًا على حرية المفكر والأديب فى الإبداع . وإنى لأتساءل : إذا كان من حق الأديب أن يتمتع بحرية الإبداع .. أليس من حقنا أن نتمتع بحرية النقد ؟

فإذا ما ظهر وانكشف ما فى دعواهم من خلل وتناقض ، لوحوا بورقة أخرى وصرخوا : هذا تطرف .. وإرهاب فكرى .. ولم أصدق

---

(١) « الإسلام وأصول الحكم » (١٥٠ ، ١٥١) .

(٢) « الخلافة الإسلامية » (٩٠) .. ومن غرائب ما رأيت أن الكاتب طلعت رضوان يكتب فى ثبت مراجعه : القرآن الكريم . ويكتب بجانبه أكثر من طبعة منها طبعة الأزهر ، وطبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف . أقول : هذا غريب لأن القرآن يحال عليه برقم الآيات لا الصفحات .

عينى وأنا أقرأ للسيد رئيس هيئة قصور الثقافة عندما سُئل عن الدوافع وراء حملة النقاد لرواية « وليمة لأعشاب البحر » التي قامت الهيئة بطبعها ونشرها بأن هؤلاء مجموعة « فشلت فى أن تحكم بالقوة والسلاح ، فأرادت أن تحكم حركتنا ، ولا أعتقد أن المسألة تخرج عن هذا الإطار » ص ٧ من أخبار الأدب ٢٠٠٠/٥/٧

وفى العبارة إيحاء واضح بإثارة السلطة التنفيذية واستعدائها على هؤلاء النقاد أو « مجموعة القوة والسلاح » يؤكد هذا المعنى ما ذكره السيد رئيس القصور فى رده (الغاص بالأخطاء النحوية واللغوية لا المطبعية) والمنشور فى صحيفة الشعب فى ٢٠٠٠/٥/٢ ، يقول : « لكن هناك بعض الجماعات الأصولية السياسية والثقافية دأبت على تهويل ما تظن أنه خطأ فى محاولة لإثارة البلبلة ، وفرض هيمنتها ، وترويع المسئولين والمثقفين والمبدعين بحيث يظل المجتمع أسير (يقصد أسيرًا) لتلك الصورة التى يروجون لها ، ويعملون ضمن شبكة واسعة منظمة للسيطرة على مقدرات حياتنا الثقافية » .

ويقول : « ولعل مقال محمد عباس فى الشعب أبلغ دليل على المنهج الإقصائى والانتقائى الذى يقوم به البعض فى محاولة تصوير أنفسهم بأنهم هم وحدهم حماة الأديان والمتحدثين (يقصد المتحدثون) باسم اللّه جل جلاله على الأرض » ، ويتحدث عن الدكتور محمد عباس ويصفه بأنه « ليس ناقدًا أديبًا ، بل هو رجل يكتب فى موضوعات عامة لإشعال الحرائق ، ومقالاته السابقة التى يهاجم فيها كل المسئولين بمصر والمنشورة بالشعب وعلى رأسهم رئيس الدولة توضح الغرض المستتر الذى يهدف إليه » .

ومرة أخرى نرى فى كلام « رئيس الهيئة » استعداء ، واستدعاء للسلطة التنفيذية وعلى رأسها رئيس الجمهورية . وهذا يدل على شعور أكيد بضعف موقف الذين يدافعون عن رواية « حيدر » . يدل على ذلك تصويره لناقدى الرواية بأنهم ينتمون إلى جماعات أصولية وثقافية .. وهذا كذب بواح ، فمن الناقدين والناقضين قضاة ومحامون وأساتذة فى الجامعات لا علاقة لهم بأى تنظيم أو تيار أصولى .. ومن هؤلاء الأستاذ فاروق جويدة الذى كتب فى الأهرام بتاريخ ٢٠٠٠/٥/٧

مقالًا قويًا جدًا .. جدًا بعنوان « الثقافة الجادة » نسف فيه بحق وعقلانية « الحيدرية والحيدريين » المدافعين عن « أدب المراحيض » ، وقد وجدت صعوبة كبيرة فى اختيار بعض فقرات منه ، فكله من أوله إلى آخره جدير بالنشر على أوسع نطاق .. وأكتفى منه بالقطوف الآتية :

....

« .. ما هو الهدف من نشر رواية سورية لحيدر حيدر من ميزانية أجهزتنا الثقافية ؟ وكيف تصدر من أموال تخص نجوع مصر وقراها وشبابها المطحون ؟ .. » .

....

« .. إن هذه الكتابات تعتمد تمامًا على حديث الغرائز ، حيث لا أسلوب .. ولا فكر .. ولا هدف .. ولا قيمة .. وهى أبعد ما تكون عن جماليات الفن والإبداع .. هناك فرق كبير بين فنون تؤكد قيم الجمال حتى لو قدمت نماذج سلوكية قبيحة ، وفنون أخرى تروج القبح وتدعو إليه » .

« لو خرج رجل مجنون إلى الشارع ، ووقف عاريًا فى ميدان التحرير فإن الشرطة سوف تلقى القبض عليه ، ويعاقبه القانون .. فماذا عن هؤلاء الذين يمارسون العرى فى الكتابة ، ويجدون من ينشر لهم ، ويدافع عنهم ، ويعطيهم الأموال من جيوب الشعب الغلبان ؟ » .

....

« .. لو أن شخصًا قرر الآن أن يطبع كتابًا ، ونحن على أبواب الانتخابات البرلمانية ، وأن يثأر فيه من الحزب الوطنى ويشوه رموزه .. هل يجد فى أجهزة الثقافة من ينشر له هذا الكتاب ؟ » .

* * *

ويصف رئيس الهيئة الدكتور محمد عباس بأنه « ليس ناقدًا أديبًا » ، وكنت أتمنى أن يعرّف لنا « الناقد الأديب » من وجهة نظره وأنا أقول : بل هو أديب وناقد من الطراز الأول بكل المقاييس .. فالرجل له قصص وروايات لها قيمتها الفكرية والفنية ، وله نهج جديد فى

كتابة « المقال » ، وقد رأيت بعض أساتـذة الأدب فى إحـدى الجامعات العربية يصف محمد عباس بأنـه رائـد « فن المقـال الدرامى » ، ويقـدم نماذج من هـذا الفن لطلابـه كمادة دراسية ضمن منهج « الفنون النثرية في العصر الحديث » ، ولا يستـطيع منصف أن ينكر أن محمد عباس معروف مشهورعلى مستوى الوطن والأمة العربية والإسلامية، وجاليات العـرب والمسلمين في أوروبا وأمريكا من سنوات ككاتب شديد المراس ، متمـيز المنهج والأسلوب .. يقصد بكتاباته وجه اللّه ومصلحة الوطن ، ونصرة الإسلام .. ومن عجب أن يكتب أحـد الصحفيـين مقالًا طـويلًا – ضمن منظـومة الهجوم الضارى عـلى محمد عباس – عنوانـه « محمد عباس لا هـدف لـه إلا الشهرة » أخبـار الأدب : ٢٠٠٠/٥/٧ – ص ١٨ ، وأنا أعلم علم اليقـين أن الرجل زاهـد فى الشهرة ، يتهرب دائمًا من الأضواء ، ويرفض كل دعوات القنوات التلفـازيـة الفضائية .. منها دعـوة وجهت إليـه فى رمضان المـاضى للظهور فى برنامج « الاتجاه المعاكس » بقـناة الجزيرة ، وآخرها دعوة للظهور فى نـفس القنـاة فى برنامج « المشهد الثقافى » . ولو أراد الرجل الشهرة والجاه والنـفوذ ، وبهارج الحياة وزخارفها لأحنى رأسه ، ولو قليلًا ، وساير الاتجاه السائد .

* * *

واتهام محمد عباس بحرصـه على التهييج والإثارة ، وإشعال الحرائق ... اتهام ساقط .. لأن شعبنا يا سيدى – مسلميه ومسيحييـه – شعب متـدين بطبيعـته ، وهـو يتحرك ويتـصدى بصورة عفـوية لكل من يخدش دينـه .. فالرجل الأمى الجاهل قد يسب أحـدهم أباه ، فلا يرد الإهـانـة عفـوًا وتسامحًا ، ولكن إذا سب دينـه هاج وماج ، وتكون معركة قد تسيل فيها دماء .

وأذكر فى هـذا المقـام – فى عهد السادات – بعـد حصولنا على درجـة الدكتوراه دعينا فى عيـد العلم لحفل احـتفاء وتكريم للحاصلين على هـذه الدرجـة فى مبنى أمانـة الحزب الوطنى على شاطئ النـيل ، وحضر الحفل الرئيس السادات وزوجتـه ، واستضافوا فى الحفل رجلًا جاوز الثمانين قيل لنا : إنه الأستاذ الذى كان يدرس مادة « الرياضيات »

فى المرحلة الثانوية للطالب محمد أنور السادات .. بدأ الرجل بالحديث من المنصة مخاطبًا سيدة مصر الأولى ، وكان ضمن ما قال :

« .. لقد خلق اللّه الجمال وقسّمه نصفين، فخصَّكِ بنصفه الأول ، ووزع نصفه الثانى على بقية نساء العالمين .. » .

وظهر الامتعاض على الوجوه والغضب ، بسبب هذا النفاق الرخيص ، وبدأ « الأستاذ » يتحدث عن السادات بقوله : « إن فى خلق السموات والسادات لآيات لقوم يعقلون » ، فانتفض الحاضرون ، وصرخوا فى صوت واحد :

« انزل يا منافق !!

انزل يا فاجر !!

حركة عفوية تلقائية ، ظهرت – واللّه – كأنما اتفق عليها ، وتدرب الحاضرون عليها من أيام ، وأغلب من حضر هذه الواقعة ما زالوا أحياء منهم : الدكتور أحمد أمين مصطفى الأستاذ بكلية الألسن .. والدكتور عبد اللطيف عامر رئيس قسم الشريعة بجامعة الزقازيق .. والدكتور عبد الرؤوف أبو السعد عميد كلية التربية بدمياط .. وكان ضمن الثائرين أساتذة مسيحيون .. ويحمد للسادات أنه كلف من يهمس فى أذن الرجل بالبعد عن « منطقة المقدسات » فى حديثه .. فاعتدل الرجل . (مع ملاحظة أن الدكتور محمد عباس لم يكن فى هذا الحفل) .. فشعبنا بطبيعته شعب متدين ، سليم الفطرة .. فمصر – كما يقول الأستاذ فاروق جويدة – « عشقت الأديان قبل أن تظهر فيها الأديان .. وهى التى احتضنت كل رسالات السماء من التوراة والإنجيل والقرآن ، وهى التى أكرمت العائلة المقدسة ، وحفظت للإسلام دوره وتاريخه » . الأهرام ٢٠٠٠/٥/٧

ومن مصر خرجت الجيوش لتحقق أعظم انتصارين فى التاريخ : على الصليبيين فى (حِطّين) .. وعلى التتار فى (عين جالوت) .. وبالنصر فى المعركة الأخيرة التى كان شعارها : « وإسلاماه » أنقذت مصر « أوروبا » من التدمير التتارى ، فلولا هزيمتهم لانطلقوا إلى « مضيق جبل طارق » ، ثم شمالاً إلى أوروبا ليُحْكِمُوا الحلقة بعد الوصول إلى آسيا الصغرى .

* * *

ويحمل الحاملون على محمد عباس - لأنه كشف سوأة « أدباء المراحيض »، ويتهمونه بالتهويل .. والتضخيم .. والتهييج .. والخطابية .. والعاطفية .. والتطرف .. وأقول : إنها عملية إسقاط رخيصة ، فمهاجمو الرجل هم أقرب الناس إلى هذه الصفات والسلوكيات . ولنفتح ص ٢٢ من روز اليوسف (٢٠٠٠/٥/٦) وفى صدر الصفحة نقرأ ما يأتى :

أشرس حملة إرهاب فكرى تشهدها مصر - إهدار دم وزير الثقافة، ومبدع سورى ، وأربعة مثقفين مصريين .. إعلان الجهاد المقدس ضد « وليمة لأعشاب البحر » هدفه أن نصبح وليمة للمتطرفين .. الروايات لا تقرأ بأسلوب « جوبلز »(١) النازى ، ولا بطريقة وكلاء اللّه على الأرض - لم تشهد مصر إرهابًا فكريًّا منذ عدة سنوات مثل الذى شهدته الأسبوعين الماضيين - فتاوى تكفير بالجملة لا تحتاج إلا الضغط على الزناد - بيانات إهدار دم كافية لتفجير آلاف الألغام ألقيت عمدًا فى ساحتنا الثقافية والفكرية لتحرق الجميع دون تفرقة - مقاصل (!!) لاجتثاث الرءوس ، وقطع الرقاب داخل محاكم التفتيش الحديثة - انتصر الخوف ، وسيطر الفزع ، وساد الرعب ، وأصبحنا نقف فى طابور إعدام ننتظر دورنا .... » (ص ٢٢) .

ومن هذا التهويل كثير ... وكثير ... يشدك إلى عصر المقاصل وسجن الباستيل والدماء فى ميادين باريس أيام الثورة الفرنسية .. وهذا هو التطرف الحقيقى .. والدولة تحارب ما تسميه بالتطرف الدينى الذى تعتبره رجعية ، ورِدَّة حضارية ، وتدميرًا للوطن .. ولكن ما رأى المسئولين فى « التطرف اللا دينى » .. التطرف الإنكارى الذى يتعامل أصحابه مع الإسلام كأنه « مشط كبريت » يحرقونه عودًا عودًا ويلقون به ، فلا يبقى منه إلا « الغطاء الخارجى » الذى لا يغنى ، ولا يشبع من جوع .. وقد أصبح الهجوم على الإسلام ونبيه ﷺ وكتابه وقيمه العليا هو أقرب طريق وأسهله لتحقيق الشهرة والمجد والمال .

* * *

(١) جوبلز : هو وزير الإعلام فى عهد هتلر .

والذين دافعوا عن هذه الرواية سلكوا مسالك متعددة :

١ - أحدهم دافع عنه بمقولة أن الرجل ذو خلق رفيع ، وله نضاله المعروف ، وأعمال فنية أخرى رائعة .

(وهو دفاع واه لأنه دفاع خارج الموضوع ، وصفاته هذه تشدد من تجريم العمل فحسنات الأبرار سيئات المقربين) .

٢ - وبعضهم دافع بمقولة « حرية الفن » فمن حق المبدع أن يقول ما يشاء .

(وهو رأى هدام لأن الحرية بكل أشكالها لها قيود وضوابط .. وإلا أصبحت فوضوية مدمرة .. فمثلًا حرية العمل مكفولة بنص الدستور ، ولكنها مقيدة بقيود وضوابط ثقيلة منها : احترام قانون العمل ، وألا تكون مادة التجارة محرمة كالمخدرات التى يعمل بها ... إلخ .

على أن الذين ينادون بحرية المبدع يعتبرون نقدنا للإبداع المريض إرهابًا فكريًّا !!) .

٣ - وبعضهم يبرئ « حيدر » بأن هذه العبارات إنما جاءت على ألسنة بعض شخصيات الرواية وليس الروائى مسئولًا - بالضرورة - عن حوار شخصياته ، أو يكون هذا الحوار ممثلًا لرأيه هو .. إنما هو ملتزم فى ذلك بواقعية التصوير .

والتهافت هنا واضح .. لأن الروائى مخترع هذه الشخصيات وأسلوبها فى التعبير . كما أن « الواقعية » لاتعنى تسجيل الواقع ونقله كما هو .. وإلا ما كانت الرواية رواية ، ولا الفن فنًّا .. لأن الواقعية تعنى مصداقية التصوير ، وتصفية الواقع ، وتنقيته بوجدان الفنان الواعى ، وعقله الفعال .

والنقاد يجمعون على هذا الحكم .. وهى مسألة سنعود إليها فيما بعد بشىء من التفصيل إن شاء اللّه .

٤ - وبعضهم يدافع عن الرواية بالإحالة على شهادات سابقة كتبت من شهور أو سنوات بتقديرها والثناء عليها .. كالدكتور على الراعى رحمه اللّه .

(وهذه الإحالة توحى بضعف موقف المحيلين . على أن هذه الآراء

لا تلزمنا .. وهى فى ذاتها تحتمل النقد بل النقض ، كما أنها لا تبرئ الرواية مما فيها من عبارات هابطة سافلة) .

ثم أقول : إننا لو حكّمنا - بعيدًا عن الدين - الحد الأدنى من « الذوق السوى » ما استساغ ألفاظ « الخراء » وما دار في فلكها .. ثم أسأل ما سر إصرار الكاتب على هذه العبارات ، وهل تتأثر الرواية فنيًا وموضوعيًا لو أسقطت من الرواية أو استبدل بها غيرها ؟

* * *

وأذكر القارئ - على سبيل الإلماع - ببعض ما قدمه التنويريون على مائدتهم :

١ - لا علاقة للإسلام بالسياسة ، ونظام الخلافة الراشدة نظام جاهلى فاسد .

٢ - في القرآن آيات أدخل عليها تحريف ، وهو لا يخلو من الأخطاء اللغوية والنحوية .

٣ - التشكيك فى الحدود الإسلامية ، والدعوة إلى رفعها أو بعضها من الشريعة .

٤ - سقوط أجهزة الإعلام - وخصوصًا التلفاز - فيما حرم اللّه بالإساءة إلى الدين بالعروض اللا أخلاقية ، والرقص العارى ، والفوازير ، وحرمان أصحاب « الرأى الآخر » ، وخصوصًا الإسلاميين من التعبير عن آرائهم .. فالمسيطرون على هذه الأجهزة والقنوات من عتاة العلمانيين واليساريين .

٥ - مجتمع المدينة أيام رسول اللّه ﷺ كان مجتمع دعارة وانهيار خلقى .

٦ - أدب الفراش والدعارة - قصصًا وشعرًا - يمثل جوهر التجديد والوعى الراقى .. وبعضه تسرب ليكون مادة دراسية جامعية .

٧ - فتح المسلمين لمصر كان غزوًا همجيًا وحشيًا .

٨ - التحشم والحجاب تخلف ورجعية ، وردة حضارية !!

٩ - في ختان الذكور ضرر .. ووحشية .. ويجب تحريمه .

١٠ - الحضارة العربية الإسلامية حضارة لواط .

١١ - ثوابت الشريعة في الميراث وغيره يجب أن تتطور وتتغير .

١٢ - احترام العقل والجسد لا يتحقق إلا بالسماح برسم الأجساد عارية في كليات الفنون كمادة دراسية لارتقاء الفن .

١٣ - الإساءة إلى ذات اللّه والدين ووصف القرآن بأنه« خراء » عمل فنى رفيع علينا احترامه وعدم التعرض له !! .

وغير ذلك كثير ... وكثير جدًّا .

* * *

كانت هذه بعض مظاهر الخلل الفكرى والثقافى والأدبى الذى نعيشه ابتداء من العقدين الأخيرين بصفة خاصة ... لا صوت - له اعتبار - إلا الصوت الحكومى .. والعلمانى .. واليسارى . أما الصوت الإسلامى فخافت .. أو مخنوق .. أو ممنوع .. تراكمات نفسية ثقيلة عنيفة كانت تتجدد ، وتزداد وتتكثف .. الإحباط .. أو اليأس .. أو الغضب الدفين .. مشاعر تجذرت .. وترسخت فى النفوس .

ثم جاءت « وليمة لأعشاب البحر » ، لتنكأ الجراح ، وتوقظ ما نام ، وتزيح الرماد عن وميض نار أوشك أن يكون له ضرام .. فكانت مظاهرات ومؤتمرات واحتجاجات . ولم يتَصَدَّ المسئولون فى وزارة الثقافة للمشكلة بوعى وتفهم ، وواقعية ومصداقية ، وتابعتهم الصحف القومية ، وبعض صحف المعارضة ، وأصروا على التمادى فى الباطل والتطرف ، مدعين أن الرواية ليس فيها ما يخدش الإسلام والخلق .. بل زاد تماديهم تماديًا فادَّعوا أن الرواية تؤدى للإسلام خدمات جليلة (!!) .

* * *

وعلى أية حال عكفت على قراءة الرواية قراءة متأنية فاحصة ، ورأيت أن من حق الإسلام علىّ والأدب أن أقدم فيها دراسة موضوعية منصفة ، آمل أن تكون وافية بالغرض ، وجعلت الدراسة قسمين :

القسم الأول : عنوانه : « مع الرواية دينًا وأدبًا » .

والقسم الثاني : عنوانه : « الرواية بين التحدى والتصدى » .

ولا أفصِّل القول فى المقصود بهذين القسمين .. فالقارئ على إدراك ذلك قدير .. ثم إني ذيلت الكتاب « بوثائق » مختلفة استكمالاً للفائدة ...

وأخيرًا أدعو اللّه أن أكون قد وفقت فيما خلصت إليه من أحكام .. إنه نعم المولى ونعم النصير .

د . جابر قميحة

ج . مصر . ع

الجيزة . الأورمان

رمز بريدى ١٢٦١٢

ص .ب ٢٤١

ربيع الآخر ١٤٢١

يوليو ٢٠٠٠

* * *

القسم الأَول

مـع الـرِّوايـة

أَدبًا ودينًا

عـرض الـرِّوايـة

« وليمة لأعشاب البحر » لحيدر حيدر ، أعطاها كاتبها هذا العنوان لأن بطل الرواية .. أو واحدًا من أهم أبطالها ، وهو « مهدى جواد » انسحب من الحياة بعد معاناة طويلة ، ووقائع وتجارب مرة قاسية ، وألقى بنفسه منتحرًا ، ليكون طعامًا أو « وليمة لأعشاب البحر » .

وتدور أحداث الرواية فى العراق والجزائر .. وإن كان حضور الأخير أظهر وأكثر امتدادًا فى الظاهر على الأقل .. والأحداث منها التاريخى الحقيقى .. ومنها الروائى المخترع ومنها ما يروى مباشرة .. ومنها ما يستحضر بالتذكر وأسلوب الاسترجاع أو الاجترار وهو ما يسمى بالـ(Flash Back) .. وهذا ما حَرَمَ الأحداث « التدفق التصعيدى » المنتظم ، الذى يجعل خط المنطق الروائى متفقًا وموازيًا للمنطق الزمانى من البداية إلى النهاية ، بدون « تقاطعات » أو « مقاطعات » .

قَسَّم الكاتب روايته ثمانية فصول .. عناوينها بالترتيب : (الخريف - الشتاء - الربيع - الأهوار - الحب - نشيد الموت - ظهور اللوياثان - الصيف) .

والمساحة الزمانية فى الرواية تستغرق عهد عبد الكريم قاسم فى العراق ، وأبو مدين فى الجزائر ، ويطلق عليه فى الرواية (بوخروبة) . يفجع الماركسيون فى حكم « الزعيم الأوحد » ، فيلجأون إلى تشكيل التنظيمات المسلحة ، وتبدأ المواجهة - أو المواجهات - المسلحة غير المتكافئة .. وأشهرها وأشدها كانت فى مستنقعات « الهور » حيث سقط الرفاق صرعى ، « وتهاوى من بقى منهم فى الشوارع والأزقة والأقبية برصاص كواتم الصوت والبلطات القاطعة ، وضاغطات الكونكريت التى تهشم الرأس بين مخالبها ، وسائر مستحدثات القتل المستوردة ، وينجو من ينجو هاربًا عبر فجاج الأرض »[1] .

---

(١) « الوليمة » (٤١٣) .

وأهم من هرب من هذه المجزرة ، ومن جحيم الإرهاب الذى شنه الزعيم الأوحد على الشعب العراقي شخصيتان محوريتان هما : مهدى جواد ، ومهيار الباهلي اللذان يَمَّما شطر الجزائر بعد أن استقلت بعشر سنين .. فاستقبلتهما مدينة « بونة » الجزائرية الساحلية .. جاءا ، والتقيا على غير اتفاق أو ميعاد مأخوذين بعظمة بلد المليون شهيد ، ويجمع بينهما المذهبية الماركسية ، وصدمة الهزيمة والانكسار ، ومعاناة التعذيب فى السجون والمعتقلات ، والطموح إلى التغيير الشامل ، وفقًا لأحلام الأيديولوجية التى يعتنقان .

ويلتقى جواد بالفتاة الجزائرية « آسيا لَخْضر » أمام مدرسة القديس أو غسطين الثانوية ، واتفقا على أن يعلمها اللغة العربية فى دروس منزلية خاصة ، ويصبح الدرس وسيلة ومفتاحًا للقاء والسهر والخروج والمتعة .

ويحاول مهيار الباهلى أن يعوض عن الهزيمة الساحقة التى نزلت بالماركسيين فى العراق فيواصل جهوده متصلًا بالثوريين الجزائريين .. ولكنه لم يجد الاستجابة المأمولة .. فالشعب الجزائرى - بعد الاستقلال ، وتحت وطأة الحكم الوطنى الشمولى - يعيش جوًّا من الخوف ، وانعدام الوزن والثقة .

ويلتقى مهيار بـ« فلة بوعناب » ، وينزل فى بنسيون هذه التى كانت مجاهدة قديمة ، وتشرح له الوضع السيئ الصادم فى جزائر ما بعد الاستقلال « ... الدنيا فوضى ، والبلاد بلا قوانين ولا مؤسسات ، والصراعات محتدمة داخل جبهة التحرير التى تحولت إلى حزب مخلوط : يمين ويسار ووسط .. عسكر .. وتجار .. وإقطاع .. وفلاحون .. ومثقفون .. مخلوطة عجيبة وغريبة !! »[1] .

الثورة الوطنية انتهت ، والرجال صاروا فى مواقع السلطة والمسئولية .. وها نحن اللواتى قاتلن فى الجبال والمدن نتحول إلى الخدمات المنزلية : جميلة بوحريد تزوجت من محاميها ، وهاجرت معه .. جميلة بوعزة دخلت فى النسيان .. أنا مع آلاف النساء صرنا إلى ما يشبه المومسات أو الزوجات الصامتات المطيعات للرجال[2] .

---

(١) « الوليمة » (٨٢) .

(٢) المرجع السابق (٨٣) .

وتغدو المسيرة فى اتجاهها الطويل منظومة مكشوفة من المواقف الجنسية الحادة المستغرقة فى الارتواء اللامشروع والسهر والخمر ، مرتبطًا بالطبيعة غالبًا ، وخصوصًا طبيعة البحر والشاطئ ، فى صور تختلط فيها الرومانسية بالسريالية .

ونواجه فى الرواية صورة أخرى من صور الاستلاب هو الاستلاب الاجتماعى - من وجهة نظر « آسيا لخضر » - حين يتزوج أو .. « يستولى » « يزيد ولد الحاج » على أمها « لا لا فضيلة » بعد استشهاد أبيها « سى العربى » برصاص الفرنسيين ، ويحاول الزوج الجديد أن يحكم الأسرة كلها : زوجته لا لا فضيلة ، وآسيا ، وشقيقتها منار وشقيقها رابح . إنه بيت سى العربى يحتفل برب الأسرة الجديد يزيد ولد الحاج « ولى النعمة ، منقذ الأسرة من الفقر واليتم والتشرد فى أعقاب استقلال الوطن .. الرجل الأمى ، تاجر المارشى نوار ، المالك عشرين مليونًا من الدنانير ، يتحرك ، ويفكر بمستوى ملكيته »(١) .

ولكن هذه السطوة لم تمنع آسيا من الثورة فى وجهه ، وسبه بأقذع السباب مما أصابه بالجزع ، ودفعه إلى الهرب بعد أن شعر بانهيار كبريائه ، وربما بالندم لأنه تسبب فى إثارة آسيا ، إذ سب الأم وبناتها ، ووصفهن بصفة لا أخلاقية .

التوتر الحاد هو السمة النفسية العصابية التى تسيطر على سلوكيات الجميع وتوجهاتهم ، وهو نتيجة طبيعية لمجموعة الإخفاقات المتلاحقة المحصودة على كل المستويات : إخفاق المجتمع الجزائرى فى تحقيق مطامحه فى الاستقرار والتوازن بعد الاستقلال ، وانكسار الماركسيين فى العراق ، وسحقهم ، ثم إخفاقهم فى فتح « أسواق » دعوية لهم فى الجزائر .

واقتنعت بعض الشخصيات القيادية بدفن شعورهم بالخيبة والإحباط فى الخمر والنساء .. ومنهم من رأى الحل فى الانتحار كما فعل « عطشان ضيوى » القائد العسكرى عضو الحزب الشيوعى العراقى الذى ألقى بنفسه منتحرًا من الطابق الخامس بأحد الفنادق بمدينة بون بألمانيا(٢) .

---

(١) « الوليمة » (٦١٨) .
(٢) المرجع السابق (٤٦٩) .

ويحاول مهدى جواد الانتحار بقطع شريانه ، ثم يغمد لفافته المشتعلة فى الجرح ، ، ويروح فى غيبوبة كان من الممكن أن يكون فيها نهايته لولا إنقاذ مهيار الباهلى له .

وإذا كانت هذه المحاولة قد أخفقت فإن الأخرى والأخيرة قد نجحت ، فنرى مهدى جـواد « ... يخطو نحـو البحر ، على الرمل يتعرى ، ثم يصـعد صخرة ، يتنفس بعمق الهـواء الرطب ، وباندفاعة طائر يقـذف جسده فى البحر »[1] .

وبهـذا المشهد المأساوى تنتهى الرواية .

* * *

---

(١) « الوليمة » (٦٩٠) .

البنَـاءُ الفَـنِّـى

بين يـدى هـذا المبحث قد يكون من الفـائدة الإشارة إلى عـدة حقـائق تتعـلق بالرواية .. منها الشكلى .. ومنها الموضوعى .. وهى فى مجموعها تتلخص فيما يأتى :

١ - أن كتابة الرواية استغرقت عدة سنوات .. أى أن حيدر حيدر كتبها على فترات متقطعة ما بين الشام ، والجزائر ، وبيروت ، وقبرص .. وذلك باعتراف كاتبها .

٢ - أن الرواية حين ظهرت ظلت ممنوعة من دخول أغلب البلاد العربية لمدة اثنى عشر عامًا - باعـتراف المؤلف - وهـذا يعنى أنه كان هنـاك إجمـاع شبه تام - على مستوى الفكر العربى - على خروج الرواية على المفاهيم والمسلمات الفكرية والعقدية [1] .

٣ - صفحات الرواية فى طبعتها الأولى سنة ١٩٨٣ (ولم يذكر فيها بلد الطبع ، ولا الدار الطابعة) بلغت ٣٧٨ صفحة بالحروف الصغيرة .. أما طبعة وزارة الثقافة المصرية فبلغت ٦٩٠ صفحة بحروف أكبر .

والطبعتان متماثلتان حتى فى علامات الترقيم التى لم يستخدم الكاتب منها إلا : النقطة دائمًا .. وعلامتى الاستفهام والتعجب أحيانًا .. ونادرًا ما يستعمل الفاصلة .

ومن يقرأها يشعر بأنها مصابة بتضخم فادح غير حميد ، وسبب ذلك التكرار والإسهاب إلى درجة الغلو فى وصف مظاهر الطبيعة وأبعاد البيئة ، ومواقف بعض الشخصيات ، وكذلك الحقائق والوقائع والتقارير التاريخية المطولة .. وهو مأخذ سجله على الرواية من ناصروها ، ووقفوا فى صفها [2] ولو حذفنا ما فيها من تورمات لجاءت فى نصف حجمها الحالى .

---

(١) وهذا اعترف به حيدر فى حديثه مع الصحفية أمنية طلعت . (أخبار الأدب ٢٠٠٠/٥/٧) .

(٢) انظر : « الرواية فى الوطن العربى : نماذج مختارة » للدكتور على الراعى عن (أخبار الأدب ٢٠٠٠/٥/٧) .

٤ - والرواية سياسية فى المقام الأول ، وتتجه - كروايات الحداثة وما بعد الحداثة .. إلى تعرية الواقع الراهن ، وهزّه والكشف عن منطقه[(١)] وهى تبرز التجربة الشيوعية فى العراق ، وتهاجم القوى البرجوازية فى العراق والجزائر بصفة خاصة ، مع الاستشراف الممتد إلى « المجتمع الأفضل » فى ظل الأيديولوجية الشيوعية ، والنظر إلى الكفاح المسلح كطريقة مثلى .. بل منهج وحيد لتحقيق « أول كميونية عربية »[(٢)] .

* * *

. والرواية - كما هو معروف - فن نثرى خيالى طويل .. أو قصة طويلة تجتمع فيها عدة عناصر فى وقت واحد مثل السرد .. والوصف .. والأحداث .. والشخصيات .. والحوار .. والمغزى .. وكل ذلك فى بناء فنى له قيمته الفكرية وقيمته الجمالية ، وقيمته الشعورية .

وليس هناك موضوعات تختص بها الرواية .. بل إن الحياة بما فيها ، ومن فيها ، فى ماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها المتخيل تتسع لمنح الرواية موضوعاتها ، وعلى أساس هذه الموضوعات يقسم النقاد الرواية إلى أنواع : سياسية .. اجتماعية .. تاريخية .. نفسية .. إلخ[(٣)] .

والحرية التى تتمتع بها الرواية فى أن تطول كما تشاء ، وتتسع جوانبها وأطرافها كما تشاء ، تهيئ لها أن تتناول موضوعها من أول نقطة ، وأن تلم بجميع ملابساته وجزئياته ، وألا تقتصر على عدد محدود من الشخصيات والأحداث ، وألا تقف دون حادثة خارجية أو خالجة داخلية .. وهذا ما يؤهل القصة لأن تتولى

---

(١) انظر فى ذلك : عابد خزندار : رواية ما بعد الحداثة (٦٧) ، وإن جاء ذلك بأشكال نرفضها .

(٢) محمود أمين العالم : رواية عن الأوضاع الفاسدة : نشيد الثورة العربية المجهضة .
(دراسة بمجلة أخبار الأدب ٢٠٠٠/٥/٧) .

(٣) انظر : الدكتور محمد عنانى « الأدب وفنونه » (١٢٤) ، ومجدى وهبة « معجم مصطلحات الأدب » (٣٥٤) ، ولمعرفة أنواع الرواية واتجاهاتها انظر الصفحات : (٢٢ - ٤٨٥ - ٦١٤ - ٦٠٥ - ٥٦٢ - ٣٥٧ - ٤٢٦ - ٣٧١ - ٥١٣) .

التعبير الكامل عن التجربة الشعورية التى تختارها أيًّا كانت طبيعتها ولونها ، ومجالها فى الزمن أو فى الشعور[1] .

والرواية عمل فنى متكامل ، وله عناصره التى تشكل هذا العمل ، وتعدد هذه العناصر إنما هو تعدد صناعى لأن هذه العناصر لا قيمة لها إلا بقدر وجودها فى العمل القصصى منصهرة فيه ، يتفاعل بعضها مع بعضها الآخر .. فهناك البيئة أو المكان والزمان ، والأحداث والوقائع والشخصيات والحبكة والسرد والحوار .

ولنا مع هذه العناصر وقفات فى نطاق الرواية الحيدرية : « وليمة لأعشاب البحر » :

* * *

(١) سيد قطب : النقد الأدبى .. أصوله ومناهجه (٧٦) .

أولًا : البيئــة

معروف أن الأحداث تقع بفعل الشخوص ، ولا بد للأحداث والشخوص من بيئة مكانية وزمانية تمارس فيها وجودها .. وبذلك يبدو جو من الواقعية على العمل القصصى .. ليس هذا فحسب .. فللبيئة دور دينامى فاعل فى الأشخاص والأحداث والموجودات ، وفى إبراز بعض الملامح النفسية للشخصيات ، فتعلق الشخصية بمكان معين ذى مواصفات متفتحة أو موحشة يكون له تأثيره ودلالته على طبيعة الشخصية .. وللنقاد كلام كثير فى هذا المجال .

والمساحة المكانية فى هذه الرواية موقعان أو وطنان هما : العراق والجزائر .. فهما المكانان المباشران اللذان تحركت فيهما الشخصيات والأحداث ، ويمكن أن نطلق عليهما « **المكان الفعلى** » .. لأن الرواية اتسعت لمساحات مكانية أوسع آمادًا ، وتستغرق الوطن العربى كله .. ولكن بالتذكر والاسترجاع Flash back .. وذلك فى إشارات يحاول بها الكاتب خدمة المضمون الفكرى ، والبناء الفنى للرواية .

وكان حظ البيئة الجزائرية أوْفَى من حظ البيئة العراقية .. وجاء ذلك طَبَعِيًّا لا افتعال فيه .. لأن بيئة العراق مرتبطة بأزمة الإخفاق والانكسار .. وبالمقابل كانت بيئة الجزائر مرتبطة بالأمل والاستشراف ، والتطلعات الآملة إلى تحقيق ما لم يتحقق بالمعركة الخاسرة وغير المتكافئة مع قوات عبد الكريم قاسم .. وإن ظل للعراق مكانها فى منطقة التذكر والتحرك النفسى .

وداخل هذه المساحة المكانية الشاسعة واسمها الجغرافى : الجزائر .. كان هناك مساحات أصغر هى - بالمنطق التنازلى - « بونة » المدينة الساحلية ، والشواطئ والبنسيون الذى تملكه وتديره « فلة بوعناب » .. والحجرة التى استأجرها مهدى جواد من الشيخ محمد .. وهناك البارات والشوارع والمتنزهات ، وكل أولئك مَثّل مسرحًا مكانيًّا للأحداث والأشخاص .

وعلى مدار الرواية كلها نرى غرام الكاتب بالبحر لا يعادله غرامه بأى مكان

آخر .. فهو يشدنا إليه بأسلوب رومانسي – صوفى أحيانًا – أخاذ آسر حتى ليحس المرء أنه لا ينقصه إلا الوزن والقافية حتى يصير شعرًا .. وظاهرة التشخيص من أبرز ملامحه ، مع قدرة على التحريك والتلوين والإنطاق فى مشاهده التى يرسمها للطبيعة .. يقول فى صباح مدينة « بونة » :

« صباحات أفريقيا عذبة رغم برودتها القاسية ، فجر حزين وغامض كأسرار الغابات ، يحمل فى هبوب ريحه روائح مفعمة بالبرارى ، وشفوف البحر .

إن الغموض الذى يوشى غلاف المدينة ، يطوقها بشفافية الأسى والصمت .. هذه الموسيقى المموجة بالأسرار تتجلى تحت الفجر الرطب حيوية وشوقًا .

العمال والفلاحون والطلبة ، وهذه الطيور الصائحة عبر الغابات ، وفوق مياه البحر توقظها شمس بونة فتتدفق بكل دينامية أفريقيا العذراء .

وصباحات هذه القارة المضاءة والخضراء تقول شيئًا متناقضًا يصل منابع الدهشة .. ما أعذب هذه القارة ، وما أقصر الإقامة هنا !! هذا ما يحسه الغرباء بعد وقت [1] .

وتتجلى شاعرية الكاتب وهو ينتقل ذهنيًا إلى مساحة مكانية أخرى تختلف عن السابقة تمامًا إنها « مكانية » الأهوار المنطقة السبخة الطينية فى العراق حيث دارت المعركة بين فصيل شيوعى وقوات عبد الكريم قاسم بمصفحاته ، ومدافعه ، وطيرانه ، والحركة فى هذه المساحة قوية متلاحقة ، عالية النبرة :

« تحت سطوة الهجوم تجلى القتال التراجعى داخل هذا الحقل المغناطيسى شبيهًا بالانقذاف داخل دوارات بحرية ، بَدَوْا تحت الشفق الزعفرانى المرشوم بالوحل كأنما يدورون ببطء داخل رحم غرينى اندفعوا للاحتماء به كأطفال مهددين ، لكنه كان يبتلعهم على مهل كلما أوغلوا فى أعماقه .. فى لحظة مفلتة من نطاق الوعى تراءى لهم كأن شيطانًا سحريًا ممغنطًا تشكل من نداء الحياة والموت والطفولة ، وجنيات النهر والغابات ، والضباب ، ووهدات الأرض ، نهض من أعماق الطمى ، وراح يسحبهم إلى جوفه ... » [2] .

فالمكان فى الطرح السابق لم يكن مجرد ساحة للمعركة ، لكنه تحول بقسوته

---

(١) « الوليمة » (١٤٦) . (٢) « الوليمة » (٤٠٦) .

إلى رمز للغدر الذى قام بابتلاع المناضلين دونما رحمة أو تساهل .. وكأنه هو والحكام الطغاة وجهان لعملة واحدة .

* * *

وفى مقام الحديث عن المكان الروائى نلاحظ أنه يمثل غالبًا طرفًا لازمًا فى ثنائية يمكن أن نسميها « ثنائية المكان والجسد » ونقصد المكان بمفهومه الواسع الذى يصدق على البحر والشاطئ والبيت والحجرة والسرير والكازين ... إلخ ، ونعنى بالجسد الجنس بدرجاته المختلفة ، وما تعلق به من مظاهر السقوط المختلفة كشرب الخمر .

فوصف البحر - بصفة خاصة - لا يأتى إلا متلبسًا بمشاهد جنسية ، أو مواقف شاذة فى أغلب الأحيان .

وهذه الازدواجية تواجهنا من أول صفحة استهل بها الكاتب روايته فى حديثه عن شاطئ مدينة بونة الجزائرية « وكان صباحًا مضيئًا ، فى سماء صاحية ، النوارس وهى تخفق بدت كأنما تعلن عن غبطتها بذلك الطيران الأبيض الواهن . وفوق الأعشاب وأوراق الدغل كان الندى يتلألأ تحت شمس خريفية ..... ولم تلتفت . سبقته خافقة بذراعيها كجناحى طائر فى فضاء أبيض .. السرعة والريح رفعتا تنورتها الخضراء فبدا كالرخام فخذاها الناصعان المكتنزان ... »[1] .

وعلى نحو أشد حدة يكثر المؤلف من مشاهد هذه الثنائية فى مزجية تحكمها الغريزة البهيمية ، والمزاج الشاذ ، وبصورة تثير التقزز والملالة ، مع محاولات ادعائية مخالطة لرفع طبيعة هذه الثنائية بردها إلى طوابع إنسانية جذرية ، يصبح الخروج عليها خروجًا على الأصل ، فيلجأ المؤلف لتبرير السلوك الشاذ - إلى خلق انتماء مفتعل إلى البساطة الإنسانية الأولى ، والمحاضن الطفولية الطاهرة .. فعلى شاطئ بونة « يخرج مهدى من الحقيبة البيرة والساندوتش والفواكه والراديو ... ينضو ثيابه ، هى الأخرى تتعرى ، أحدهما يسبق الآخر إلى البحر ، صرخة أو شتيمة ، ثم يصطفق البحر ، وينخص تحت انغمار الجسدين ..... ولكنهما هنا

---

(١) « الوليمة (٩) .

يلعبان لعبة الطفولة فى غياب الأبوين .. الطفلان ها هما يخلعان القماط الأول للمهد .. إنهما يتطهران من دنس التربية المقدسة ، والعائلة المقدسة فى أملاح البحر [1].

... كانت الفتاة والرجل والبحر الآن بعيدين عن المدينة فى تلك المساحة من العراء ، ابتدءا يمرحان كطفلين خارج قوس الحصار [2].

كان حظ البيئة الجزائرية فى الرواية أَوْفَى فى حظ البيئة العراقية بالمعيار الكمى وبالمعيار الكيفى إذا قصرنا هذا المعيار على الجانب العاطفى .. إذ نجد استجابة المؤلف وتجاوبه مع بيئة الجزائر وخصوصًا البحر أقوى وأشد توهجًا ، ولكنه كان أقوى تأثيرًا ، وأعمر بالمصداقية الفنية فى عرض ميدان معركة الأهوار مستغلًّا كل طاقات المكان الطينى الحثئون ، مبرزًا قوة التفاعل بين المكان والشخوص ، ووقائع التلاحم وتطورها من نصر مبدئى عاجل إلى انكسار رهيب ، مرورًا بمعاناة الجراح والدم وانسحاب البقية القليلة اعتمادًا على إمكانات المكان الفقيرة ، وكان « للزمن » – ضوءًا وظلامًا .. فجرًا .. وليلًا – دوره الفاعل فى الحركة المتكاملة لهذه العناصر المتلاحمة .

ولا كذلك فى بيئة الجزائر أو بونة بصفة خاصة ، ويرجع ذلك إلى أسباب متعددة أهمها :

١ – الإصرار على إقحام الجنس فى أغلب المشاهد (البحر – البنسيون – المنزل – الحجرة ... إلخ) ، وكأنه مقصود لذاته ، أو كأن المؤلف لم يرسم أبعاد المكان إلا ليدب عليه الجنس الساقط ومتعلقاته من خمر وعربدة وشذوذ .

٢ – إغراق الوصف فى تعليلات وتخريجات فلسفية ترهق المعروض ، وتجمد العناصر الجمالية ، وتشل حركة القارئ نفسيًّا لحلول الذهنية الباحثة محل شعوره المأسور أو المستجيب ، فيضيع النفسى أمام العقلى القهرى

---

(١) « الوليمة » (٦٣٢) .

(٢) « الوليمة » (١٣) ، وانظر كذلك الصفحات : (٤٩ ، ١٦٦ ، ٢٢٦ ، ٦٠٨) . وكان بنسيون « فلة بوعناب » مرعى من مراعى الجنس . ولها فى تبرير ذلك منطق غريب ساقط .
انظر : (الرواية ٣٢٣ ، ٣٢٤) .

٣ - التكرار الذى يقتل الطرافة ، وقد يدفع القارئ إلى سوء الظن بالمؤلف ، واتهامه بفقر مكنوزه من قدرة الابتكار ، وإمكانات المغايرة والتنويع .

كما نرى فى المشهدين التاليين :

- استيحاش البحر والشجر ورطوبة الرمل .. أفق مديد أخضر فضى أسود ، وملايين الجن وراء الخليج المظلم تستحم فى غمرة الزبد ، ووحشية الخلجان الصخرية [١] .

- عذرية العالم عبر أصواتهم وهديرهم افتضت بكارته .. ملايين من الجن والأبالسة هبطت من كوكب غامض من أين أتوا ، وكيف اكتشفوا هذه البقاع المنسية ...؟ [٢] .

والمعروف أن المكان فى العمل الروائى تختلف أبعاده ودلالاته وإيحاءاته باختلاف وضعه فى سياقات الرواية تبعًا للشخصيات المرتبطة به ، والأحداث الواقعة عليه ، وبتعبير آخر تختلف حقيقته الوجدانية باختلاف الأحداث والشخصيات والمواقف والزمن . أما ثبوت أبعاده فى صورة واحدة فيعنى إدخاله فى باب العلم ، وعزله عن عالم الأدب .

لكن الصورة المكانية فى رواية حيدر تكاد تكون ثابتة وخصوصًا صورة البحر المكررة مرات ومرات فى تضاعيف الرواية ليس بينها ملامح فارقة .. العناصر واحدة : الماء .. الرمل .. النوارس .. الأعشاب .. الجن .. المردة .. التعرى .. الجنس .. الجنس العارم الزاعق !! .

أما الصبغة النفسية أو الفنية الخاصة المميزة بين البحر هنا .. فى هذا الموقف .. والبحر هناك فى موقف آخر فهى ناصلة أو ميتة حتى أن القارئ يستطيع أن يبدل وضعيات البحر بإحلال بعضها محل بعضها الآخر دون أن يترتب على ذلك أى خلل فنى .. وفى هذا المقام نذكر القارئ بكلمة أحد كبار النقاد « لو أن ألف شاعر نظموا فى الربيع شعرًا ، فلا قيمة لما نظم إن لم نكن أمام ألف ربيع » .

* * *

(١) « الوليمة » (٤٥٧) .

(٢) « الوليمة » (٦٣٤) ، وانظر الصفحات : (٥٦٠ ، ٦٣٢ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧) .

والزمان هو الجناح الثانى للبيئة ، والمقصود به - فى إيجاز شديد وبعيدًا عن التنظيرات والجدليات - الفترة الزمنية التى وقعت فيها أحداث الرواية وتحركت شخوصها .. وهو تحديد علمى حاد .. ولكن لا يقوم الفن الروائى بدونه « فالحدث من حيث هو يجب أن يتسم بالزمنية ، والزمن من حيث هو يجب أن يتصف بالتاريخية فى أى شكل من أشكالها .. وإذا كان الروائيون الجدد يرفضون بإصرار تاريخية الأحداث ، وواقعية الشخصيات فى أى عمل من الأعمال السردية فإنهم لا يستطيعون أن ينكروا بأن إبداعاتهم الروائية - مهما تحاول التملص من الزمن ، والتنكب عن سبيله ، فإنها واقعة تحت وطأته . فالزمن إذن ضرب من التاريخ ، والتاريخ هو أيضًا فى حقيقته ضرب من الزمن .. فهما متداخلان .. بل هما شىء واحد [1] .

* * *

فإذا ما آمنا بأن الرواية لا تدور إلا فى مكان وزمان - على اختلاف نقدى معروف فى التعريف والتحديد - واجهنا فى رواية حيدر نوعين من الزمان هما :

١ - **الزمان التاريخى .**

٢ - **الزمان النفسى .**

والزمان التاريخى فى الرواية هو الشريحة الزمنية التى وقعت فيها أحداث الرواية ، وتحركت فيها شخوصها وانعكست تأثيراتها على الموجودات والمجتمع والأفراد والقيم السائدة .

والزمن التاريخى للرواية - كما أشرنا من قبل - يتمثل فى سنوات عهد عبد الكريم قاسم حاكم العراق ، وعهد أبو مدين فى الجزائر .. وهما عهدان يلتقيان فى إجهاض تطلعات جماهير الشعبين العراقى والجزائرى إلى تحقيق الآمال فى نشوء مجتمعات الاشتراكية الحقيقية .. ومن ثم فجعت الشعوب فى قادتها الثوريين الذين خيبوا آمالها .

والزمن التاريخى جاء بأثقال من التفصيلات الحدثية والتسجيلية والأيديولوجية

---

(١) « مرتاض : « فى نظرية الرواية » (٢١٠) .

والسياسية مما ينال من فنية الرواية .. وهذا الزمن فى الرواية أخذ وضعيتين :

١ - وضعية الاستقلال أو الانعزال فى فصول أو فصل كامل مستقل فى الرواية كما ظهر فى فصل « نشيد الموت »[١] وهو الفصل الذى عرض فى تفصيل لمعركة الأهوار بين الماركسيين وقوات الحكومة العراقية .

٢ - وضعية التجزىء والتوزيع .. فالمؤلف يوظف بعض الوقائع الجزئية على مواقع فى الرواية .. وغالبًا ما يكون ذلك عن طريق التذكر ، ولو على سبيل الإجمال والإلماع وكانت تجربة الأهوار هى أكثر الوقائع إلحاحًا على الذاكرة بحرارتها ، وشدائدها .. فهى تقفز إلى عقليات الشخوص فى سنوات حياتهم بالجزائر[٢] .

وهذا الإثقال التاريخى من أهم المآخذ التى تسجل على الرواية حتى فى نظر من ناصروها ، وأعلوا من شأنها مثل الدكتور على الراعى ومحود أمين العالم .. يقول الدكتور على الراعى : « فإذا ما انتقلت الرواية إلى الأحداث الثورية فى العراق ، وجدنا الحيوية تنقص نقصًا ملحوظًا إزاء إصرار حيدر حيدر على أن يورد ثبتًا تاريخيًا بحقيقة ما حدث ، يكتبه فإذا به أشبه ما يكون بالتقارير السياسية التى يدبجها أمناء الأحزاب أو قادة اللجان الرئيسية .. إن هذا الجزء من الرواية يستفيض ويعترض السياق الروائى .. ورغم جهود الكاتب لتخليصه من ربقة التقريرية فإنه يبقى قريبًا منها إلى حد واضح[٣] .

وكذلك محمود أمين العالم يأخذ عليها : ما يغلب عليها فى بعض صفحاتها وفقراتها من الطابع التسجيلى السياسى .. بل التاريخى السياسى الذى يشير أحيانًا إلى واقعها المرجع بأحداثه وأشخاصه الحقيقيين بأسمائهم[٤] .

* * *

---

(١) « الوليمة » (٣٥٥ - ٤٠٩) .

(٢) انظر : (الوليمة : ٥٥٤ - ٥٧٣ - ٦٣٧ - ٦٣٩) .

(٣) الدكتور على الراعى : « الرواية فى الوطن العربى » عن مجلة « أخبار الأدب » - العدد ٣٥٦ - ٢٠٠٠/٥/٧ .

(٤) محمود أمين العالم « نشيد الثورة المجهضة » مجلة « أخبار الأدب » - العدد السابق .

أما الزمن النفسي : فهو الزمن الذى يزداد طوله على النفس فى حال الشدة والضيق والكرب ، ويقل طوله عن مداه الحقيقى على هذه النفس ، حتى لكأن الأسبوع يوم ، واليوم ساعة ، والساعة مجرد لحظة من الزمن فى أحوال السعادة والغضارة والنعيم (١) .

ويمكن التعرف على هذا الزمن النفسى فى الرواية بالنظر إلى الأحداث ، ومعرفة طبيعتها ، وطبيعة تفاعل الشخصية وهذا يحتاج لمبحث طويل مستقل .

* * *

ولكنا نقف وقفة غير طويلة أمام الأزمنة الثلاثة فى العربية ، ومكان كل منها فى الرواية ، وهى أزمنة الماضى والحاضر (المضارع) ، والمستقبل .. وهو يكون قريبًا إذا ألصقت السين بالفعل فى أوله ، ويكون بعيدًا إذا سبق الفعل بـ « سوف » ، ويدل الفعل كذلك على المستقبل إذا كان مضارعًا سبقه أو ألحق به من الأسماء أو الأفعال ما يدل على المستقبل مثل : غدًا - فيما بعد - فى الأسبوع القادم ... إلخ .

والأصل فى العمل الروائى أن يكون الفعل الماضى هو الآلية المثالية للتعبير عن الحكاية .. وهذا وضع طبعى لأن الراوى أو المؤلف - بعمله الروائى - يقدم تجربة عاشها ، ومعاناة مرَّ بها .. فالتعبير بالماضى عن « تجربة » مضت هو التوفيق الوحيد بين المعيش والتعبير عن واقعه وأبعاده وآثاره ومتعلقاته .

ولكن القاعدة ليست على إطلاقها .. فهى لو صحت - إلى حد كبير - فى السرد ، نجدها لا تطرد فى الوصف والحوار مثلًا .. ويرد المضارع كثيرًا فى الوصف . وقد يأتى فى السرد تعبيرًا عن الماضى لاستحضار المشهد ، والإيحاء بأنه إن غاب عن الرؤية .. فهو لم يغب عن المشاعر والضمير .

ويستخدم الفعل للمستقبل فى حالات التطلع والاستشراف أو ما يمكن أن نسميه « سبق ما قبل الحدث » وذلك بتقديم جزئية - على سبيل التنبؤ - من حدث يقع مستقبلًا . ومن ذلك على سبيل التمثيل :

---

(١) الدكتور مرتاض : « فى نظرية الرواية » (٢٠٨) .

- فيما بعد سيتساءل الرجل الغريب : أى ذنب ارتكبت ؟ أهناك التباس فى الأشياء ؟[1].

- فيما بعد سيقول عنه أحد أصدقائه الإنجليز بعد أن سمع بغيابه الطويل : كان خالد مزيجًا من « جيفارا » و « دانتون »[2].

- عندما سيتحدث عن ذلك التبدد الحلوى والهجران ستقول له ...[3].

وقد يتلبس الحاضر بالمستقبل فى عبارة واحدة .. مثل : آنذاك ، أو فيما بعد ، سيعصى عليهما معرفة المواطن أو الكهوف[4].

وقد تتلبس الأزمنة الثلاثة كما نرى فى العبارة التالية :

- وكان ينتظر وهو جريح لا يقوى على الحركة .. أخيرًا قدموا .. جروه كالكلب ، وقالوا : ظفرنا بك إذن يا ابن الفاسقة ، وقال : هذا حقيقى .. وقالوا له : إنك خنزير لا تساوى فلسًا .. وقال : هذا صحيح ، وقالوا له : إنك لن تكون بعد الآن ، وقال : إننى لا أستحق أن أكون بعد الآن[5].

ونلاحظ أن الإحالات المستقبلية للأفعال ، والتى تمثل وعدًا بالعودة إليها فيما بعد بصيغة الماضى لا يقف عندها الراوى مرة أخرى .. وكأنه حدث وقع وانتهى .. وإن عبر عنه بصيغة المستقبل ، ودلالة ذلك تأكيد الوقوع ، وهو ملمح من ملامح التجديد فى الفن الروائى .. غير أن للقرآن فى هذا المجال آيات بينات .. مثل قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ... ﴾ [البقرة : ١٤٢] ، وقوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ . [القمر : ٤٥]

والملاحظة الأكثر وضوحًا هى التداخل الزمنى - كما بينا آنفًا - مع التحرر من الترتيب الزمنى الذى يتفق مع منطقية الأحداث . والواقع أن من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - أن يتوافر هذا الترتيب بمفهومه الحاد للرواية ؛ فيكفى

---

(١) « الوليمة » (١١١) .
(٢) « الوليمة » (٢٤٢) .
(٣) « الوليمة » (٣٤٤) .
(٤) « الوليمة » (٥٢٣) .
(٥) « الوليمة » (١٦٩) .

- كما يقول « تودوروف » أن يوجد أكثر من شخص واحد حتى يصبح هذا الترتيب المثالى أبعد ما يكون عن القصة « الطبيعية » . والسبب فى ذلك هو أنه علينا للحفاظ على ذلك الترتيب أن نقفز عند كل جملة من شخص إلى آخر لنقول ما كان يفعله هذا الشخص الثانى فى تلك الأثناء .. ذلك أن القصة نادرًا ما تكون بسيطة .. فهى غالبًا ما تضم عدة خيوط ، ولا تلتقى هذه الخيوط إلا عند لحظة ما [١] .

* * *

---

(١) « طرائق تحليل السرد الأدبى » (٤٢) .

ثانيًا : الحَدَث

الوقائع أو الأحداث فى الرواية هى مجموع الأفعال الصادرة من الشخصيات ، وترتبط بها برابطة السببية .. ومن ثم يجب أن تكون متفاعلة مع الشخصيات ، ومتفاعلة بعضها مع بعضها الآخر ، ومتفاعلة مع بيئة الرواية .. وللأحداث - كما هو معروف - دورها الكاشف لطبائع البيئة ، وأبعاد الشخصيات وتحقيق المغزى الذى يحرص الكاتب الروائى على تحقيقه ، وعليها تعتمد الحبكة التى عَرَّفها فورستر بأنها مجموعة من الحوادث مرتبة ترتيبًا زمنيًا يقع التأكيد فيها على الأسباب والنتائج [(١)] .

وتعتمد الروايات البوليسية على الحبكة التى تجعل اهتمامها الأول تسلسل الأحداث تسلسلًا يشد القارئ ، ويجذبه من البداية للنهاية .

أما النوع الثانى من الحبكة فهو الذى يعتمد على الشخصيات ، وما ينجم عنها من أفعال ، وما يدور فى صدورها من عواطف يجعلها الكاتب محور الرواية ، ولا يأتى الحدث هنا لذاته بل لتفسير الشخصيات التى تسيطر على الأحداث وتحركها حسب رغبتها وخطتها [(٢)] .

ولعل النوع الثانى من الحبكة هو الأقرب إلى رواية حيدر مع تحفظات نعرض لها فيما بعد .. فالذى يهمنا الآن هو التعرف على نوع الأحداث وأبعادها ومكانها فى السرد الروائى وجودًا وتفاعلًا .

* * *

يتوزع الرواية نوعان من الأحداث هما :

١ - أحداث تاريخية حقيقية .

٢ - أحداث متخيلة .

---

(١) « أركان القصة » (١٠٥) .

(٢) انظر : (عزيزة مريدن : القصة والرواية ٤٢) .

والحدث التاريخي المحوري في الرواية هو نهوض مجموعات شيوعية ماركسية بالكفاح المسلح في معركة في الأهوار بالعراق ضد قوات عبد الكريم قاسم ، وكانت معركة خاسرة انتهت بالهزيمة الساحقة للماركسيين : قتل .. وأسر .. واعتقال .. وتعذيب رهيب .. وتشرد .. وهروب .. وملاحقات بالعيون والصنائع والعملاء .. وظل هذا الحدث التاريخي هو الحدث الأساسي المحوري الذي لم تنقطع امتداداته إلى مناحي الرواية من أولها إلى آخرها على سبيل التذكر والاسترجاع ، وفي إطار هذا الحدث تعقد اجتماعات ، وتدور مناقشات وحوارات أيديولوجية ثقيلة دميمة ، وترتب على هذا الإقحام الكثيف :

١ - إصابة الرواية بتضخم غير حميد لولاه لانخفض حجمها إلى نصف ما هي عليه .. مع ملاحظة أن الكاتب قد وظف الاسترجاع الذهني في تكرار كثير من المشاهد التاريخية والمتخيلة .

٢ - إضعاف الطابع الدرامي للرواية ، وتفتير القيم الشعورية والتعبيرية فيها .. إذ بدت هذه التاريخيات كالعضو الغريب داخل الجسم .

وهذا ما تنبه إليه الدكتور علي الراعي في الدراسة التي كتبها عن الرواية .. وفيها يقول :

فإذا ما انتقلت الرواية إلى الأحداث الثورية في العراق ، وجدنا الحيوية تنقص نقصًا ملحوظًا إزاء إصرار حيدر حيدر على أن يورد ثبتًا تاريخيًا بحقيقة ما حدث ، يكتبه فإذا به أشبه ما يكون بالتقارير السياسية التي يدبجها أمناء الأحزاب أو قادة اللجان الرئيسية .. إن هذا الجزء من الرواية يستفيض ويعترض السياق الروائي »[1] .

وكذلك أخذ محمود أمين العالم على الرواية أنه :

« غلب على بعض صفحاتها وفقراتها الطابع التسجيلي السياسي .. بل

---

(١) « رواية سياسية تشوق إلى نهضة الغرب » . دراسة الدكتور علي الراعي في « أخبار الأدب » ٢٠٠٠/٥/٧ .

التاريخى السياسى الذى يشير أحيانًا إلى واقعها المرجع بأحداثه وأشخاصه الحقيقيين بأسمائهم »[1].

* * *

ومن هذا المحور التاريخى انطلق الكاتب - فى استطراد - إلى فرعيات تاريخية مقطوعة الصلة - أوعلى الأقل ضعيفة الصلة - بمعروضه التاريخى المحورى ، فرعيات تاريخية أو تاريخسطورية فى ثرثرة أسلوبية بلا كوابح .. فمن استطراداته - وما أكثرها !! - « .. امتداد لا يحده البصر من البردى والقصب والماء يعود لأزمنة قديمة تبدأ من نهاية القرن الخامس الميلادى فى عصر « قوباذ الأول » ملك الساسانيين .. فوق هذا الامتداد الأخضر الساكن ، والشبيه بحيوان خرافى من ديناصورات العصور الأولى ، يعيش بشر شبه مفصولين عن عالم اليابسة .. مخلوقات فصلتها مئات الأعوام ، وسطوح الماء والبردى عن نبض الزمن الآخر ...[2].

وقال الرواة : وفى عصر قوباذ بعد ملايين السنين من الخلق الأول كانت السدود ممتدة على طول ساحل دجلة والفرات ، وكان الساسانيون يروون سهوبهم من بحيرات الماء ...[3].

ثم يقفز الكاتب إلى كربلاء ، وقبر على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فى النجف الأشرف ، والحسين والعباس - رضى الله عنهما - فى كربلاء ، وموسى الكاظم فى الكاظمية ، وعلى الرضا فى مدينة مشهد[4].

ثم يخلص إلى الحديث عن تاريخ ظهور أول بؤرة ماركسية مقاتلة فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وكان ظهورها فى أهوار العوينة والغموكة والحمار[5].

بعدها يتحدث عن الخوارج والشيعة والزنج والقرامطة وثورة العشرين[6]، ثم عن العهد الملكى ، والثورات التى قامت به ، ثم عن انتفاضة الـ (٥٦) الشيوعية ...[7]، ثم يهرول إلى الأهوار التى يعيش فيها آلاف البشر الهامشيون

---

(١) « نشيد الثورة العربية المجهضة » . دارسة لمحمود أمين العالم ، فى المرجع السابق .
(٢) « الوليمة » (٢٥٢) .
(٣) « الوليمة » (٢٥٣) .
(٤) « الوليمة » (٢٥٤) .
(٥) « الوليمة » (٢٥٥) .
(٦) « الوليمة » (٢٥٦) .
(٧) « الوليمة » (٢٥٦) .

حياة بائسة منحطة تذكر بعصور ما قبل التاريخ[١] . ويستعرض تاريخ تأسيس القواعد المسلحة سرًا بعد تكريس خط آب الانقسامى .. الخط الذى كرسته القيادة العائدة من موسكو فى أعقاب فشل انقلاب سليم فخرى ، وإعدام السكرتير العام سلّام عادل[٢] . ولا مانع من أن يورد نص التقرير الذى كتبه الرفيق منير أحمد عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، ونشره فى مجلة قضايا السلم والاشتراكية فى ك ١٩٦٤ :

« إن النضال من أجل الطريق اللا رأسمالى يحتم علينا إعادة النظر فى برامجنا فى ميادين النشاط الجماهيرى .. كان الحزب الشيوعى العراقى يعتقد فى الماضى بأن إقامة حكم شعبى تحت قيادة الطبقة العاملة هو شرط جوهرى لتحقيق الإصلاحات الجذرية و ... و ... إلخ[٣] .

وغير ذلك كثير .. وكثير مما يسىء إلى البناء الفنى للرواية ، بل إنه لا يخدم الحقيقة العلمية - على فرض صحته - لأنه سيق فى رواية . والرواية لا تصلح أن تكون مرجعًا علميًا . وربما رجع ذلك الإغراق إلى تعاطف الكاتب مع الأيديولوجية الماركسية فى خطها المسلح ، وحماسته المتوهجة لهذا الاتجاه ضد خط اللجنة المركزية للحزب .. الخط التحريفى التصفوى .. والتعبير عن هذا - كما يقول محمود أمين العالم - لا يتم على لسان بعض شخصياتها فحسب .. وإنما فى النسيج السردى للرواية كذلك ، وهو لا يقف عند حدود التبنى الأيديولوجى لوجهة النظر هذه .. بل قد يتورط أحيانًا فيسوق أقاويل باطلة ، ويلبسها ثوب الحقائق مثل « ومن موسكو حرض الأب الروحى خروشوف العزيز قيادة الحزب على ضرورة حل الحزب الشيوعى العراقى أسوة بالحزب فى مصر[٤] .

وخلاصة ما نراه فى العلاقة بين الوقائع التاريخية والرواية تتمثل فيما يأتى :

١ - يجب أن تكون محدودة قليلة العدد حتى لا تتحول الرواية - لغزارة ما تضم من وقائع - إلى تاريخ .

---

(١) « الوليمة » (٢٥٧) .

(٢) « الوليمة » (٢٥٨) .

(٣) « الوليمة » (٢٥٩) .

(٤) محمود أمين العالم . مرجع سبق .

٢ - أن يكون لها مكانها الطبعى فى السياق الروائى دون إقحام أو افتعال .

٣ - أن يكتفى بالإشارة أو الإلماع إلى الواقعة إذا كان فى ذلك الكفاية .

٤ - أن تطوع الوقائع للمنطق الفنى الروائى حتى لاتبدو عضوًا غريبًا فى بنية النسيج السردى ، ولا مانع - استجابة لهذا المقتضى الفنى ، من إحداث بعض التغييرات أو التحريفات فى الوقائع - وخصوصًا الثانوى منها - على ألا يصطدم ذلك بالمسلمات العقلية والسنن الكونية ، والقيم الدينية .

* * *

والوقائع التاريخية فى الرواية ، وخصوصًا تلك التى تغطى « المرحلة العراقية » لم يطوعها الكاتب التطويع الفنى المطلوب حتى تتوافق مع السرد الدرامى فى الرواية .. بل جاءت كأنها مقصودة لذاتها .. ومن السهل عزلها عن المسار الروائى ، والاكتفاء بالإشارة إليها ، او الحديث عنها فى إيجاز مقطر متلاحمة مع العناصر الفنية الأخرى .. وذلك كان هو الأوفق والأنسب للعمل الروائى .

وقد حاول الكاتب أن يديم التواصل النفسى بين هذه الأحداث ، وشخصيات الرواية ، وخصوصًا مهدى جواد بآليتين :

الأولى : التذكر والاسترجاع Flash back

والثانية : اليوميات التى كان يسجلها مهدى جواد أحيانًا ، وهى قليلة جدًّا إذا نظرنا إلى كم المواقف من ناحية ، وحجم الرواية من ناحية أخرى .

والافتعال ظاهر فى هذه اليوميات ، كما أنها تفتقر إلى أن تتحلى كل منها « بالملمح » الفارق موضوعيًّا وفنيًّا ، حتى تكون مناسبة لمكانها فى نسيج السرد الروائى .

* * *

وفى الرواية وقائع وحقائق تاريخية مرتبطة بالبيئة الجزائرية التى هرب إليها « مهدى جواد » و « مهيار الباهلى » وغيرهما من الماركسيين .. ولعل من أهم هذه « الحقائق » انحراف المجاهدين الثوريين بعد الاستقلال ، وقيام حكومة جزائرية

عاصرت أحداث الرواية فيها عهد « هوارى بومدين » الذى لم ينهج النهج الماركسى الحاد .. وهنا نجد الكاتب متجردًا من الحياد ، مجندًا كل قواه وآلياته من سرد وحوار وشخصيات لتشويه صورة المجاهدين والثوريين .. وكانت « فلة بوعناب » هى البوق القوى الصاخ الذى دأب على ترديد هذا التشويه بصفة دائمة :

– فالشعب من البسطاء والفقراء والمجاهدين لم يجنوا من الحروب غير حصاد النبذ والجوع .. لهذا هم الآن حاقدون [1] .

– وضباط الجيش ، وأمناء الحزب ، ورجال الدولة الماسكون بزمام الحكم ، والثوريون القدامى ، والمجاهدون ، والشهداء – قبل أن يستشهدوا كان لهم لياليهم الحمراء مع « فلة بوعناب » [2] .

– الثورة الوطنية انتهت .. الرجال صاروا فى مواقع السلطة والمسئولية .. وها نحن اللواتى قاتلن فى الجبال والمدن نتحول إلى الخدمات المنزلية : جميلة بوحيرد تزوجت من محاميها ، وهاجرت معه .. جميلة بوعزة دخلت فى النسيان .. أنا مع آلاف النساء صرنا إلى ما يشبه المومسات أو الزوجات الصامتات المطيعات للرجال [3] .

والكاتب قد ألح على هذا المعنى إلحاحًا شديدًا – لا فى الحوار فحسب .. ولكن فى السرد كذلك .. وكأنه حقيقة واضحة لا يعتورها الشك .. والأغرب من ذلك أن يورد تبريرًا أبشع لهذا الانهيار الجنسى بالنظر إليه كمعادل موضوعى « للجمهورية » التى لم تتحقق فى الواقع الجزائرى [4] .

والأحكام السابقة مخالفة لواقع الجزائر ، وهى تتضمن تعميمات خطيرة ، وكلها تعطى انطباعات بأن الشعب الجزائرى كله – بما فيهم أبطال الجهاد – شعب غارق فى الزنى والدعارة .

وكيف تكون الدولة مسئولة عن زواج جميلة بوحيرد بمحاميها ، واعتزال

---

(١) « الوليمة » (١٢٦) .

(٢) « الوليمة » (١٨١) .

(٣) « الوليمة » (١٨٣) .

(٤) انظر : (الوليمة ٣٢٣ ، ٣٢٤) .

جميلة بوعزة المجتمع ، واحتراف آلاف النساء البغـاء !؟ إنه تصوير ساقط لا يتفق مع واقع الشعب الجزائرى المسلم .

* * *

وأهم الأحداث المخترعة أو الخيالية فى البيئة الجزائرية تنبع أو تنعكس من مجموعة من العلاقات بين الشخصيات الروائية . وهى :

- علاقة آسيا بمهدى جواد .
- علاقة فلة بمهيار الباهلى .
- علاقة يزيد ولد الحاج بـ « لا لا فضيلة » .
- علاقة فلة بالآخرين .

وكلها علاقات يحكمها الجنس العاتي على اختلاف فى الدرجة ، وليس فيه صورة مشروعة ماعدا عـلاقة يزيد بـ « لا لا فضيلة » .. فقد كانت مبنيـة على الزواج .. وإن ظهر فى الرواية شهوانيًا أكولًا مغرمًا بمتاع الحياة من ألذ الأطعمة والأشربة وأغلى الملابس والرياش .

* * *

والأحداث بصفة عـامة كانت تمضى بطيئة متثائبة ، تفتقر إلى التنـويع والإنماء ، وكثير منها مكرر مع تغير الزمان والمكان فى نطاق البيئة الواحـدة .. ومن عجب أن نرى وقائع البيئة العراقية – وهى فى أغلبها تاريخية واقعية بالمفهوم العلمى – أكثر تجددًا وتدفقًا من الوقائع فى البيئة الجزائرية ، مع أنه كان فيها من الفضاءات ما يسمح بحرية الحركة الفنية فى نطاق الأحداث والأشخاص .. ولكن الكاتب كانت مشغلته بالطرح الأيديولوجى عرضًا وإدانة أكثر من مشغلته بالجانب الفنى ، كما أن إقحام الجنس فى أغلب المواقف أرهق الكاتب وأرهق الرواية فكرًا وأسلوبًا .. وذلك بافتعال واضح لا يخطئه النظر .

* * *

وتسطيح الوقائع والأحداث ، وضعف التفاعل بينها ترتب عليه نصول الصراع

حتى لا يكاد القارئ يشعر بوجوده إلا سطحيًا ، وفى مواطن محددة كالصراع بين أبناء « لا لا فضيلة » - وآسيا بصفة خاصة - وبين يزيد ولد الحاج زوجها .. وكذلك بين الماركسيين المهاجرين من العراق والسلطة الجزائرية ، وبين آسيا ومهدى جواد ولا لا فضيلة وأسرتها وبين الشيخ محمد .. إلا أن ذلك كله كان « خارجيًا » يفتقر إلى تعميق .

وربما كان الصراع النفسى الداخلى الوحيد فى نفس مهيار الباهلى بين ديمومة الوفاء للماركسية ودماء رفاقه المراقة فى الأهوار ، والانهيار الجنسى على يد فلة بوعناب ، وانتصر الأخير ، ولم يعدم مهيار تبريرًا فلسفيًا له .

* * *

وكان الجميع يتحركون وكأنهم أسرى للفلسفة الوجودية التى ترى أن كل فرد عالم بذاته يضع لنفسه أخلاقه وآدابه وعقائده وآراءه [1] . وهو الحكم فيما يأتى ، فليس لأحد من المجتمع أن يحدد له مفاهيمه أو أخلاقه أو تقاليده ، أو عقائده أو تصرفاته أو سلوكه [2] . وإيجاد الذات وتأكيد الإنسان الفرد لوجوده الذاتى - فى نظر سارتر - لا يتحقق إلا بإطلاق العنان لرغباته وشهواته .. وتعترف سيمون دى بوفوار - صديقة سارتر بأن من طبيعتها أن تجنح دائمًا إلى لذائذ الجسد [3] . وقد صرحت آسيا بأنها مثلها الأعلى .

والانسحاب من الحياة بالانتحار أمر محمود فى الوجودية .. لأنه يعنى احتجاجًا عمليًا على عبثية الوجود ، والاعتراف بأن الحياة لا تستحق أن تعاش [4] .

وهذا ما انتهى إليه مهدى جواد .. لم يواصل مسيرته « النضالية » ولكن واصل السير إلى البحر وألقى بنفسه فيه ليكون وليمة لأعشابه .. وهو - ولا شك - حل انهزامى لا مبرر له ، وخصوصًا أن مهدى ورفاقه لم يتعرضوا فى الجزائر لبعض ما تعرضوا له فى العراق من قتل ومطاردات واعتقالات .

---

(١) عباس العقاد « بين الكتب والناس » (٢٥) .

(٢) محمد قطب « جاهلية القرن العشرين » (١٩٢) .

(٣) صالح الشامى « الظاهرة الجمالية فى الإسلام » (٥٢) .

(٤) انظر : (الدكتور مصطفى غالب : سارتر والوجودية ٧٨ ، ٧٩) .

ثالثًا : الشَّخصيات

إذا كانت الرواية تعبيرًا فنيًا عن أفكار وقضايا أو أيديولوجية معينة يعتنقها الكاتب فهى من ناحية أخرى - كما يقول النقاد - معرض لأشخاص جدد يقابلهم القارئ ليتعرف عليهم ، ويتفهم دورهم ، ويحدد موقفهم .. ومن هنا تأتى أهمية فن رسم الشخصية فى الرواية .. وهو ما يسمى بالتشخيص :
Characterization [1] .

وابتداء نقرر أن الشخصية يجب أن يكون لها كيانها المميز ، وطابعها الخاص المستقل ، وأبعادها الفارقة التى تحول بينها وبين الذوبان فى الشخصيات الروائية الأخرى مهما توافرت ملامح شبهيَّة بينها وبين غيرها من هذه الشخصيات .. كما أنها مستقلة كذلك عن شخصية المبدع .. وإن كانت روحه تنعكس على سماتها على اختلاف فى درجة هذا الانعكاس الذى قد يكون من القوة بحيث يتحول إلى لون حاد من التلبس بشخصية البطل أو إحدى الشخصيات المحورية .

« كما يجب أن يكون للشخصية وجودها الإيجابى فى الرواية .. بمعنى أن يؤمن القارئ أن وجود هذه الشخصية كان ضرورة من ضرورات العمل الفنى .. فالعقل لا يستسيغ أن تكون الشخصية مجرد كائن يردد كلمات رتيبة [2] .

والشخصية الروائية ليست كائنًا مسطحًا ذا مساحة مبسوطة ممتدة .. بل هى كائن حى له جوانب وأعماق وأبعاد .. وهذه الجوانب ، أو هذه الأبعاد تتمثل فى ثلاثة هى :

١ - الجانب الخارجى - أو البرانى - ويشمل الصورة الحسية ، والمظهر العام ، والسلوك الظاهرى للشخصية .

٢ - الجانب الداخلى - الجوانى - ويشمل الملامح والأحوال النفسية والفكرية .

---

(١) انظر : (عز الدين إسماعيل : الأدب وفنونه ١٥٢ - ١٥٤) .
(٢) Styan : The Elements of Drama P. 165.

٣ - الجانب الاجتماعى : ويشمل المركز الذى تشغله الشخصية فى المجتمع ، وظروفها الاجتماعية بوجه عام ، وطبيعة العلاقات التى تربطها بمن حولها(١) .

ولا يعنى هذا التقسيم أن هذه الأبعاد والجوانب متباعدة ، أو منفصلة ، لأن الجانب الخارجى المادى إنما هو مرآة ينعكس عليها العمق الداخلى ، والشخصية ببعديها الخارجى والداخلى يكون لها دائمًا مركزها واتصالها بدائرة المجتمع العام .. والشخصية - مهما كانت موغلة فى الانعزالية - لا يمكن أن تنفصل عن هذه الدائرة .. بل يبقى لها اتصال بها على نحو من الأنحاء .

* * *

والرواية التقليدية كانت تهتم بإبراز الأبعاد الثلاثة للشخصية .. ولكن الرواية الحديثة أخذت تتخلص من هذا الإسار ، فهى لا تعير الجانب الخارجى أو الجسمى أى اهتمام إلا بقدر ما يخدم القصة .. ومن جهة أخرى لم يعد بطل الرواية مثاليًا فى سلوكه ، وقدرته على تخطى الصعاب .. بل إن المذهب الماركسى رفض فكرة البطل من أساسها ، وأحل محلها أنماطًا للشخصية من الطبقة المتوسطة أو الفقيرة لها تأثيرها القوى فى المجتمع ومجريات الأمور(٢) .

وتأسيسًا على أهمية الأدوار التى تؤديها الشخصيات ومقدار وجودها الفاعل فى الرواية قسمت إلى شخصيات رئيسية أو محورية ، وشخصيات ثانوية .

وعلى أساس توقفها وتحركها وتطورها إلى شخصيات مسطحة أو جامدة أو نمطية ، وشخصيات نامية أو متطورة أو مدورة(٣) .

وتفضيل نوع على نوع ، أو الاستغناء بنوع عن نوع ينطلق من منطلق غالط ؛ لأنه يغفل المقتضيات الفنية للعمل الروائى الذى يستلزم فى موقف أو مواقف معينة شخصية ثانوية ، أو شخصية مسطحة لا يغنى عنها شخصية رئيسية أو نامية .. فلكل عمل متطلباته وحساباته الخاصة .

---

(١) انظر : (حسين قباني : فن كتابة القصة ٧٠ ، ٧٢) .

(٢) انظر : (الدكتور أبو شريفة : مدخل إلى تحليل النص الأدبى ١٣٣ ، ١٣٤) .

(٣) انظر هذه التقسيمات بتوسع فى : (ا.م. فورستر : أركان القصة ٨٣ - ١٠١) .

والوسائل الفنية التى تمكننا من التعرف على طبيعة الشخصية وأبعادها أهمها :

١ - الوصف أو السرد المباشر .. وهو ما يقدمه المؤلف فى تقريرية صريحة مباشرة .

٢ - منطوقات الشخصية ذاتها فى بوح مباشر ، أو اعتراف صريح ، أو مونولوج ، أو حوار خارجى تطرح فيه ذاتها ، أو يحمل دلالات على ملامحها غير مباشرة ، يتوصل إليها بالتمعن والتحليل .

٣ - منطوقات الآخرين ، وما تحمله من شهادات ، وآراء ، وما تعبر عنه فى المواقف المختلفة .

٤ - معطيات الأحداث والوقائع من إشارات ودلالات ، وطبيعة العلائق التى تربطها بالشخصيات .

* * *

والدراسة القبلية لشخصية كاتب الرواية ، ومسيرته ، وتوجهه الفكرى والأيديولوجى يعتبر عند بعض النقاد مصدرًا من مصادر التعرف على أبعاد شخصياته .. ونرى أنه - واقعيًا - يلقى بعض الإضاءات على مساحات فى الشخصيات غير الواضحة .. ولكنه يبقى مصدرًا استئناسيًا احتياطيًا قد لا يرقى إلى قوة الدليل الحاسم .

ومن الباحثين والنقاد الذين يجندون مدارس علم النفس ومعارفه فى الدراسات الأدبية من يرى أن العكس هو الأدل والأقوى ، ويحاولون استخلاص أبعاد شخصية المبدع ، ومَسيرة حياته من آثاره الأدبية .

* * *

وفى الرواية أربع شخصيات رئيسية تفرض وجودها على مساحات الرواية : اثنتان عراقيتان هما : مهدى جواد ، ومهيار الباهلى .. واثنتان جزائريتان هما : فلة بوعناب ، وآسيا لخضر .. وهذه الشخصيات الأربع يجمع بينها الشعور الحاد بالهزيمة والانكسار أمام قوى دكتاتورية حاكمة عاتية سرقت ثورات الشعوب ،

وامتصت نخاعها .. وإن تأرجحت هذه الشخصيات ما بين تطلعات آملة ، ومثبطات مقعدة .

مهدى جواد فى نقاط برقية سريعة : شيوعى ضليع ، مسكون بالأيديولوجية الماركسية بعد انكسار الشيوعيين عسكريًا فى الأهوار ، وتعرضهم لمذبحة عاتية بعد الانكسار على أيدى أجهزة عبد الكريم قاسم ، يتسلل هاربًا إلى الجزائر ، يعمل بالتدريس ، ويكون لقاؤه الدائم بتلميذته آسيا لخضر ، يستشعر فى عمق صدمة أخرى ، وهى أن رجال الثورة الجزائرية بعد أن تولوا حكم الجزائر أضاعوا كل شىء : مكاسب الثورة .. مبادئ الكفاح والتزاماته .. كيان الإنسان الجزائرى وأحلامه فى حياة حرة كريمة .

يدفن همومه وآماله المقهورة فى الخمر والجنس والهجوم على مواريث الدين والأمة ، وقيم الماضى .. ولكن الشعور بالإحباط أقوى من تماسكه النفسى والعقلى ، فيحاول الانتحار بقطع شريانه ، وتخفق المحاولة بتدخل الآخرين ، وينتهى به الأمر إلى الانسحاب والانتحار بإلقاء نفسه فى البحر ليكون طعامًا لأعشاب البحر .

وامتلاؤه إلى درجة التشبع بالأيديولوجية الشيوعية لم يترك فى قلبه أية مساحة تتسع حتى للحد الأدنى من الإيمان .. وهو لا يخفى هذا الانسلاخ من التراث ، والمروق من الدين .. بل يصرح ويتحدث « عن تحطيم الأوثان التى أقامها الآباء والأجداد ، وضرورة الانفصال عن الدين .. والله .. والأخلاق .. والتقاليد .. والأزمنة الموحلة .. والجنة والجحيم الخرافيين .. وطاعة أولى الأمر والوالدين .. والزواج المبارك بالشرع ، وسائر الأكاذيب والطقوس التى رسمتها دهور الكذب [1] .

وهذا الانسحاق العقدى جعله مخلوقًا فارغًا ، أو مفرغًا ضائعًا محكومًا باليأس كما يقول عن نفسه : « إننى يائس الآن ، ومزعزع من أعلى عليين إلى أسفل سافلين ، ولا أرى سوى الأسود والوحل والموت » [2] .

ويصبح الموت انتحارًا محصلة طبيعية لمثل هذه الشخصية التى لا تملك الحصانة الإيمانية وهى تخوض معترك الحياة .

* * *

---

(١) « الوليمة » (٣٤٨) . (٢) « الوليمة » (٥٧٠) .

أما مهيار الباهلى فهو مناضل ماركسى عراقى كذلك ، ورفيق مهدى جواد فى التجربة الفاشلة للثورة الشيوعية المسلحة .. ولكنه يختلف عن مهدى جواد فى أنه لم يفقد بعدُ إيمانَه بالثورة ، جاء إلى الجزائر مثل مهدى بعد فشل هذه التجربة ، وما زال يحلم بثورة جديدة يقودها من أهوار العراق حتى جبال أطلس ، مع أنه خرج من معركة الأهوار الخائبة مصابًا برصاصتين إحداهما دخلت من الإلية .. وعمل بالتدريس فى الجزائر زاهدًا فى النساء .

ولكنه استسلم آخر الأمر لجسد فلة .. مع أنه ظل مدة طويلة طاهرًا بعذريته ، زاهدًا فى المرأة .. ولما طلبت منه السلطات الجزائرية مغادرة الجزائر « لخطورته » لم يلجأ إلى الانتحار - كما فعل مهدى - بل ظل أمره فى الرواية معلقًا غير معلوم ، وغير محسوم .

والرواية تقدم لنا ابتداء في أسلوب رومانسى صوفى صورة مهيار الباهلى فى نقائه السلالى ، وطهره العقدى ، وإصراره الثورى ... كان « بصراويًّا » من سلالة الفرات الأوسط ، والباهليين القدامى ، والحسين بن على - رضى الله عنهما - ، السلالة التى حملت دمها على كفها ، وكفنها الأبيض فوق جسدها ، وسارت إلى حتفها .. فلم ينتصر سوى موتها ، ويوم خاض مع خالد أحمد زكى ومجموعة الأهوار حرب العصابات الخاسرة كان يتوهم أنه يواصل ميراث الخسارات الدامية ، والأمثولات التى تتراكم لتشكل ذات صباح أو مساء الصرخة التى تختزنها القرون القديمة ، لتدوى فى القرن العشرين أو الثلاثين أو الخمسين هادمة جدران زمن الاستبداد والجوع والإبادة الجماعية لشعوب قهرت ، واستذلت ، ثم ما لبثت أن دفنت تحت السطوة الوحشية للخلفاء والأمراء الخلعاء والجنرالات الدمى ، والأحزاب المستذلة والراكعة [1] .

ويظل يحلم : لو كان لدى خمسة ثوريين من نمط أبى ذر ، وعلى بن محمد ، وحمدان قرمط لألهبت هذه الدنيا العربية بالحرائق [2] .

وأيديولوجيته عنده أهم ما فى حياته .. وهى مقدمة عنده على المرأة ، وما يمكن أن تمنحه من متع وملاذ ، حتى المرأة فى نطاقها الشرعى المشروع .. يكاد

---

(١) « الوليمة » (٣٢) . (٢) « الوليمة » (٢١٠) .

مهدى جواد ينفجر غيظًا حين يتراءى له بؤس عالم يهيمن عليه مهيار الباهلى .. هذا العقل المحض الذى خطب يومًا فتاة جميلة عندما كان طالبًا فى جامعة بغداد .. وفى ليلة مقمرة كانا يسيران على ضفاف دجلة فى شارع أبى نواس ، والريح رخاء ، وبدلًا عن الحب والليل الشفاف انطلق يثرثر لها عن المادية التاريخية ، ناسيًا نفسه وجسده والليل والخطيبة .. هكذا استمر يهلوس وحيدًا بين الشجر والصمت بعد أن تركته الفتاة الجميلة عائدة إلى بيتها .. يومها لم يلعن السياسة والفلسفة .. إنما صَبَّ جام غضبه على تفاهة النساء ، وغبائهن اللا محدود [1] .

وكثيرًا ما حدث صديقه مهدى جواد حول ضرورة التحرر من استعباد الجسد .. ويحدثه عن العبودية الامتثالية للمرأة : عبودية الشهوة [2] .

وذات ليلة .. الليلة التى سمتها فلة بوعناب أو مهيار أو كلاهما : الليلة الثانية بعد الألف كسرت فلة خط الطهارة المهيارية فكانت ليلة الضجعة الأولى التى تواصل حبها حتى الصباح .. فلة المعطرة الحزينة لجرح مهيار ، والساهرة عليه بحنان أمومى ، ومهيار المحطمة أحلامه ، والملقى غريبًا جريحًا فى وطن الثورات المغدورة [3] .

وتنتصر فلة بوعناب مناضلة الأمس ، ومومس اليوم على مهيار الباهلى الذى كان - إلى أن حلت هذه الليلة - مثال الطهر والنقاء .

* * *

وفلة بوعناب هى صاحبة « البنسيون » الذى نزل فيه مهيار الباهلى .. كانت مجاهدة من المجاهدات ضد المستعمر الفرنسى فى الجبال ، ثم كانت صدمة الاستقلال التى قلبت ميزان حياتها « الثورة الوطنية انتهت .. والرجال صاروا فى مواقع السلطة والمسئولية .. وها نحن اللواتى قاتلن فى الجبال والمدن نتحول إلى الخدمات المنزلية : جميلة بوحيرد تزوجت من محاميها ، وهاجرت معه .. جميلة بوعزة دخلت فى النسيان .. أنا مع آلاف النساء صرنا إلى ما يشبه المومسات

---

(١) « الوليمة » (٥٩٨) .

(٢) « الوليمة » (٥٩٦) .

(٣) « الوليمة » (٥٨٩) .

أو الزوجات الصامتات المطيعات للرجال .. انتهى دورنا الاستثنائي ، فاستدرنا إلى وظيفتنا الأساسية [1] .

الخمر والسهر والجنس الشائع مع كل الجنسيات ، والاستهانة بالآخرين والقيم والأديان .. هذه هي قائمة أخلاقياتها ، أو مفاتيح شخصيتها .. ومن الخطأ تبرير ذلك بصدمتها في الثوار الذين حكموا وطنها بعد الاستقلال ، فكانوا مثلًا ضاريًا سيئًا .. وحشًا أكل كل شيء ، ولم يعط شيئًا ، لأن ذلك قد يبرر سلوكًا انحرافيًا آخر كاغتيال المسئولين ، أو السطو على أموالهم .. ولا تعليل لهذا الانحراف الجنسي البشع إلا « آفة النهم البهيمي » الخسيس .. وقد يكون وراءه طابع سادي حاد ، يجد المتعة في « إسقاط » الآخرين في مستنقع الجنس .

وقد يؤيد ذلك حرصها على تشويه صفحة المجاهدين الأصلاء .. تقول فلة : « في الجبل غاب أصدقاء كثيرون ، ولم يعودوا .. أصدقاء قاتلت معهم ، وضاجعتهم في الكهوف .. أنت لا تعرف عذوبة الجنس في لحظة الحرب . في لحظة الموت .. عندما يموت المقاتل بعد استراحة هانئة مع امرأة لا يأسى على شيء .. لقد أخذ الجسد ، وأعطى ، ثم نام مرتاحًا [2] .

ثم تقدم تبريرًا أغرب لحرصها على مزاولة الجنس بإفراط وإسراف مع أشخاص متعددي الجنسية والقدرات .. يظهر ذلك في الحوار التالي بينها وبين مهدي جواد :

– اسمع .. سأقول لك شيئًا خاصًا عنا : نحن نشتهي الفرنسي ، والجزائري والعربي معًا .. هل تستطيع أن تتكهن لماذا ؟

– لا ، تكهني لنا .

(ترمي وَدَعها ثم تخط في الرمل !!) .

– هو صوت الدم المبدد .. أو الشهوة .. أو العبث .. أو رغبة الاستبدال .. آ .. هذا ما تقوله .. ولكن .. أنا أسألك : الجميل .. والغريب .. والغني .. والذكي .. والمغامر .. والشهوي .. والفنان .. والشجاع والقوي .. هلى يحتازها كلها رجل واحد ؟

---

(1) « الوليمة » (١٨٣) .
(2) « الوليمة » (١٨٥) .
(3) « الوليمة » (٣٢٤) .

- لا ، طبعًا .

- الجزائرية فى بلادنا تحلم بهذه الجمهورية المفقودة من الرجال .. من أجل ذلك تخون إذا كان البحث عن تلك الجمهورية يسمى خيانة .

- هذا .. ماذا تسمينه فلة ؟

- بحث مشروع عن الحق الطبيعى .. حق أم لا[1] ؟

وهذا الكلام يعني - بمنطق فلة على ما فيه من غموض - أن مزاولة الجنس مع جنسيات متعددة ، وأصحاب قدرات متنوعة إقامة مشروع جمهورية تسودها الأخلاق الطبيعية الأولى .. وهى أصيلة فى نظرها ، متجذرة فى الطباع ، وسلوكها الجنسى الحاد يعيد الأمور إلى وضعها الاستحقاقى العادل .. فكأن قيامها باعتناق الجنس واحتضانه سلوكًا يحقق - ولو حكمًا وتخيلًا - معادلًا موضوعيًا للجمهورية التى كانت منشودة مرجوة على أيدى الثوريين .. ولكن خاب فيهم الأمل ، وتحطمت المطامح .

إن شخصية فلة بوعناب تمثل أعلى الأصوات وأقواها فى عالم الجنس المنهوم ، والخمر والعبث والاستهتار ، والوقاحة والتبجح ، وكان لها من قوة التأثير ما مكنها من شد مهيار الباهلى من عالمه الأيديولوجى المثالى الذى لامكان للمرأة فيه ، والذى لا يشغله إلا التفكير فى الثورة إلى عالمها الجنسى المفضوح ، فى ليلة أصابته فيها الحمى العاتية التى أشرفت به على الهلاك ، فقدمت جسدها إليه ، فلما انفكت أزمته المرضية والنفسية - ولو إلى حين - اعتقد أن الترياق كان فى هذا الجسد ، واعتقد .. بل صرح أن هذا منها كان تضحية وافتداء عظيمًا جليلًا .

والشخصية الرابعة هى شخصية آسيا لخضر بنت سى العربى أحد شهداء الثورة الجزائرية .. كانت تعيش تحت ضغط نفسى أليم .. لأن أمها « لا لا فضيلة » تزوجت رجلًا غنيًا انتهازيًا مشغولًا بجمع المال ، والحرص على لياليه مع أمها .. عاشت الأسرة مع الوافد الجديد فى بيت واحد .. كانت تشعر بأن هويتها الاجتماعية ضائعة .. لذلك كانت ترفض أن تكون المرأة مجرد زوجة شرعية للمطبخ والسرير[2] .. وكانت ترى أن جوهر الحرية يتركز فى الوعى والتحرر

---

(١) « الوليمة » (٣٢٤) .

(٢) انظر : « الوليمة » (٩١) .

الاقتصادى [1]. وكانت مفتونة بسيمون دى بوفوار ، التى تنشر عنها الصحف الفرنسية كنموذج للتحرر والتفتح .

وتحقيقًا لذاتها ، واستكمالًا لعناصر هويتها صممت على تعلم اللغة العربية على يد مهدى جواد ، وكان هذا « الدرس الخصوصى » وسيلة لعاطفة حب جارفة بين الأستاذ وتلميذته ، كان طرحها الشرب والقصف والليالى الآثمة .. متمردة على القيم المأثورة مستهترة فى نظرها إلى الآخرين .. وكان أشد مظهر من مظاهر تمردها ثورتها الجائحة على زوج أمها يزيد ولد الحاج خالعة عليه من الأوصاف والألقاب : الخنزير .. والحلوف .. والقحب .. واليهودى [2].

* * *

ومن الشخصيات الثانوية التى كان لها حضورها الملحوظ على امتداد الرواية مع أنها كانت شخصية مسطحة ثبتت على خط واحد بلا نمو ولا تطور : شخصية الشيخ محمد التى قدمها الكاتب نموذجًا « للرجل المتدين » فى مقابل شخصيات الحرية والتحرر والتطلعات إلى إقامة مجتمع العدل والاشتراكية الحقيقية .. لقد أسهب الكاتب فى عرض ملامح هذه الشخصية عرضًا أفقيًا موزعًا على كثير من المواقف ، وجعل منه « مسخرة » يستهدفه الآخرون بالتهكم والإزراء وخصوصًا مهدى جواد ، وآسيا بلخضر .

وابتداء العلاقة بين الحاج محمد ومهدى جواد كان يوم استأجر الأخير غرفة منه للسكنى .. وكانت إرشادات الحاج محمد - الذى زار بيت الله ثلاث مرات : لا ضوضاء .. ممنوع السهر الطويل .. لا خمرة .. احذر إدخال النساء .. نحن قوم شرفاء لا نؤجر إلا للشرفاء .. أنتم شيوخ جئتم من أرض الأنبياء والرسل لتعليم أطفالنا القرآن وتقوى الله ، والسير على الصراط المستقيم ... [3].

وفى السرد يخلع المؤلف على الشيخ محمد من المواقف والصفات ما يثير السخرية منه والاستهانة به مثل :

---

(١) انظر : « الوليمة » (٩١) . (٢) انظر : « الوليمة » (١٠٦) .

(٣) « الوليمة » (٢٤) .

- على العتبة فوجئ (مهدى جواد) بوجه الحاج محمد ، لحيته المزروعة بالبياض كانت ترتجف ، ووجهه الأصفر ينضح حقدًا[1] .

- الحاج محمد المليء كرشه بنور الله وتقواه[2] .

- الحاج محمد زائر مهد رسول الله ﷺ وعاشق كعبته بدا بائسًا تحت ذلك الغروب الكابى .. كان مرتبكًا يتعثر باختلاطات عقله وأسئلة الجيران الذين خرجوا ، وبالدمدمات الأخلاقية التى يطلقها ذهنه المتناث بالأموال والصلوات والكبت الجنسى[3] .

هذا عدا ما جاء على ألسنة آسيا بلخضر ، ومهدى جواد ، وغيرهما من السخرية بهذه الشخصية ، ورميها بالنقائص والانحطاط .. ونحن لا ننكر أن حياتنا الاجتماعية لا تخلو من مثل هذه الشخصية ، ولكننا نلاحظ فى رسمها وأسلوب عرضها ما يأتى :

١ - كثرة التدخل من الراوى المؤلف وعدم الاكتفاء بطروحات الحوار بشأنها ، وكأنها كانت تشغل فى ذهنه اهتمامًا خاصًا .

٢ - الإكثار من تكرار زيارته لمهد الرسول ﷺ ، وعشق الكعبة والبيت الحرام .. وهو تكرار لا يكسب الفن شيئًا .. وإن بقيت له دلالته التهكمية .

٣ - استعمال عبارات ساقطة فيها استهتار ذميم مثل المليء كرشه بنور الله وتقواه .

وكأني بالكاتب قد اتخذ من الشيخ محمد رمزًا « للدينى » ليكون معْبرًا لتشويه قيم الدين والخلق فى أنظار الآخرين .. بينما نراه متعاطفًا مع الشخصيات الأخرى على اختلاف درجات هذا التعاطف ، موظفًا من المبررات الدفاعية ما يدخل فى نطاق المكيافيلية فى صورتها الحادة .

* * *

ومن الشخصيات الثانوية يزيد ولد الحاج ذلك البرجوازى الثرى المليونير الذى

---

(١) « الوليمة » (٤٥) .

(٢) « الوليمة » (٤٦) .

(٣) « الوليمة » (٤٨) .

تزوج « لا لا . فضيلة » أرملة الشهيد سى العربى والد آسيا ومنار ورابح .. عاش مع زوجته هذه أميرًا أسطوريًا فى رفاهية ومتعة ، والأم والأولاد جميعًا فى خدمته ، الزوجة فى أبهى الثياب ، وأجمل الحلى ، فهو منقذ الأسرة من الفقر واليتم والتشرد فى أعقاب استقلال الوطن [1] .

كان الرجل مشغولًا بمالياته واقتصادياته .. فالكسوب المتتالية المتزايدة تغريه بهذا الانشغال ، كما تغريه بالإقبال على « لا لا فضيلة » التى يدفن فيها تعبه اليومى ، ويحقق بها ملاذه التى يحرص عليها .. ويرضى كبرياءه وتعاظمه نهوض أولاد « لا لا فضيلة » لخدمته ، والعمل على راحته .

* * *

وفى العمل الروائى تتعدد الشخصيات المحورية ، والشخصيات الثانوية .. ولكن السؤال عن البطل ، أو الشخصية الأولى وارد دائمًا .. وفى نطاق الرواية الحيدرية نزعم أن الاحتكام إلى معيار الفاعلية ، والتأثير ، والغلبة ، والقدرة على الإيقاع بالآخرين ، والهيمنة عليهم يقودنا إلى القول بجدارة « فلة بوعناب » للفوز بهذه المكانة .. فكل القادة مروا بها - كما تقول - والعرب من جنسيات مختلفة وقفوا ببابها ، وهى بالجنس « المفلسف » تقيم بالحلم دولة عجز الثوار بعد الاستقلال أن يقيموها على أرض الواقع .

لكنا نعود فنجزم أن « الجنس » فى الرواية هو البطل الحقيقى إن صح أن يكون البطل « معنى من المعانى ، أو قيمة من القيم الرفيعة أو الخسيسة » إنه البطل الوحيد الذى كان له حضوره الدائم أو الغالب فى كل المواقف ، ومع كل الشخصيات حتى مع من هيئ عقديًا لأن يكون منه بمنجى ، مثل مهيار الباهلى الذى هزمه الجنس على يد « فلة بوعناب » فى ليلة الحمى العاتية .

ونلاحظ أن شخصية الأنثى كانت تحصد الغلبة فى مسيرتها الاجتماعية ، وخصوصًا عند الاصطدام ، وقد رأينا ذلك فى شخصية فلة ، ورأينا ذلك فى شخصية آسيا لخضر حين دمرت كبرياء زوج أمها يزيد ولد الحاج فى ثورة عارمة .

---

(١) انظر : (الوليمة ٦١٦ - ٦١٩) .

ونرى ذلك فى شخصية « منار » صغرى بنات « لا لا فضيلة » التى رفضت فى شراسة كل أوامر زوج أمها ، فلم تنفذ منها أمرًا واحدًا .. فإذا ما اعترض عليها ، ثارت فى وجهه :

- أنا حرة ، وأعرف ماذا أفعل [1].

وقد فسر « حيدر » نفسه هذا « التحيز » فى مقام حديثه عن علاقته بأبويه « كان أبى قاسيًا ومهيمنًا تمامًا على أمى ، وكان يأخذ مواقف عدوانية كثيرة ضد أمى ، فكنت أقف بينهما دفاعًا عنها لأحميها ، وأتلقى الضربات بدلًا منها وأقول له : اضربنى ، واترك أمى ، فكان يرتد شاعرًا بالخزى أو يكبح جماح غضبه مطلقًا الشتائم عليها ، ولم يكن يهمنى شىء بعد أن أكون قد حميتها من العصا أو الكف .

ربما ولد هذا فى أعماقى نبتًا أخضر مناصرًا للمرأة ... » [2].

ومشاهد العدوانية الأبوية على الأم المظلومة تركت فى نفس الطفل أثرًا عميقًا جعله فى كبره مناصرًا للمرأة كما ذكر ، ثم لاحقه فصور ما يشبهه أو يماثله فى روايته ، فعرض صورة « سعدون جواد » والد مهدى ، وجعل من أهم سلوكياتها فى منظومة شراسته وحماقاته واندفاعاته « ضرب زوجته .. التى عاش كارهًا لها .. يرميها بحقده الشيطانى ، ويذيقها العلقم ، لأنها لا تفهمه ، ولا تدرك مدى قدراته اللامحدودة فى الوصول إلى النجوم ، وقيادة الكرة الأرضية ، وإيقافها متى شاء ... » [3].

* * *

---

(١) « الوليمة » (٣٠٠) .

(٢) مجلة أخبار الأدب - العدد ٣٥٦ - ٢٠٠٠/٥/٧ من حوار حيدر مع الصحفية أمنية طلعت .

(٣) « الوليمة » (٢١٦ ، ٢١٧) .

رابعًا : الحــوار

الحوار جزء مهم من الأسلوب التعبيرى فى القصة ، وهو صفة من الصفات العقلية التى لا تنفصل عن الشخصية بوجه من الوجوه .. ولهذا كان من أهم الوسائل التى يعتمد عليها الكاتب فى رسم الشخصيات .. وعلاوة على ذلك كثيرًا ما يكون الحوار السلس المتقن مصدرًا من أهم مصادر المتعة فى العمل القصصى ، وبواسطته تتصل شخصيات القصة بعضها بالبعض الآخر اتصالاً صريحًا مباشرًا ، وبهذه الوسيلة تبدو لنا ، وكأنها تضلع حقًّا بتمثيل مسرحية الحياة .

والحوار البارع يكون سببًا من أسباب حيوية السرد وتدفقه ، كما أنه يستعمل أحيانًا فى تطوير الحوادث ، واستحضار الحلقات المفقودة منها ، إلا أن عمله الحقيقى فى القصة هو رفع الحجب عن عواطف الشخصية وأحاسيسها المختلفة ، وشعورها الباطن تجاه الحوادث أو الشخصيات الأخرى ، وهو ما يسمى عادة بالبوح أو الاعتراف ، على أن يكون بطريقة تلقائية ، تخلو من التعمد والصنعة والرهق والافتعال (١) .

فالحوار فى الرواية يؤدى مهام متعددة أهمها :

١ - الاشتراك فى رسم الشخصيات ، وإبراز أعماقها الدفينة ، وأحاسيسها الكامنة .

٢ - إيجاد التلاحم والاندماج بين شخصيات الرواية .

٣ - توفير التفاعل بين الشخصيات والأحداث .

٤ - تطوير الأحداث وإنماؤها .

ومن ثَمَّ يجب أن يكون الحوار الروائى « مقتضبًا ومكثفًا ، حتى لا تغدو الرواية مسرحية ، وحتى لا يضيع السارد والسرد جميعًا عبر هذه الشخصيات

---

(١) انظر : محمد يوسف نجم : فن القصة ١١٧ ، ١١٨ .

المتحاورة على حساب التحليل ، وعلى حساب جمالية اللغة واللعب بها »[1] .

* * *

وفي مقام الحديث عن الحوار الروائى علينا أن نكشف عن مداه الكمى من ناحية ، وعن شكله التعبيرى من ناحية أخرى .

فمن ناحية المدى الكمى يجب ألا يطغى الحوار على مساحة الرواية .. وإلا خرج بالرواية عن طبيعتها كجنس أدبى له تميزه ، جائرًا على امتدادات السرد تقربًا إلى فن المسرحية .

والإكثار من الحوار فى الرواية إلى حد الإغراق أحيانًا جنح إليه عدد غير قليل من الروائيين العرب فى العقدين الأخيرين من القرن العشرين .. ويعلل أحد النقاد الاتجاه إلى الإكثار من الحوار فى الرواية بواحد من التعليلين الآتيين ، أو بهما جميعًا :

الأول : أن الكاتب يتملص من موقف صعب فى التحليل والوصف والكشف ، فيعمد إلى إلقاء المئونة على الشخصيات لينطقها بأى كلام ، ويعنى بعض هذا أنه يسلك هذا السلوك عن وعى .. بل عن غش ، ومخادعة للمتلقى .

الثانى : أنه مبتدئ محروم ، فيعمد إلى كتابة هذه المحاورات دون وعى فنى كبير ، فيصول فيها ويجول .. ولكنه لدى نهاية الأمر يفسد على الشكل اللغوى الأساسى أمره ، فتطغى لغة الحوار على لغة السرد ، فإذا نحن لاندرى أنقرأ مسرحية كتبت لتمثل على الخشبة .. أم نقرأ رواية كتبت ليقرأها القراء حيث هم[2] ؟

* * *

ومن ناحية الشكل التعبيرى للحوار نرى - باسم الواقعية - من يدعو إلى أن تتحدث الشخصية بلغتها التى تتحدث بها فى واقع الحياة .. فمن غير المعقول - كما يقول الدكتور رشاد رشدى - أن يجعل كاتب القصة شخوصه تتكلم بمستوى لغوى واحد .. فالكاتب عليه أن يكون واقعيًا يحاكى الواقع ، وليس معقولًا أن يتكلم الفلاح الفصحى[3] .

---

(١) الدكتور عبد الملك مرتاض « فى نظرية الرواية » (١٣٤) .

(٢) مرتاض : السابق (١٣٥) .

(٣) « القصة القصيرة » (١٠٠) .

ويرفض عبد الحميد جودة السحار هذا الاتجاه بمقولة إن العامية لا تحلق أبدًا .. والكلمة العامية تختلف فى المعنى من بلد إلى آخر ، وقد تختلف من إقليم إلى إقليم ، وقد لا تفهم خارج نطاقها المحلى ، والتسليم جدلًا بأن واقعية الأسلوب تحتم استعمال العامية فى الحوار .. فإن التضحية بهذه الواقعية أقل بكثير من التضحية بالحوار [1].

وفهم « واقعية الحوار على أنها تمثيل للغة الشخصية بإطلاق حتى لو كانت عامية ينقضه إشكالية التعامل مع شخصيات من جنسيات أخرى .. فالأخذ بهذا المبدأ يستوجب إنطاق الإنجليزى بالإنجليزية ، واليهودى بالعبرية ، وهذا مستحيل .. فالحل إذن يكمن فى الفهم الصحيح للواقعية لا فى نطاق « حرفية اللغة » باستنساخها كما هى ، ولكن فى نطاق « فنية التصوير والأداء » وبتعبير آخر : تكون الواقعية واقعية فنية شاملة ، لا واقعية لغوية ترتكز على مجرد المحاكاة ، واقعية فاعلة لا واقعية ناقلة .. لأن عملية الرصد التسجيلى هى مهمة العالم الأديب .. وهو فى تعامله مع الواقع يعتمد على مبدأين : المبدأ الأول : هو مبدأ الانتقاء .. انتقاء مادته أو نماذجه من الحياة يستوى فى ذلك الأحداث والشخصيات تبعًا للمنطق الروائى المخطط .. والمبدأ الثانى : هو مبدأ « التصفية » أو التنقية بتمرير « المادة » من خلال ذاته على مصفاتين : هما الوجدان .. والعقل .. وبذلك يتحول الواقع من موجود شائع دارج متسيب إلى مخلوق فنى جمالى .. فالصدق - كما يقول الدكتور هلال - ليس معناه حكاية الواقع كما هو ، أو سرد رواية التاريخ كما حدث .. إذ الفن يستلزم - بطبعه - الاختيار من بين الأحداث وترتيبها على نحو خاص مقنع فنيًا ، بحيث توحى فى عالمها المصور فى القصة بالقضايا التى يؤمن بها القاص ، ويدعو إليها .. وفى هذا يتجاوز القاص الواقعى نفسه عالم الواقع كما هو .. فهذا الصدق ليس مرده وقوع حوادثه التى ساقها كما هى .. ولكن مرجعه إلى سياقها على طريقته المقنعة واقعيًا وفنيًا [2].

فالواقعية يقصد بها واقعية النفس البشرية ، وواقعية النفس والمجتمع ،

---

(١) السحار « القصة من خلال تجاربى » (٢١) .

(٢) الدكتور غنيمى هلال « النقد الأدبى الحديث » (٥٤٠) .

والكاتب لا يستنطق لسان المقال .. بل لسان الحال [1]. على أنه لا نزاع فى أن اللغة الفصحى أقدر وأثرى فى تنويع الدلالات وتعميقها من اللغة العامية المحدودة فى مفرداتها ، والمتصلة بالوقائع والمحسات ، فى حين تعجز عن المعانى العالية ، والأفكار العميقة والخواطر والمشاعر الدقيقة [2].

ولغة السرد هى لغة كاتب الرواية التى تدل عليه ، وتدل على سماته الأسلوبية بقدر أكبر من دلالة الحوار على هذه السمات .. حيث يكون الأول منطلقًا بلا ارتباط مقيد .. بينما يكون الثانى مقيدًا بطبيعة الشخصية ، وحركتها ، وأبعادها العقلية والنفسية .. إلا أن لغة السرد - بصفة عامة - يجب أن تتسم بالسهولة والوضوح دون ابتذال ، وقوة النسج والتدفق دون تسيب ، وقدرة التصوير بعيدًا عن الافتعال والتصيد والتكلف .. فهو أسلوب آحادى المستوى لأنه أسلوب كاتب الرواية الذى يقص فى حياد .

* * *

أما لغة الحوار - وقد اتفقنا أن صورتها المثلى .. بل الوحيدة هى الفصحى - فيجب أن تتعدد مستوياتها بالتعدد النوعى للشخصيات .. فالعبارات التى تجرى على لسان الفلاح تكون دارجة الأسلوب ، سهلة المأتى ، تعرض المعنى بصورة مباشرة عفوية .. أما لغة الفيلسوف أو المفكر « الرفيع الثقافة » فتتسم بالعمق والتركيز .. وقوة اللمح والإيحاء .. ولغة المرأة السوية يختلف عن أسلوب المرأة الشاذة . على أن طبيعة الموقف أو الحدث يكون لها تأثيرها فى توجيه الخطاب الحوارى ، وتحديد طوابعه .. وهى قاعدة مطردة تصدق على كل الشخصيات مع اعتبار قدراتها وإمكاناتها اللغوية فى واقع الحياة : فحديث الشخصية وهى فى موقف الخطر غيره فى موقف المتعة والارتخاء ، وحديث الشخصية مع عامة الناس يختلف عن حوارها مع ملك أو أمير .. وكل أولئك بمعيار الكم .. إيجازًا أو تفصيلًا .. ومعيار الكيف سهولة ومباشرية وتصريحًا أو عمقًا وإيحاء وتلميحًا .

---

(١) غنيمى هلال : السابق (٦٧٢) . وانظر كذلك : (أبو شريفة : مدخل إلى تحليل النص الأدبى ١٢٢ ، ١٢٣ ، ومرتاض : مرجع سبق ١٣٥) .

(٢) غنيمى هلال : السابق (٦٧٣) .

وقد ذكرنا من قبل الدور أو الأدوار الكاشفة والفاعلة للحوار فى نطاق الشخصية المحاورة والشخصيات الأخرى والمواقع والوقائع .. وطبيعة هذه الوظيفة للحوار تستلزم أن يتحلى الحوار بسمة « التناسب » مع الشخصية المحاورة فى أبعادها العقلية والنفسية والاجتماعية ، حتى يكون « المنطوق » انعكاسًا أمينًا لجوانية الناطق .. وإلا تحقق انفصام يترتب عليه حرمان الحوار قدراته وإمكاناته الكاشفة ، وعجزه عن إقناع المتلقى واستمالته .

* * *

وننتقل إلى الرواية الحيدرية « وليمة لأعشاب البحر » لننظر بعين النقد إلى حوار الرواية ، والنظرة العامة إلى هذا الحوار – من أول الرواية إلى نهايتها – تقودنا إلى الحكم بطغيان الحوار على الرواية ، والهيمنة على أغلب مساحاتها ، بل إن كثيرًا من السرد يقترب من طبيعة الحوار حين يجعله الكاتب على هيئة طرح أو بوح ذاتى . ولكن نترك هذا الجانب الكمى الآن ، وقد نعود إليه ، وننظر إلى هذا الحوار من الناحية الكيفية .

ابتداء نقرر أن الحوار الواقعى البارع الذى يمكن أن يؤدى بحق وظائفه التى أشرنا إليها آنفًا فكريًا وفنيًا .. هذا الحوار قليل جدًا .. بل نادر لا يزيد عدًا على أصابع اليد الواحدة .. ومنه بحق ما دار بين (أبو صبرى) الشيوعى العفوى الساذج البسيط ، ومهيار الباهلى القائد الماركسى والذى يمثل شخصية محورية فى الرواية :

– أخى مهيار .. اسمع . أنا رجل بسيط غير متعلم لا أفقه فى التيك والتاكتيك .. إنى شيوعى فقير لا أملك شيئًا .. الحياة والموت عندى سوا .. الضباط والتجار والإقطاعيون ورجال الحكومة أعداؤنا .. صح أم لا ؟!!

– صح !!

– إنى ، وكل الشيوعيين الحزبيين لازم نقتل هؤلاء الأعداء بلا شفقة .. حق وعدل هذا الكلام رفيق أم لا ؟!!

– حق وعدل .

- وإذا بقينا ننتقل ، ونبنى أكواخًا ، ونمطط كلامًا فى التيك والتاكتيك يربحون الوقت .. صح أم لا يا رفيق ؟!!

- صح[1] .

فالحوار هنا استوفى كل شرائط البراعة والصدق ، وقدم لنا رجلًا بسيطًا لا يهمه من الأيديولوجيات والتنظيمات إلا ما يهدف إليه ابن الشعب البسيط : أن يعيش .. يأكل ويشرب ويحقق ما يريد مباشرة وبحسم .. ولو كان السبيل إلى ذلك القتل وإراقة الدماء .

* * *

وغير ذلك نرى الحوار فى الرواية مثقلًا بكثير من العيوب الفنية ، وأهم هذه العيوب :

١ - الطول إلى درجة الثرثرة التى تقود إلى الملل والتثاؤب ، فى تقريرية مقالية تضعف البناء الدرامى للرواية من ناحية ، وتغتصب فضاء كان من حق السرد . كالحوار الذى أداره المؤلف بين فلة بوعناب ومهدى جواد ، وفيه يجرى على لسان فلة حديثًا متتابعًا بلا انقطاع يستغرق ما يزيد على أربع صفحات[2] .. وقد يأتى الحوار فى صورة علمية ممططة . وكثير منه على لسان مهدى جواد[3] .

٢ - وحدة المستوى اللغوى مع تعدد الشخصيات بحيث يمكن تبادل معطيات الحوار ، وإعادة توزيعها دون أن تتغير معطيات التشخيص أو تضطرب أبعاد الشخصية ، لأن الحوار محروم من الملامح الفارقة .. ولنقف أمام النماذج الآتية فهى تقربنا من فهم المقصود بهذه السمة :

(أ) أنا أعرفهم من مسافات بعيدة يشمون الرائحة ، فيركضون نحوها ، بعد أن غادروا تجاويف الجبال اتجهوا إلى تجاويف النساء[4] .

---

(١) « وليمة لأعشاب البحر » (٣٧٠) .

(٢) انظر : (الوليمة ١٨٠ - ١٨٥) .

(٣) كحديثه الطويل عن قصته مع الحزب الشيوعى وعن خططه (الوليمة ٧٣ - ٧٥) .

(٤) المرجع السابق (٣٥١) .

(ب) انظر إلى أنوفهم وأصابعهم وذقونهم المهدلة كقضبان عاجزة عن الجنس .. إنها تنتظر رنين الدراهم لتنتصب إلى الأعلى . عيون مليئة ببيرقات الأفاعي ، وروث الخيول[1] .

النص الأول جاء على لسان فلة بوعناب في حديثها لمهدى جواد ، والثانى من حديث بلسان آسيا لمهدى جواد فى موقفين مختلفين بينهما بعد زمنى ، واختلاف مكانى ، وتبادل النصين لا يغير من الواقع الفنى والفكرى المتداخل إلى درجة التلبس شيئًا ، وإن كان النص الثانى أقرب إلى شخصية فلة كما رسمها الكاتب .

والشواهد الدالة على هذه السمة فى الرواية أكثر من أن تحصى .

٣ – تعدد المستوى اللغوى نوعيًا فى نطاق الشخصية الواحدة : رأينا أن اتخاذ العربية الفصيحة لغة للحوار هو الاختيار الطبيعى فى العمل الروائى ، واتساقًا مع السرد الذى لا خلاف في أدائه باللغة الفصيحة .. ولكن منه ما جاء بالعامية دون مقتضى فنى أو موضوعى .. ولكن الأغرب من ذلك أن يأتى الحوار أحيانًا مزيجًا من الفصحى والعامية على لسان الشخصية الواحدة فى الموقف الواحد . والأشد غرابة على الإطلاق أن يجمع الحوار الواحد بين العربية الفصيحة ، وأكثر من عامية ، كما نرى فى المثال التالى على لسان فلة بوعناب :

– مثلى أنت تهرب ، وتراوغ ، وتنقسم على نفسك ؛ لأن الهزيمة كانت مريرة ، ولأنك وحيد لا تستطيع أن تفعل شيئًا .. أعرف .. لا تستطيع أن توقف الدمار والخراب .. الخراب أقوى منا .. ولا أحد فى الساحة .. أعرف .. لقد انسحبوا إلى الملاجئ الآمنة والهدوء .. بدهم يعيشوا ويأكلوا ويتزوجوا .. ويجمعوا شوية فلوس مش كده يا خويا مهدى ؟ قل الحق .. أنا غالطة فى هدرتى[2] ؟

فالجمل الثلاث الأخيرة تنتسب بترتيبها إلى ثلاث لهجات عامية هى : الشامية .. والمصرية .. والجزائرية .. ومن فضول القول أن ننبه إلى أن مثل هذا الحوار يهدر الوشيجة بينه وبين السرد من ناحية ، والحوار الفصيح من ناحية أخرى .. فهو يبدو رُقَعًا متعددة الألوان فى الثوب .

---

(١) المرجع السابق (٥١٩) . (٢) « الوليمة » (١٨٤) .

ومن مساوئ العامية كذلك أنها - في صورتها المحلية الحادة - تغلق الطريق أمام القارئ العربى لفهم المعنى .. كما نرى فى الحوار التالى (بين مهدى جواد وآسيا بلخضر) :

- عظيم .. أنت امرأة ذكية حقًّا .. وأنا أطلب يدك الليلة .

- ما معنى ذلك ؟

- هل تقبلينني زوجًا لك ؟

- يا للمصيبة ! واش ندير بيك .. يزيني مصايب .. خويا يرحم والديك ....[1] .

٤ - خنق الحوار وتعويق قدرته : المفروض - كما ذكرنا - أن يأخذ النص الحوارى مكانه فى السياقة الروائية ليطلق فى حرية شحنته الفكرية والإيحائية ارتباطًا بالسرد دون أن يكون عالة عليه .. ولكن النص الحوارى يَرِدُ أحيانًا وكأنه « فضلة » أو تحصيل حاصل لا يضيف جديدًا بعد أن استغرق السرد أو الوصف فكرته .. كما نرى فى النص التالى :

« لا لا فضيلة » تؤرجح رأسها .. تسوى حزامها الذهبى الذى قدمه يزيد لها فى ليلة العرس .. ترشق عبارات مبهمة عن الجيل الجديد الذى لا يعجبه شيء .. حبها الجارف لابنتها يطغى :

- لا أعرف يا ابنتى .. لا أعرف .. أنتم متعلمون ، وتفهمون أكثر .. نحن قدامى ، ولم نتعلم .. يلعن أبو الظلم والظلام . والله أنا وأنت تعرفين .. أقطع لقمة الخبز عن نفسى وأعطيها للفقراء[2] .

٥ - علمية بعض الحوار إلى درجة الإسراف : مما يقربه - وكثيرًا ما يتسم بالطول - من طبيعة الدرس أو المحاضرة الأكاديمية المعمقة التى تحمل شحنة من المعرفة .. ولكنها تبقى مجردة من الإيحاء والتأثير الجمالى .. كالذى جاء على لسان مهيار الباهلى متحدثًا إلى فلة بوعناب : « ولكن العالم القديم اللاعقلانى لم تحرق الحرب كل قلاعه ، لقد ارتدوا إلى وعيهم القديم .. حدث انعطاف .. عودة نحو

---

(١) « الوليمة » (٦٦٥) . (٢) « الوليمة » (١٥٤) ، وانظر (١٩٤) .

الدارة المغلقة .. انظر إليهم كيف عادوا إلى الدوران حول معابدهم الأولى .. معابد الأجداد الذين انقرضوا . تحت هذه الدورة الأنتربولوجية نفهم خصوصية الماركسية [1] .

* * *

والحوار الداخلى بألوانه المتعددة يستغرق من الرواية مساحات واسعة جدًّا تشى بأن الكاتب قد أفاد - على نطاق واسع - من التقنيات الحديثة فى الرواية .. والمناجاة أشهر ألوان الحوار الداخلى .. وغالبًا ما يكون لها مقدمة توضح أن الكلام غير موجه لمخاطب .. بل إلى الذات .. فهو « مونولوج » أفعاله : قال فى نفسه .. خاطب نفسه .. سأل نفسه .. تساءل ... إلخ .. ومن أمثلة المناجاة :

- كانت الأسئلة اللا جواب عليها تتناسل فى رأسه .. غير أن السؤال الأكثر تنغيصًا لمهدى جواد فى منفاه هو الحصول على الجواب الحاسم : أين يكمن العطب ؟ لكن السد الناهض كجبلٍ من صوان عصى على الكسر : كيف تبنى من جديد ولا تتحطم [2] ؟

- يومها اكتشفه مهيار الباهلى .. اكتشف الوجه الآخر للطفل الهادئ .. ويومها سأل نفسه : كيف يحمل الإنسان فى داخله قلب طفل ، وصرخة نمر ؟ لابد أنه كان مجنونًا أو مصقولًا بحلم شمسى .. وعلى مؤشر هذه البوصلة كان يتقدم فى حقل ألغام على كتفه بندقية ، وفوق جسده كفن أبيض [3] .

* * *

وهناك الخطاب غير المباشر ، وهو يقف بين الخطاب المباشر والسرد .. فهو ليس نقلًا أمينًا وثائقيًا لأقوال الشخصيات .. فالرواى ينقل كلام الشخصيات بأسلوبه هو ، فيلخص ويخضع الكلام للغته هو ، ووجهة نظره .. والضمير الغالب هو الغائب الممثل لحضور الراوى .. ومثاله :

---

(١) « الوليمة » (١٢٦) .
(٢) « الوليمة » (١٥٧) .
(٣) « الوليمة » (٢٤٢) .

« عندما انطلق عبد الحسين ونصر الطويل ينمان على مهدى جواد الغائب ، استفز الباهلى ، وبدا يتململ .. طفقا يتهكمان على الرجل الهارب من بلاده ، والذى يَدَّعى الثورية ، فى الوقت الذى لا يُرى فيه إلا مع هذه الطفلة الجميلة المخدوعة بصعلوك لا يساوى فلسًا فى بلاده »(١) .

وهناك ما يسمى بالخطاب غير المباشر الحر ، وهو يشترك والخطاب غير المباشر العادى فى أنه قد يتضمن جملًا إنشائية استفهامية وتعجبية ، وجُمَلًا اسمية أو فعلية فعلها فى المضارع .. وهو فى ذلك يقترب من المناجاة الداخلية لأنه يصور عالم ما وراء الوعى وتيار الوعى الداخلى .. إنه ينقل أحاسيس الشخصيات قبل أن تنتظم فى كلام منطقى منسق ومنطوق .

أما الخصوصية فى هذا الخطاب فهى - من حيث الشكل - فى أنه يأتى دون مقدمة كما فى الخطاب غير المباشر ، وأن الضمير الطاغى فيه هو ضمير الغائب لا المتكلم كما فى المناجاة الداخلية .. أما أبرز ما يميزه من حيث المضمون والتقنية فى التعبير الفنى فهو التواطؤ بين صوت الشخصية وصوت الراوى .. فنحن نتساءل : من يتكلم .. هل هو الراوى يغوص فى أعماق الشخصية يحللها ، ويقرؤها كالكتاب المفتوح .. أم أنها الشخصية نفسها تفتح ذاتها العميقة لتعبر عن أحاسيسها الحارة قبل أن تخضع لتنسيق المنطق والكلام المنطوق (٢) .

وفى رواية « الوليمة » عشرات من النماذج للخطاب غير المباشر الحر : كالنص التالى :

« كان الموت مؤجلًا الآن .. وبدا هاجس مهيار فى تلك اللحظة عن اقتراب الليل والانسحاب تحت أجنحته ، يخرج من حلم الاستحالة إلى حقل الإمكان رغم صرخات الألم التى يصدرها جبار المبتور الكف مواليًا ضراعاته : اقتلونى .. اقتلونى ... » .

---

(١) « الوليمة » (٥٧٧) .

(٢) انظر هذه الأنواع مفصلة فى دراسة الدكتور أنطوان طعمة : « السيميولوجيا والأدب » (٢٠٧ - ٢٣٤) . مجلة عالم الفكر ، المجلد ٢٤ - العدد ٣ - يناير / مارس ١٩٩٦ م .

فهنا يختلط .. بل يتلبس صوت الراوى بصوت الشخصية وهى هنا مهيار الباهلى .. والقارئ يقف بين احتمالين : الراوى يتعمق الشخصية ويكشف عن أعماقها ، والشخصية تطرح ذاتها ، وتبين عن آلامها وهمومها .

وهذه الألوان الأخيرة أيضًا يعيبها الطول والتمطط مما يفقده بعض قدراته الكاشفة .. زيادة على الملل الذى يبعثه فى نفس المتلقى .

ونلاحظ كذلك أنه بفلسفيته وتعمقه وصوفيته أحيانًا يكون أكبر من « آماد » الشخصية ، وأرقى بكثير من أبعادها النفسية والعقلية .

* * *

خامسًا : السـرد

السرد هو عملية « قص » الأحداث ، أو عرض الحكاية بأحداثها وشخصياتها وكل عناصرها بطريقة فنية معينة .. وللسرد طريقتان مشهورتان :

الأولى : طريقة السرد الذاتى .

والثانية : طريقة السرد الغيبى أو الغيرى .

والطريقة الأولى : يستخدم فيها المؤلف ضمير المتكلم « أنا » ، كما نرى فى الترجمة الذاتية .. ومن أهم عيوب هذه الطريقة أنها « تجعل القارئ يعتقد – فى كثير من الأحيان – أن هـذه القصة المروية ليست إلا تجربة ذاتية لمؤلفها ، وأن أحداثها قد وقعت له فعلًا .. وخاصة إذا نجح المؤلف فى إيهام القارئ بواقعيتها » (١) .

أما الطريقة الثانية : فتعتمد على استعمال ضمير الغائب ، وهو أشهر الضمائر وأشيعها عند السُّراد ، وأيسرها استقبالًا لدى المتلقين ، وأدناها إلى الفهم لدى القراء ، ويرجع ذلك إلى أسباب متعددة من أهمها :

١ – أنه وسيلة صالحة لأن يتوارى وراءها « السارد » ، فيمرر ما يشاء من أفكار ، وأيديولوجيات ، وتعليمات ، وتوجيهات وآراء ، دون أن يبدو تدخله صارخًا ، ولا مباشرًا .

٢ – يجنب اصطناع ضمير الغائب الكاتب السقوط فى فخ « الأنا » الذى قد يجر إلى سوء فهم العمل السردى ، وأنه ألصق بالسيرة الذاتية منه بالرواية الخالصة (٢) .

* * *

ويتميز السرد عن الوصف بأن الأول يعنى حكاية الحوادث والأعمال بأسلوب

---

(١) الدكتورة عزيزة مريدن « القصة والرواية » (٤٥) .

(٢) انظر : (عبد الملك مرتاض : فى نظرية الرواية ١٧٧ – ١٨١) .

ينتهى إلى غرض مقصود .. بينما الثانى يصور المشاهد والمشاعر[1]، ومن ثَمَّ يكون للسرد ارتباطاته ودلالاته الزمانية .. أما الوصف فلا يملك هذه الارتباطات والدلالات بشكل ذاتى أصلى .. وإن اكتسبها بوجوده فى بنية السرد . « فالسرد - كما يقول تودوروف - يعمل داخل التتابع الزمنى لخطابه على إعادة السيرورة الزمنية للأحداث كذلك .. بينما يبدو الوصف ملزمًا فى نطاق العنصر المتتابع بتعديل عرض الأشياء المتزامنة والمتجاورة فى المكان »[2] .

وحتى يدرك القارئ الفارق بينهما أقدم النصين الآتيين : (وهما متتاليان لا فاصل بينهما فى الرواية) :

١ - بيد أن الصوت الذى يرج البيت كالإعصار يسمع لأول مرة صوت رجل يأمر وينهى ويحتد ، أمر ما فى البيت لا يرضيه .. يتوقف الدرس برهة .. تتراجع آسيا ناهضة عن كرسيها ؛ وتخرج من الصالة (سرد) .

٢ - على الجدار لوحة زيتية لرصيف بحر .. فى منعطف الرصيف رسمت نخلة .. رسم ابتدائى .. اللوحة زرقاء .. والبحر هادئ بلا زبد[3] . (وصف) .

وإذا كان الوصف المعروض يَرِدُ - فى الغالب - عاريًا من العنصر الزمانى فيجب ألا ننسى أنه يكتسب بالإيحاء الطوابع الزمانية من موقعه فى السرد القبْلى والبعدى بطريقةٍ غير مباشرة ، كما أنه يمثل صوت التنويع الذى يجب أن يكون متوافرًا فى الرواية ، بجانب القص والحوار والشخصيات وغيرها .. مع ملاحظة أن إطالة الوصف وتمطيطه يعطل مسيرة التدفق السردى ، ويقترب بهذا النهج من أسلوب التقريرات .

وقد أشرنا إلى أن الكاتب قد استخدم ضمير الغائب (هو) فى السرد القصصى ، وغلب عليه توظيف الفعل الماضى ، كما أنه أكثر من استخدام المضارع والمستقبل ، وصهر الموانع بين الأزمنة الثلاثة ، فتداخلت كثيرًا فى تضاعيف الرواية ، وقد يعلل هذا التداخل بأنه يهدف إلى الإيحاء بتشابك النكبات ، وتشابهها وتماثلها النهجى والقهرى من ناحية ، وشدة الشعور بوطأتها من ناحية

---

(١) أحمد الشايب « الأسلوب » (١٠٨) .   (٢) « طرائق تحليل السرد الأدبى » (٧٨) .
(٣) « الوليمة » (١٠٩) .

أخرى .. ولكن الإفراط فى استخدام الصيغة المستقبلية يلغى - أو على الأقل - يضعف طابع التشويق بتقديم « المجهول » مسبقًا مما يشكك فى اقتناع القارئ به ، وتطلعه إلى تلمس الوقائع فى مظانها ، ومكانها الطبعى من السياق الروائى ، وخصوصًا إذا كان الحدث المستقبلى يمثل خطًا أو ملمحًا موضوعيًا له قيمته .. ومن هذه المستقبليات :

١ - وعندما سيخلفون غياض البردى ، ويواجهون قامات القصب الغليظة التى تبدو لهم كجدار من الثلج يسد الأفق ، سيسأل الباهلى ...[١].

٢ - بعد عشرين عامًا .. وفى شوارع وأمسيات المدن التى ستطوى مهيار الباهلى بحثًا عن بؤرة حياته الضائعة ، وثورته التى يحلم بها ، سيتذكر تلك الصورة السحرية الغريبة للمدى الأبيض ...[٢].

٣ - ستهبط على مهيار الباهلى فيما بعد موجة من الندم المرير لأنه لم يخالف أوامر الرفيق ظافر ...[٣].

٤ - ستقول آسيا لمنار ، وهما تعومان باتجاه الشاليه التى استأجرها يزيد ولد الحاج : الجزائرى ضائع[٤].

فالمستقبلية هنا غير مقنعة ، ولم تحقق وظيفة فنية أو فكرية .. ولكنها تحقق أثرها أو آثارها العكسية التى ذكرتها آنفًا .. وهذا التقييم الأخير ليس على إطلاقه .. لأن توظيف المستقبلية مستساغ فى مجال الطروحات النفسية ، وخصوصًا فى مجال الحوار الداخلى « المونولوج » .

* * *

يتعامل السرد الروائى مع الوقائع والأحداث تعاملًا آنيًا مباشرًا بالمواجهة والتحليل والتفاعل تأثرًا وتأثيرًا .. ولكنه يوظف آليات أخرى على نطاق واسع أهمها : الاسترجاع الفنى (Flash Back) . وهو يعنى الرجوع أثناء التسلسل

---

(١) « الوليمة » (٣٥٩) .

(٢) « الوليمة » الصفحة نفسها .

(٣) « الوليمة » (٣٨٩) .

(٤) « الوليمة » (٥٤٤) .

الزمنى المنطقى للقصة أو المسرحية أو الفيلم إلى ذكر أحداث ماضية لإيضاح الظروف التى أحاطت بموقف من المواقف ، أو للتعليق عليه [١].

وهو يقترب فى المفهوم – إلى درجة الترادف – من مصطلح « الذكريات Reminiscence » ، وهى استحضار صور الأحداث الماضية فى الذهن [٢].

والآلية الثانية هى « اليوميات » Diaries ، وهى بالمفهوم الفنى تمثل سجلًا قد يكون يوميًا للأنشطة الشخصية ومشاعر الكاتب ، وتأملاته فى الحياة .. والأصل فيه ألا يكون للنشر ، ولكن كثيرًا ما ينشر المؤلف يومياته ، وخصوصًا إذا اشتملت على آراء أو وصف أحداث قد تهم الناس [٣].

* * *

وكان مهدى جواد هو صاحب أغلب الاسترجاعات ، وهى – فى أغلبها – لمشاهد من هزيمة الأهوار .. الموت .. الجراح .. الانسحابات الخائبة .. الاعتقالات .. التعذيب .. الهدوء – وكلها ذكريات غائرة العمق فى نفس جواد [٤].

ولا تخلو هذه المسترجعات من وطأة التحميل التاريخى التقريرى .. ولكن بعضها يتدفق بالشاعرية والإيحاء الجمالى الآسر كقوله : « .. عندما يهاجمه الحنين يربد وجهه ، كجدار محترق .. كانت تجربة الأهوار تدوم فى أعماقه كدوامات الأنهار .. لقد نسيها زمنًا ، وأغلق عليها برتاج فولاذى ، ثم قذف بجراحه وصور الرفاق والأخطاء والمرارات إلى أعماق البركان المنطفئ .. لكن ذلك العالم المنسى كان ينقذف فى أوقات الاضطراب كما تنقذف الجزر المغمورة فجأة من أعماق المحيط [٥].

ولم يكن المشهد المسترجع بهذا الإسناد التاريخى دائمًا .. بل تكون النقلة الذهنية إليه سريعة برقية مفاجئة تنزلق فى السياق دون التهيئة الكافية .. فعلى شاطئ بونة نقرأ هذا المشهد :

---

(١) الدكتور مجدى وهبة « معجم مصطلحات الأدب » (١٧٢) .

(٢) انظر : المرجع السابق (٤٧٢) . (٣) المرجع السابق (١١٠) .

(٤) انظر : (الوليمة الصفحات : ٧٣ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٥٧ ، ١٦٩ ، ٥٥٤ ، ٦٣٧ ، ٦٣٩) .

(٥) « الوليمة » (٥٥٤) .

فى انهمار برقى ابتدأت خفقانات غريبة فى صدر آسيا ومهدى .. الخفقة الأولى فصلتهما .. كانت هناك روائح كريهة تفتت الذرات ، وتعكر الهواء .. الخفقة الثانية صهرتهما .. إيماضات سريعة خاطفة كإيماضات هذه الأشعة فوق حقل الماء .

فى الشوارع كانت الجثث ، وعلى ضفاف دجلة .. جثث مثقوبة بالرصاص فى مؤخرة الجمجمة ، ومركز القلب . والأبواب تحطمها أقدام القتلة .. الذعر والحصار ، والقتل المجانى [1] .

فالاسترجاع - فى أغلبه - كان لمشاهد ترتبط بالأيديولوجية الشيوعية والقتال والتضحية من أجلها فى معارك الأهوار ، وما ترتب عليها من نتائج .. وقل استرجاع مشاهد ومواقف خاصة ترتبط بالحياة الأسرية أو الشخصية كاسترجاع مهدى جواد صورة والده الشرس « سعدون جواد » ذلك السكير العربيد الذى كان يعدو على زوجته (أم مهدى) بالضرب المبرح .. لقد كان كارهًا للناس جميعًا بما فيهم امرأته الجاهلة التى قذفها بحقده الشيطانى فأذاقها العلقم لأنها لا تفهمه ، ولا تدرك مدى قدراته اللا محدودة فى الوصول إلى النجوم ، وقيادة الكرة الأرضية ، وإيقافها متى شاء [2] .

ويتذكر مهدى جواد كذلك تجربته مع بنت الجيران فى شبابه أو يفاعته .. تلك التجربة التى قصها على أبيه كحكاية أو جزء من حكاية طويلة خيالية . « وآنذاك نهره أبوه لأنه أفسد الحكاية برؤى رديئة ومنحطة ، لا تليق بقوم أتقياء يخشون الله [3] .

* * *

والرواية مطعّمة على امتدادها السردى « باليوميات » التى اختص بها مهدى جواد دون غيره من شخصيات الرواية ، وقد وصفها واحد من الذين كتبوا عن

---

(١) « الوليمة » (٦٣٧ ، ٦٣٨) . (٢) « الوليمة » (٢١٧) .
(٣) « الوليمة » (٥٧٣) .

الرواية بأنها « تولت ضبط الإيقاع العميق لفضاء الرواية المرتج بتفاصيل اليومى ، وبأصداء التاريخ ، وتحليقات الشعر والأسطورة »[1].

وهو توصيف أقرب إلى الشاعرية منه إلى التحديد النقدى ، كما أنه أقرب إلى التقريظ منه إلى النقد .. والنظر المحايد لهذه اليوميات يقودنا إلى تسجيل الملاحظات الآتية :

١ - قلة هذه اليوميات التى لا تتجاوز مساحتها خمس عشرة صفحة فى تضاعيف الرواية ذات السبعمائة صفحة .

٢ - من الناحية الموضوعية نجدها موزعة منهجيًا على أنواع ثلاثة هى :

(أ) يومية الخاص أو الشخصى الخالص الذى لا يتسع لقضية أو مسألة عامة على المستوى الوطنى أو القومى أو الأيديولوجى ، كاليومية الآتية (وهى أقصر اليوميات على الإطلاق) :

سماء سحيقة بلا نجوم .. أرض مجللة بالعتم أرض الوحل والدم .. آسيا نجم يهدى فى هذه البرهة المفلتة من زوغان وسقوط الشهب .. سأسند رأسى المتعب إلى بازلت هذه الصخرة الناهضة على مداخل البحر بانتظار السفن .. لا شىء مضىء الآن للرجل المخذول سوى هذه النجمة[2].

(ب) يومية الخاص - العام : وفيها ينطلق مهدى جواد بعد الحديث عن موقف أو تجربة خاصة إلى قضية أو قيمة قومية أو إنسانية عامة ، كما تبين السطور الآتية التى نقتطفها من إحدى هذه اليوميات :

« هنا لا أحسن التفكير كما ينبغى .. اختلاط غريب فى الأشياء . يبدو أننى أعيش حالة عوم فوق سطح المدينة ... » .

وبعد استيفاء عرض حالته ، يتحدث عن الحرية « أن تكون حرًا .. ليس هذا كافيًا للسير فوق خط مستقيم .. إن حقوق الآخرين تبدو منكسرة أو منحنية .. والمنفى هو السير على خط آخر للحفاظ على التوازن .. لماذا هذه الغربة اللعينة فى خضاب الدم[3]؟

---

(١) محمد برادة « التاريخ الحديث لهزيمة الحب والثورة » (أخبار الأدب ٢٠٠٠/٥/٧) .

(٢) « الوليمة » (٥٤٧) . (٣) « الوليمة » (٤٣) .

(ج) يومية العام الخالص ، فهى موضوعية خالصة لا تعرج على أية فرعية ذاتية .. وإن كان العام يعتبر خلاصة التجارب والمعاناة الشخصية .. ومثال هذا النوع يومية تطرح مفهوم السعادة ، وتراها فى الخروج من كهف العزلة إلى الأشعة والضوء .. إلى حياة حقيقية تتحقق بين رجل وامرأة يتحدان لمجابهة قسوة العالم ...[1] .

ولعله بذلك قد حسم الأمر الذى طرحه فى سؤال ضمنه يومية سابقة مؤداه : هل باستطاعة الحب أن يتجاوز الحالة ؟ وهل تأسيس حالة حب على نحو صحى ضد عالم النفى اللاعقلانى ينقذ العالم والنفس ؟ ليكن السؤال هكذا : الإنسان أولًا .. أم المجتمع ؟ وهل بالإمكان بناء عالم جديد بإنسان قديم[2] .

٣ - وأسلوب اليوميات مزيج من الشاعرية والصوفية والتحليق .. وفيه تأمل واستبطان ، وقد تجنب ما وقع فيه الحوار والسرد من ألفاظ الجنس الساقطة ، فهو فى مجموعه يجنح نحو السمو والجلال والتكثيف .. وإن لم يخل من بعض التهويل .

٤ - جاءت هذه اليوميات ختامًا لمشاهد ومواقف لا ختامًا لفصول .. والمفروض أن ترتبط كل يومية ارتباطًا عضويًّا بالمشهد السابق لها .. أى يجب أن يكون فيها من المضمون الفكرى ، والبعد النفسى ما يجعلها « أليق » اليوميات بهذا المشهد تحقيقًا للتوافق الفكرى والجمالى فى السرد الروائى .. ولكنها كانت فاقدة « للخصوصية » المميزة ، وهذا النقص ، أو هذا الفقد - يكسبها صفة الصلاحية لتبادل المواقع دون إخلال بالسياقة السردية ، فكرًا أو فنًّا .. وهذه مشكلة حيدر حتى فى الحوار .. وأعتقد أنه كتب هذه اليوميات منفصلة عن بنية الرواية ، ثم أحل كلًّا منها الموضع الذى هى عليه الآن .

* * *

---

(١) انظر : (الوليمة ١٤٥) .   (٢) « الوليمة » (٧٢) .

سادسًا : اللغة ومعجم الهبوط

قوام كل عمل أدبى هو مطابقة قيمه التعبيرية لقيمه الشعورية ، ومناسبة استخدام الأداة لطبيعة العمل الذى تستخدم فيه واتجاهه .. والقصة تهدف إلى تصوير الحياة فى محيطها الطبيعى ، وفى هذا المحيط تختلف الأجواء والحالات الشعورية :. ومن هذه الاعتبارات كلها يخلص لنا أن لغة القصة ينبغى أن تكون لغة نثرية - لا شعرية [١] - إلا فى اللحظات الخاصة التى يفيض فيها الشعور ، ويرتفع ويتوهج ، أو يراد وضع إطار من وصف الطبيعة أو سواها تعيش فى داخله لحظات حالمة مشرقة ، أو كئيبة آسية فى سياق القصة .. وكلما عبر كل شخص فيها بلغته حسب مستواه فيها ووضعه كان ذلك أكمل .. لأنه يساعد على نسياننا للمؤلف ، وشعورنا بأن الحياة تجرى طبعية أمامنا دون أن يعترضها تنسيقه المفتعل [٢] .

وقد تحدثنا من قبل عن لغة الحوار فى الرواية ، وسجلنا ما عليها من مآخذ ، وقد تشترك مع لغة السرد فى الطابع الرومانسى المحلق اعتمادًا على الخيال المركب الذى لا يسلم من الغلو والإسراف .

بيد أن الذى يشد النظر - كما ذكرنا من قبل - إغراق الكاتب فى توظيف عبارات وألفاظ جنسية ولا أخلاقية هابطة ، وكذلك كلمات تسىء إلى الدين والعقيدة . مما يكفى لصنع معجم لغوى مستقل .. وقد تعمدنا عرض محتويات هذا المعجم .. بادئين - حرصًا على رعاية أمانة البحث - بالعبارات التى دافع بها المؤيدون للرواية عن المؤلف وروايته .. وقد تعمدت عرض العبارات والكلمات فى نصوصها حتى لا يخل عزلها بمعناها والمقصود منها .

* * *

---

(١) يقصد الكاتب بالنثرية العربية الفصحى المرسلة ، وبالشعرية اللغة المحلقة المتدفقة بالجمال فكأنها شعر .

(٢) سيد قطب « النقد الأدبى » (٨٢) .

[١]

قطرات عذبة فى بحر الظلمات

قالت آسيا عن المستعمرين الفرنسيين :

« غرسوا فى ذاكرتنا أن المسلمين والعرب كانوا غزاة وفاتحين ، استعمروا أسبانيا وصقلية ، ووصلوا إلى بواتييه .. كانوا يؤكدون لنا أن القرآن مأخوذ عن الإنجيل والتوراة ، واللغة العربية لغة دين وشعر لا لغة علم .. وهذا سبب تخلف العرب فى العلوم والحضارة الحديثة » .

ويرد عليها مهدى جواد بقوله : هذا طبيعى إنهم منطقيون ومنسجمون مع غاياتهم .. الاستعمار فى النهاية ليس العنف فقط .. إنما التزوير والاستلاب والقطيعة مع الأنا الجماعى . (ص ٦٢) .

* * *

ويوصى أبوها المجاهد الجزائرى الشهيد زوجته قبل استشهاده « لا وصية لى عندك غير الدرارى – أولاده – ربيهم تربية تليق بنا كمسلمين .. نحن نقاتل حتى لا يلوث الاستعمار شرفنا ، بيت الإنسان شرفه .. ومن لا يحافظ على بيته لا يحافظ على وطنه . (ص ٦٥)

* * *

ويقول الكومندان طاهر : « انظرى يا فلة إلى هؤلاء الجياع والحفاة والمقملين كيف يقدمون كل شىء .. كل شىء يا فلة : الطعام .. واللباس .. والمأوى .. والحيوانات .. والدم .. هؤلاء البحر ، ونحن السمك .. الآن نحن بينهم كما كان رسولنا محمد ﷺ مع المهاجرين بين الأنصار فى المدينة .. المستقبل لا بد أن يكون لهم بعد تحرير البلاد من طاغوت فرنسا . (ص ٨٤ ، ٨٥) .

* * *

وجاء على لسان إحدى الشخصيات :

« إن ما ينقصنا فى هذا الوقت الرخو والمسيب هو إيمان وبسالة الصحابة الأوائل ، بمثل هؤلاء يقدح الزناد فى الحجر البارد ، وتسطح الشمس من جديد » . (ص ٨٨) .

* * *

عندما هبط ثوار حرب التحرير من الجبال المصبوغة بالدم كانوا يهللون بتكبيرات عصور الفتح الأولى .. فكل مجاهد علق على صدره قرآنًا عربيًّا كان بمثابة الرقية ضد رصاص المستعمر الصليبى : الشيطان الذى أكل الزرع والحليب ، وعناقيد العنب ، والبرتقال ، واغتصب البيوت الجميلة والنساء الجميلات ، والشواطئ الجميلة . (ص ٥٠٣)

ونلاحظ على هذه النصوص ما يأتى :

١ - أننا نقدمها - بعد أن استللناها من مواضعها فى الرواية - على سبيل الحصر .. فليس فى الرواية التى بلغت صفحاتها سبعمائة صفحة نص آخر يدور فى فلكها ، مما يؤكد عدم صحة ما جاء فى تقرير اللجنة الخماسية بأن الرواية فيها « عشرات العبارات والمشاهد التى تحمل روح الاحترام والتقديس للدين »[١] .

كما تؤكد التهويل الذى لجأ إليه التقرير حين قال بالحرف الواحد :

« والقراءة الكاملة للنص الروائى تشهد بورود عشرات العبارات الأخرى التى تعلى من شأن التجربة الدينية التى أدت إلى انتصار ثورة الجزائر ، وتؤكد شعور التقديس المهيمن على بقية الشخوص تجاه القرآن الكريم ، واحترام التربية الإسلامية ، والتنديد بالاستعمار الأجنبى »[٢] .

---

(١) من تقرير اللجنة التى شكلت بالقرار رقم ٥٤ لسنة ٢٠٠٠ الصادر من الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة ، والمشكلة من الدكتور عبد القادر القط والدكتور صلاح فضل وآخرين .

انظر : (ص ١٥ من العدد ٣٥٧ - ٢٠٠٠/٥/١٤ من أخبار الأدب) .

(٢) انظر : المرجع السابق (١٤) . بعد نشر تقرير اللجنة بأسبوع واحد نشر الدكتور صلاح فضل مقالًا باسمه يكاد يكون صورة طبق الأصل من تقرير اللجنة مع تغييرات طفيفة جدًّا ، مما يقطع =

ولم تورد اللجنة فى تقريرها إلا نصين وهما ضمن النصوص الخمسة التى قدمتها قاصدًا ذلك قصدًا حرصًا على عدالة التقييم اعتمادًا على استقراء شامل .

٢ - أن النصـوص التى قدمناها - وتكاد تكون كلها حوارية - تلتقى عـلى فكرة محورية واحدة وهى الاعتزاز بالمرجعية الدينية : مبادئ وقيمًا ورجـالًا .. وذلك فى شكل عام يخلو من التفردية والخصوصية والتنويع .

٣ - سنرى أن هذه المعطيات القولية تفقد مكانها ، وتنطمس أمام فيوض من المقولات والمسرودات الناقضة التى تلطم الذوق والخلق ، وتسىء إساءات بالغة إلى العرب ، وتستهين بالذات الإلهية والقرآن والنبى ﷺ إلى درجة الإلحاد والانسلاخ من الدين الحنيف .

* * *

= بأن كاتب التقرير المنسوب إلى اللجنة الرسمية هو الدكتور صلاح نفسه . ولكن الشىء الغريب - بل المذهل حقًّا - أن يعدل الدكتور صلاح عدد « العشرات » إلى « الآلاف » فكتب فى مقاله « والقراءة الكاملة للنص الروائى تشهد بورود آلاف العبارات الأخرى التى تعلى من شأن التجربة الدينية ... » . فهل نصدق ما كتبه الدكتور فى التقرير . أم ما كتبه فى مقاله (ص ٣٤) من أخبار الأدب : العدد ٣٥٨ - ٢٠٠٠/٥/٢١ ؟

[٢]

كلمات وتراكيب شعوبية

جاء على لسان آسيا لخضر :

« في اليوم الأول يتعرف العربي على امرأة .. وفي اليوم الثاني يرغبها في سريره .. وفي اليوم الثالث تتحول إلى عاهرة في قاموسه الجنسي .. هذا كريه .. ليس كريهًا .. بل مقزز !! (ص ٧٠)

* * *

وعلى لسان مهدى جواد :

« في العراق وسوريا ومصر وسائر بلاد العرب لا يوجد غير النهب والقتل والأكاذيب ، الحكام العرب حلاليف وطغاة ، وأعداء لشعوبهم » . (ص ١٥٣)

* * *

وتقول فلة بوعناب :

« وفى أزمنة غبرت : جاءوا إلى هنا .. فلسطينيون ، ومصريون ، وسوريون ، وعراقيون ، تركوا بصماتهم على خريطة الجسد ، ومضوا » . (ص ٢٠٤)

* * *

وعلى لسانها جاء :

« رشيد الفلسطيني مزق سروالى ، ونام معى أربع مرات فى ليلة واحدة .. مرسى المصرى بعد أن يشرب النبيذ والحشيش كان يتحول إلى منشد شعبى ، وهو أيضًا يضاجعنى حتى الصباح .. ذو النون العراقى كان يبكى بين فخذى وهو يهذى بالشعر ... » . (ص ٢٠٦) .

* * *

راح الاستعمار الرومى .. وها هو الاستعمار العربى ينيك فينا . (٥٠٦) .

* * *

كان المطعم خصوصيًا .. وأنيقًا .. محرمًا على الرعاع العرب . (٥١٢) .

* * *

ماذا هناك على تلك الشواطئ المهجورة والتى لا يرتادها إلا المراهقون والعابثون والمبذرون .. ماء وشمس ورمل وضياع وقت .. هكذا العرب يبددون أوقاتهم فى الأمور التافهة والخامجة . (ص ٥٣٥) .

* * *

العرب ينغلقون كالسلاحف . (٥٤٢) .

* * *

العرب ليسوا شيئًا فى حساب العالم . (٥٤٣) .

* * *

وكانت منار - بنت لا لا فضيلة - تسمى بلاد العرب : حظيرة الخنازير . (ص ٦٢٧) .

* * *

حينما كانت آسيا تحتدم : لماذا يكون الفرنسى من جنس الملائكة ، والعربى من جنس الشياطين ؟ كانت منار - شقيقتها - ترد بثقة : لأن الأمور هكذا فى الواقع .. ألا ترين الجزائريين الحلاليف كيف يفكرون ويعيشون ؟ العرب كلهم خماج رءوسهم بين أفخاذهم . (ص ٦٢٨) .

* * *

... العرب الذين جاءوا الجزائر طلبًا للدراهم والسيارات والنساء .. المصريون

البخلاء الذين يعيشون على الفول يجمعون الدينار فوق الدينار ليشتروا السيارات .. والعراقيون والسوريون الذين يشبهون الجزائريين فى حب النساء والخمر والغضب وتبديد الأموال . (ص ٦٤٣) .

* * *

« ... إنى حريص جدًّا على مداخل ومخارج الشرف العربى » .
نخر مهيار : لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى .
وأتم مهدى : ما لم يراق على طيوزهمُ الدمُ . (ص ٦٥٣) .

* * *

كان جمهور الشارع والمقهى القائم فى الطابق الأول يترقب أمام البناية مفاجأة فضيحة الشرقيين الذين قدموا من أقاصى بلادهم لهتك الأعراض ، وتفريغ الشهوة بدلًا عن تربية الأجيال الصاعدة . (٦٦١) .

* * *

وتجاه هذه النصوص .. وهناك فى الرواية كثير غيرها يدور فى فلكها يعنّ لنا الملاحظات الآتية :

١ - أنها جاءت على ألسنة شخصيات متعددة .. وبعضها جاء فى سياقة السرد الروائى .

٢ - أنها تتميز بروح شعوبية تعصبية فادحة ، حتى لو بررها الناطقون بها بالحرص على مصلحة الوطن : الجزائر . وهم يقصدون بالعرب هنا : المشارقة دون غيرهم .

٣ - قائمة الاتهام فى هذه النصوص تصمهم بالمثالب الآتية :
(أ) النهم الجنسى .
(ب) السكْر والعربدة .
(ج) إهدار الوقت ، والاستهانة بقيمته .

(د) الغباء والانغلاق .

(هـ) النهم المادى الذى يدفعهم إلى النهب والقتل والأكاذيب .

(و) ضياع المكانة العالمية .

* * *

٤ – وهذه النظرة الشعوبية الحمقاء التى انتشرت فى تضاعيف الرواية – حوارًا وسردًا – هذه النظرة للعرب ، وبهذه التعبيرات الساقطة تعد بعثًا وتجديدًا للنظرة الصهيونية للعربى بصفة عامة ، والفلسطينى بصفة خاصة ، والتى تبناها الأدب الصهيوني شعرًا ونثرًا .. فبعد تنفيذ وعد بلفور وظهور الفلسطينى المقاتل من أجل حقوقه المشروعة وصف فى أدبيات الصهاينة بأنه إرهابى .. وجبان .. ومتوحش .. ومثير للرعب ... وأنه لا يقوم بعملياته العدوانية إلا فى الليل . أما النهار فإنه يرتدى فيه لباس المسكنة والضعف . يقول «أحادهعام» : إن المستوطنين الصهاينة يعتقدون أن العرب جميعًا متوحشون ، يعيشون مثل الحيوانات ، ولا يفهمون ما يدور من حولهم »[1] .

ويقول « ج . كوهين » : « إن العربى مجرد مخلوق غريب يرتدى جلبابًا ممزقًا ، وغطاء قذرًا للرأس ، وتلتف زوجته بثوب أبيض ، ويسير أطفاله حفاة .. إنه ليس قذرًا فحسب .. بل هو أيضًا لص وكذوب وكسول وعدوانى !!

ويقول « عاموس عوز » فى قصة « البدو الرحل والثعبان » : « ... إنهم يسرقون ثمار الفاكهة غير الناضجة التى فى البساتين ، ويفتحون الحنفيات ، ويسرقون حظائر الدجاج ، وينتفون ريش الطيور » !!

ويصف « س يزهار » القرى العربية فى قصته « خربة جزعة » : « ... العرب القذرون المتسللون لإحياء نفوسهم القاحلة فى قراهم المهجورة ... أى دخل لنا ولشبابنا وأيامنا الغابرة بقراهم المقملة والمبقة والمقفرة والخانقة .. هذه القرى الخاوية سيأتى اليوم الذى تبدأ فيه الصراخ »[2] .

---

(١) انظر : (الدكتورمحمود حميدة : الشخصية العربية فى القصة العبرية القصيرة المعاصرة ٩٨) . بحث منشور فى مجلة عالم الفكر الكويتية – مجلد ٢٤ – العدد ٣ – يناير ١٩٩٦ .

(٢) انظر : (حميدة : السابق ٩٨ ، ١٢٣) .

ومن حقنا أن نسأل : هذه النصوص التى جاءت على ألسنة « شخصيات خيالية أو مخترعة » أو فى تضاعيف السرد ، ألا تعكس « مذهبية » المبدع الصهيونى ؟

ثم هل تختلف مضامين هذه النصوص عما عرضنا بعض نماذجه من رواية حيدر « وليمة لأعشاب البحر » ؟

أعتقد أن الإجابة واضحة ... واضحة جدًّا .

* * *

[٣]

بلا خلق فى مستنقع الجنس

بغض النظر عن الدين والعقيدة .. وبغض النظر عن الانتماء الوطنى أوالقومى .. وبغض النظر عن الاتفاق الأيديولوجى أو الاختلاف فيه .. يبقى ما يمكن أن نسميه « الحد الأدنى المشترك من الذوق » ، وهو الباعث الذى يحرك « جوانية » الإنسان قبولًا واستساغة أو رفضًا وإباء .. أى يحدد موقفه تجاه ما نسميه « بالقبيح » ، ويكون رفض هذا القبيح مسلمة من المسلمات إذا لم يكن هناك ضرورة فنية تقتضى توظيفه فى سياقة العمل الأدبى ، ويكون هذا العمل فى غَناء عنه .. بل يكون فى صورة أنقى وأبهى إذا رفضه وتخطاه .

والرواية الحيدرية غاصة - أقول : غاصة - بكثير جدًّا من « الإفرازات » التى تنحر الذوق ، وتطعن الخلق ، وتلطم الحياء والآداب والنظام العام ، ويتمثل ذلك فى مواقف ومشاهد وألفاظ وعبارات ، كما نرى فى الأمثلة الآتية :

* * *

- المشهد الطويل الذى يتلخص فى أن جنود الاحتلال الفرنسى داهموا بيت « لا لا فضيلة » بحثًا عن أعلام جبهة التحرير ورجالها ، وضعت الجدة الأعلام تحت عجيزتها ، وأغرقتها بوْلًا .. وتقول « لا لا فضيلة » : « .. أليس هذا أفضل من مصادرتها : إنها تجف فى الريح والشمس إذ يرفعها المجاهدون على الجبل مبلولة ، أو غير مبلولة . (ص ٤٢٠) .

(هل يستسيغ الذوق تصور « الجهاد » تحت راية « مضمخة » ببول العجوز ؟) .

* * *

وعن « فلة بوعناب » - إحدى بطلات الرواية « ... هى الآن تعتنق جسدها المتفتح ، يحاول (مهيار الباهلى) محاورتها حول العضوية ، وانتهاكات الوطن

المجرح ، فتمد لسانها مقتًا ثم تخرج من مؤخرتها ريحًا ذات رنين .. تضحك عاليًا بلا أمبالية ممزوجة بريح كريهة . (ص ٤٦٠) .

* * *

وصرخت فلة : « كلهم تخرجوا من مدرسة العنابية ، ومروا تحت قوس فخذيها » . بهدوء تناولت قلم مهيار الملقى على البساط ، وقالت : عليك إن كنت رجلًا أن ترى وتتماسك ... بدأت فلة بوعناب العارية تمارس بالقلم شهوتها ، وتتأوه . كانت جالسة على البساط ، فارجة ساقيها ، بينما قلم الباهلى يهتز ويحتك بحواف فرجها وبظرها ، وهى تئن وتهذى . (ص ٢٠٧) .

* * *

فلة تأخذ جرعة نبيذ من كأسها : اللبؤة تبحث عن ليثها . نحن الأفريقيات ننتشى بالقوة .. هنا المرأة لا تخون إلا الرجل الذى لا يروى أرضه جيدًا .. ها . ها .

مع ضحكاتها الفاسقة تمد يدا تحت المائدة . وتجس ما بين فخذى مهدى ، يتصاعد الدم .

وإذا تأودت فلة وهدلت شفتيها ، ثم فتحت ساقيها ، تحت المائدة انتعظ اللعين خارقًا قماش الشرف والحضرة المتزنة .. هيا : اهدأ أيها الأرقط الذى لا يستحى . (ص ٥٨) .

* * *

كان هناك فى مكان حساس من الجسد شفرة مرهفة تحز على مهل الجلد واللحم والعظم ، والدم يصعد ، يتنهد ويشهق ، وهو يضغط حديد النافذة ، والريح تواصل دفقاتها على شكل موجات ساحرة وحريرية ، لكنها كالمدية ، وهى تغلغل إلى الأعماق . (٢٣٥) .

* * *

عيناها المتوهجتان بالرغبة بدتا آسيتين ، وهما على حافة استجداء . المنطقة

المنحسرة من أعلى الركبتين حتى المنحدر المغطى تلوح صلبة ولامعة تحت ضوء ما بعد الظهيرة . (١٧٩) .

* * *

عندما استلقت على ظهرها فوق السرير بقيت ساقاها سائبتين على الأرض . حافة ثوبها التى انحسرت توازت مع حافة الحوض . هناك التمع عريها . (ص ١٨٠) .

* * *

قالت آسيا (حبيبة مهدى جواد وتلميذته) : انظر إلى أنوفهم وأصابعهم وذقونهم المهدلة كقضبان عاجزة عن الجنس !! (ص ٥١٩)

* * *

تدخلت فلّة قائلة بأنها تعرف كوميسار الشرطة ، ويمكن أن تشرح له الأمر بكل ملابساته ليحميهما ، وسألها المهدى غامزًا : صديق أصْلى ، أصلى ؟ قولى الحق يا فلة .

ابتسمت : نعم يا أستاذ ، من النوع السريرى . (ص ٥٨٤) .

* * *

آسيا تقرص بأصابع قدميها العاريتين قدمه ، تمد تحت الطاولة كفها اليسرى ، وتضغط على الفخذ . (ص ٦٣٠) .

* * *

وعلى شاطئ بونة : إذ يعبران (مهدى وآسيا) تعلو الهمسات .

– هاشوف أخويا شوف ، لبوة بونية مع ذئب شرقى .

– بالسلامة . عضو الغريب حلو . وحق ربى كيما العسل الجزائرى .

* * *

- خير الجزائر ينهبه الغرباء ...
- عنابية خاينة .. عشها مباح .. أى طائر غريب يضع فيه بيوضه .
- واش . واش . قضيب الجزايرى كما الحديد السخون . (٥٠٦) .

* * *

رأى (المناضل الشيوعى مهيار الباهلى) فرجها يبكى ثم يضحك ثم يغنى ، ثم يصرخ باللذة ، أما هو فبكى شوقًا إلى أرض بعيدة كالنجم . (٢١٨) .

* * *

تقول فلة بوعناب : « نحن عنيدات كالحيوانات ، إنما الوفاء مسألة فيها نظر . قد تقول : الدم ، أما أنا فأقول جرثومة الشهوة التى تنغل وفاء صادق للطبيعة . (ص ٣٢٣) .

* * *

غير أن فلة بوعنّاب تتوهم أنها مسكونة بمواهب أخرى غير موهبة فتح ساقيها .. تقول : هم قتلوا مواهبى الأخرى ، وركزوا على موهبة التأوه والصراخ الجنسى .. أليس هذا هو الاستعمار الحقيقى ؟ . (ص ٢٥١) .

* * *

وهى تجس بأناملها كتلة ثدييها ، تحس ضمورهما .. تعصرهما لينموا فى خطفة وهم ، ثم تمد أصابعها العطرة تحت سروالها وتضغط . (ص ٢٠٢) .

* * *

... فتنزوى بعيدًا عن العالم الكبير فى حى جانبى من أقصى بلاد الشرق الجزائرى ، تصطاد هؤلاء المشارقة الأوباش ، فتربيهم فى قفص بيتها ، ثم تطعمهم من طهر يديها ، ومايدره ثدياها وفرجها من المنّ والسلوى فى أماسى بونة المستوحشة (ص ٢٨٣) .

* * *

وأكرر اعتذارى للقارى إذ عرضت عليه شيئًا من الإفراز الحيدرى المنكود ، وأكرر اعتذارى ، وأنا أقدم - مضطرا - شيئًا من المعجم اللفظى للرواية الحيدرية .

الرواية مسكونة - فى أغلب صفحاتها - بألفاظ البذاء والجنس الساقط ، وكلمات المراحيض ، وأعضاء الإنسان الداخلية بأسمائها السوقية المرفوضة مضافة إلى « الأم » أو « الأب » وغيرهما . وإلى القارئ بعض العينات أقدمها - معتذرًا - على استحياء :

- تشبيه الآخرين بالشامبانزى والخنزير . (ص ١٤) .

- والحلوف : يا حلوف تعال / (ص ١٣) - الحاج محمد ذلك الحلوف (ص ٦٤) - والحلوف ولد الحلوف (ص ٦٥) - يا حلوفة أنت محترفة . (ص ١٤٢)[1] .

- والقحبة : فى عشرات من المواضع منها : ولد القحبة (١٠٤) ، ابن القحبة ، ولد القحبة (١٣٤) - ولد القحبة يزى يزى (ص ١٩٧) من أبناء القحبة والخنازير . (٣٥١) - جحافل ولاد القحبة . (ص ٣٩٢) عقيل أخو القحبة . (ص ٤٠٠)[2] .

- الجهاز التناسلى للمرأة فى مقام الذم والسب غالبًا :

يقول ذلك فتنطلق الشتائم احتجاجًا نحو فروج الأمهات ، والأخوات (ص ١٩٠) - ليعوض حياته داخل فروجهن المقروحة . (ص ٤٧٠) .

- السوأة ، معبرًا عنها باسمها العامى المقزز المكون من حروف (الطاء - الياء - الزاى) ، وذلك فى مجال الذم والسب غالبًا : فليس لهن سوى فتح الفخذين : يا الحلاليف ، (ط ..) أمكم . تفوه (ص ١٢٧) - دعنا من السياسة (ط ..) أم العالم . (ص ٢١٥) . ليس ضروريًا (ط ..) أمهم ، خليهم يولوا . (ص ٥١٥) .. (ط ..) أمهم . (ط ..) أم الحرب . (ص ٥٤٦) - خنزير ، بل هاتك أعراض .. (ط ..) أمك . (ص ٦٠١) .

* * *

---

(١) انظر كذلك الصفحات ١٥٠ ، ٣١٠ ، ٤٢٠ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥١١ ، ٦٦٩ .

(٢) انظر كذلك الصفحات ٥٠٥ ، ٥٣٥ ، ٥٨١ ، ٦٠٠ ، ٦٠٢ ، ٦٤٤ ، ٦٧١ .

- الخراء : أف ، يا للخراء أهو أنت ؟! (ص ٤٦) - زمجر أبو صبرى : عينى حظكم خرا (ص ٣٦٣) - خرا بربك (ص ٤٠٠) - والناس كلهم خرا بخرا فى هذا الزمن . (ص ٤٠١) - خرا بربك . دعك من الانحطاط العضوى (ص ٥٩٢) - كل إنسان حر بروحه . أوه . يا للخراء (ص ٦٤٤) .

* * *

ويسرب كاتب الرواية كثيرًا من الألفاظ الجنسية والمقززة - على سبيل الحقيقة أو المجاز - دونما ضرورة أو مجرد حاجة فنية لذلك ، يستوى فى ذلك السرد والحوار ، وكأنها مقصودة لذاتها ، كما نرى فى أحد المشاهد التى قدمها الكاتب لشخصية خالد أحمد زكى أحد الأعضاء الشيوعيين البارزين : « ... بين تلك الاختلاطات كان يرى نفسه أحيانًا فى صحراء مديدة ، مرة عامرة بالماء ... وهو يسير كمن يخطو فى الهواء مرة حافى القدمين ، ومرة بلا سترة ، تقى العورة ، فيضطر إلى وضع كفيه فوق عانته ... » . (ص ٢٤٨) .

ومن ذلك : « ... التى ستدخل التاريخ من بوابة الإست الضيقة » . (ص ١٧) .

ومنها : اقترحت العنابية أن تصنع القهوة خارقة هذا الاستمناء الجدلى . (ص ٢٨٠) .

ومنها : يضحك مهدى كاسرًا هذا السيلان العجيب للعنابية التى تستمنى بهذه الهرطقات العزيزة على نفسها وجسدها . (ص ٣٢٥) .

ومنها : (فى الحديث عن المدينة والمرأة) : « ... كل منهما أعطت هامشًا ورائحة لكن مهبليهما ظلا محتفظين ببوابة الغشاء العصى على الهتك . (ص ٥٠٢)

* * *

وتجاه هذا الركام من ألفاظ الجنس والسقوط اللاأخلاقى واللاذوقى نسجل الملاحظات الآتية :

١ - أنها لم تكن كلها داخل حدود الحوار الخارجى والداخلى ، ولكن كثيرًا منها كان منسابًا ، ومتسيبًا فى السرد بصورة واعية .

٢ - أن أغلب هذه الألفاظ وظفت فى سياقها « الأدبى ، أو المفروض أن يكون أدبيًا » بهيئة توظيفها فى نطاقها الاجتماعى على امتداد ساحات السوقة والرعاع والدهماء والساقطين .

٣ - استخدام هذه العبارات أوقع الكاتب فى ورطة غير محمودة .. وهى الخلط - فى الحوار بين العامية - التى ترد بها هذه العبارات غالبًا - والفصيحة ، فترتب على ذلك نوع من الخلل ، أو التناقض الفنى من ناحية الأداء التعبيرى .

٤ - ولا يدافع عن الكاتب بأنه فى هذا النهج ملتزم - فى مصداقية - بالواقعية .. لأن الواقعية فى الفن ليست رصدًا للواقع وتسجيلًا له ، وإلا لانتفى عن الإبداع طوابع الفن .. ولكنها تفاعل مع الواقع انتقاء ، وتنقية ، وصهرًا فى منظومة متسقة فكرًا وتصويرًا وتعبيرًا .

٥ - لعلماء النفس ومدارسه كلام طويل فى دلالة الإكثار من استعمال مثل هذه الكلمات ، والقوالب على الأبعاد الجوانية لشخصية المبدع ، وتفسير هذه الظاهرة وتعليلها ، وهل هى « تعويضية » عن عجز ، أو تعبيرية عن تهتك ممتد ، أم عرض من أعراض النرجسية ، وهل ترجع إلى عقدة أو عقد دفينة ... إلخ ؟

ولكننا - مع إيماننا - بكثير من تخريجاتهم - لن نطيل الوقوف مع هذا المبحث ؛ لأن الخلوص منه إلى أحكام سليمة وافية شاملة يقتضينا قراءة كل ما كتب الرجل ، والتعرف الفاحص على سيرورة حياته من ناحية أخرى . وإن كان هذا التعليل لا ينقض ما أثبتناه من أحكام [١] .

ولكن الحقيقة التى تفرض نفسها أننا أمام ذوق من الصعب - بل من المستحيل - أن يتفق مع الحد الأدنى من القيم الإنسانية السوية . « والذوق السيئ ، والاستجابات الفجة ليست مجرد عيوب ثانوية فى الشخصية ، وإنما هى فى الحقيقة شر أصيل تنتج عنه نقائص أخرى فى الشخصية ، ولا يمكن للفرد أن يحيا حياة ممتازة إذا كانت استجاباته الأولية فى حالة خلط وفوضى » [٢] .

* * *

---

(١) انظر الكتاب (١٥٨ - ١٦٠) .

(٢) أ . أ . رتشاردز : مبادئ النقد الأدبى ١٠٧

[٤]

عدوان على اللّه والرسالة والقرآن

١ - مدينة بونة .. كأى مدينة عربية كانت محكومة بالإرهاب والجوع والسمسرة والدين والحقد والجهل والقسوة والقتل . (ص ١٢) .

* * *

٢ - .. نهض .. أمسك رسغها ووخزه .. نحن الآن فى المطهر ، لسنا فى مسجد الله أو كنيسته ، هذه برارينا ، ونحن هنا آلهة هذه البرارى .. تناولت زجاجة بيرة ، وفتحتها . (ص ١٦) .

* * *

٣ - حيث لن يعرف لا الحزب ، ولا الرب متى ستشرق الشمس من جديد . (ص ٣٨) .

* * *

٤ - ... الحاج محمد الملىء كرشه بنور الله وتقواه . (ص ٤٦) .

* * *

٥ - فلة الثرثارة المظللة بالشهوات المقدسة . (ص ٥٨) .

٦ - فى بونة بلد الخير والبركات والعاهرات المقدسات . (ص ١٣٠) .

٧ - فلة بوعناب أيتها المومس المقدسة أيتها النجمة . (ص ٤٧٠) .

* * *

٨ - إنها لمسألة غير تافهة أن تسأل فى عالم اللامنطق ، وانعدام القانون ، فى العالم المحكوم بالطغيان ، وسطوة الآلهة والقتل ، وميراث الأجداد المنقرضين .. عالم النزوة والمزاج والفردية .. كيف تفكر ، وتتحرك .. كيف تتقدم .. بل كيف تتشكل ؟! (ص ٧٢)

* * *

٩ - أنا أرى فى ماركس أولينين محمدًا جديدًا ، محمد القرن العشرين .. « ماركس أولينين العربى هذا ما نحتاجه فى هذا العصر المضطرب » . (ص ٨٧)

* * *

١٠ - لاحت على شاشة رأسه بلاد رازحة تحت عصور الظلمات والرجال والسلاسل ، وجراثيم الله المهيمنة والخصاء . (٩٣) .

١١ - لماذا لا (تفهميهم) بالسلوك أنك لست عبدة لرغباتهم ، وأن حريتك تخرج من قوانينك الداخلية لا من قوانينهم الدينية العمياء .. إنهم يحكموننا بالطقوس البائدة ، طقوس الصحراء والحريم . (٩٥) .

* * *

١٢ - كيف يتساوى جميع الناس ، والله تعالى قال فى كتابه العزيز : « إنا خلقناكم فوق بعض درجات »[1]. (ص ١١٤) .

* * *

١٣ - الوعى العميق بالتاريخ غائب ، وهؤلاء يهمشون التاريخ ويعيدونه مليون عام إلى الوراء .. فى عصر الذرة والفضاء والعقل المتفجر يحكموننا بقوانين آلهة البدو وتعاليم القرآن خراء . (١٢٩)

* * *

---

(١) هكذا كتبها حيدر . وصحة الآية : ﴿ ... وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ... ﴾ .
[سورة الزخرف ، الآية ٣٢]

١٤ - ... إلى الجحيم .. لا أريد كفنًا ، ولا مشيعين ، أريد أن أموت عاريًا تحت الشمس فى غابة أو صحراء ، تأكل جثتى الصقور ، ووحوش البر .. هذا أفضل وأهدأ لنفسى من صلوات الدجالين ، وقبور المسلمين المظلمة . (ص ١٣٧)

* * *

١٥ - إحساس المنفى يتواقت مع انفجار الحب .. وكما يتجلى الجنس إلهًا أفريقيًا مقدسًا .. يشعر الغريب الوافد ، وكأنه طير مهاجر . (ص ١٤٦) .

* * *

١٦ - وفاجأه مهدى هازئًا : عمى الحاج بصلاة محمد على رأسك .. هل أحببت فى حياتك ؟ وقال الحاج محمد : واحدة .. واحدة على سنة الله ورسوله .

- طبعًا تزوجتها ؟

- أكيد .

- ولكن الله قال : انكحوا ما طاب لكم .. ورسولنا المعظم كان مثالنا جميعًا ، ونحن على سنته .. لقد تزوج أكثر من عشرين امرأة بين شرعية ، وخليلة ، ومتعة .. وكان صلوات الله عليه وسلامه يقول : « تناسلوا فإنى مفاخر بكم الأمم » .

استبد الغضب بالحاج محمد : الرسول تزوج حسب الشريعة . أما أنتم فتريدون شيوعية .. والله تعالى قال فى كتابه العزيز :

(إذا ابتليتم بالمعاصى فاستتروا) [1].

وصاح مهدى ضاحكًا : يا عمى الحاج : رغبنا الاستتار فإذا بمخابرات ربى تقرع علينا الأبواب الموصدة . (ص ١٤٨)

١٧ - وفى الطرف الآخر داخل القصور والقلاع وبيوتات الحريم ، وثكنات الحرس الإمبراطورى رسمت الخرائط والخطوط السرية لتحركات الجيوش والخلفاء والجنرالات للحفاظ على هيكل ذلك العالم المقدس .. هيكل الوحش الصحراوى

---

(١) ليس هذا من القرآن .

العائم فوق بحار البترول والتعازيم الخرافية للدبن الحنيف . (ص ١٦١) .

* * *

١٨ - كانت الأمور تترنح فى خريطة عقله ، ومجرى دمه على نحو سريالى يشتت كل العقلانية القديمة التى أسسها بدأب منطقى من خلال وهم تغيير العالم بسلطة نور العقل الكاشف لسحر نور الله فى مخلوقات ما وراء الطبيعة . (ص ١٦٦) .

* * *

١٩ - أف . يا للإله الصغير الذى وقع خطأ هنا .. قالت بامتعاض :

أوقفى هذا الهراء ! أنا لست شيئًا ، ولا أريد أن أكون .. إننى ألعن أمى التى ولدتنى على هذه الأرض ، فهمت ، أنت وهم ، والآلهة إلى الجحيم . (ص ١٦٨)

* * *

٢٠ - بعيدًا .. بعيدًا .. تحت السطوة الجسدية وهذا الدمار الجميل للروح ، وهى فى قبضة الشيطان ، وقد تقمص جسد إلهٍ أرضى .. أو امرأة .. أو بحر .. أو غابة : آسيا . (ص ١٧٥) .

* * *

٢١ - رأسه مليء باختلاطات وسخافات .. ربى لا يدركها . (١٧٨)

* * *

٢٢ - الثوريون القدامى .. استراحوا فى محطة فلة بوعناب (مومس) . حتى الشهداء قبل أن يستشهدوا عبروا تحت السارية .. تطهروا فى جنة عدن

الأرضية قبل أن يطيروا إلى جنة السماء . (ص ١٨١) - (وجنة الأرض منزل فلة) .

* * *

٢٣ - جبهة التحرير (الجزائرية) .. مخلوطة عجيبة وغريبة .. حتى ربى لا يستطيع توحيدها . (ص ١٨٢) .

* * *

٢٤ - فى ذلك الوقت العصيب كان الله يتقمص السلطة ، الجنة والجحيم . (ص ١٨٧) .

٢٥ - وهو الخارج من أضلاع الله والطغاة والحروب الأهلية المغدورة ونفسه . (ص ١٩٢) .

* * *

٢٦ - الآلهة والقضاة والخوف الموروث والزمن السلالى ، كانت فى كريات الدم . (ص ١٩٣) .

* * *

٢٧ - أوه .. يا إله السموات والأرض لماذا لا يكون الأمر هكذا إذا كان الله عادلًا وشفوفًا لا يحقد على مخلوقاته . (ص ٢١٤) .

* * *

٢٨ - ومهدى جواد مزعزع .. لا يعرف كيف يتجه .. والزمن ليس ملكه ، وهو الذى استوهم يومًا أنه ملكه لحظة جلس على عرش الله ، وصرخ بالخليقة : كونى معى يومًا .. يومًا واحدًا فقط . (ص ٢١٦) .

* * *

٢٩ - ويضحك .. أنفها الكبير المفلطح يواجهه .. يقرص أنفها : لكن أنفك هذا سيعترض مستقبلنا .

- هو من صنع ربى .
- لا بد أن ربك فنان فاشل إذن . (ص ٢٢٠) .

* * *

٣٠ - تقول : تخيلت الآلهة بلحًا فى زمن القطاف .. وهى تهوى من السماء .. وأنا أتلقاها فى راحتى .

تقول : فى طفولتى كان أبى يتحدث عن الأولياء الذين يصعدون إلى السماء بعد موتهم .. وكيف يستقبلهم الله مرحبًا فى الجنة مهيئًا لكل منهم سريرًا مريحًا ، وخدمًا ، وملائكة وحوريات ليظلوا سعداء .. كنت أتخيل السماء شجرة .. والله هو القمر .. والنجوم والكواكب أولياء وملائكة الله . (ص ٢٣٤) .

* * *

٣١ - علينا أن نبدأ سرًا .. كما ترى نحن فى مدينة بيزنطة ، وربك لا يعرف متى تحسم هذه الأراجيف . (ص ٢٤٤)

* * *

٣٢ - داخل هذه الأهوار التى خلقها الرب فى الأزمنة الموغرة فى القدم ثم نسيها فيما بعد لتراكم مشاغله التى لا تحد فى بلاد العرب وحدها . (ص ٢٥٧)

* * *

٣٣ - ... وهو يصرخ طالبًا الموت لأبيه والعالم والحيتان والآلهة والصور الشمسية .. واتحاد الشعب .. وجميع الطقوس اللازوردية التى قذفت به إلى هذا الجحيم . (ص ٢٦٣)

* * *

٣٤ - كتب مهدى جواد فى اليوميات المهجورة : ... إننى أنغمر فى غياب

الآلهة ، وهذا الدمار البشرى داخل أمواج هذه المرأة التى قذفتها فى وجهى ابتهالات البحر . (ص ٣١٥) .

* * *

٣٥ - ومن الزاوية انطلق تعليق : إن لجسدك عليك حقًّا . صدق الله العظيم[1]. (ص ٣١٩)

٣٦ - فلة بوعناب المرأة التى سقطت سهوًا على شواطئ بونة حيث نسيها الله بعد أن اختار له زاوية ضيقة من زوايا الجحيم قائلًا لها : امكثى هناك ملعونة إلى أبد الآبدين ، فترد بصرخة شيطانية : فى مؤخرتى الحياة الآخرة ، وأنهارك العسلية وينابيع الكوثر .. هذه حياتى الأولى والأخيرة ، وما تبقى خذه .. سامحتك فيه .. أعطه لعبادك الصالحين . (٣٢٢) .

* * *

٣٧ - ... حيث تنفتح أبواب غامضة .. وتهتك أسرار مقدسة حملتها الآلهة والأنبياء ، وختمت عليها القلوب الواجفة . (ص ٣٢٤) .

* * *

٣٨ - الآلهة والبشر والشمس وصرخة الدم كلها كانت تنذر بزوبعة غبار . (ص ٣٢٧) .

* * *

٣٩ - وفى تلك الليلة تحدث عن تحطيم الأوثان التى أقامها الآباء والأجداد .. وضرورة الانفصال عن الدين والله . والأخلاق والتقاليد ، والأزمنة الموحلة ، والجنة والجحيم الخرافيين ، وطاعة أولى الأمر والوالدين ، والزواج المبارك بالشرع ، وسائر الأكاذيب والطقوس التى رسمتها دهور الكذب . (ص ٣٤٨) .

* * *

---

(١) هذا أيضًا ليس من القرآن ، وإنما هو من الافتراء على الله عَزَّ وَجَلَّ .

٤٠ – عقيل : أخو القحبة .. خرا بربك .. تسكت ولّا أمزق أمعاءك .. ملعون الوالدين . (ص ٤٠٠) .

* * *

٤١ – .. نحـــنا غلطنا ، وهاى الوقيعة مصيبة من الشيطان ورب العالمين . (ص ٤٠١) .

٤٢ – .. أبو سعيد موخاين .. لكن الدنيا والناس كلهم خرا بخرا فى هذا الزمن أخو القحبة الخالى من الرجال . (ص ٤٠١)

* * *

٤٣ – .. وفى سياق هذر الصحراء النبوية المتعارف عليه داخل العقل الإهليلجى الذى استوطنته الأساطير والخرافات البدائية ... (ص ٤١٤)

* * *

٤٤ – ثم ترى رجلًا من أتم الناس طولًا ، وأشدهم بياضًا يأخذ المولود ، فيتفل في فمه ، ومعه طاس من ذهب ، ثم لا يلبث أن يشق بطنه ، فيخرج قلبه ليشقه شقًّا مخرجًا منه حصاة فى حجم حبة خردل ، ثم يمسح على بطنه ، وهو يرد قلبه إلى مكانه ، آنها يستيقظ المولود وينطق .. لكن الأم لا تفهم ماذا قال . فيقول الرجل الذى أخرج حبة الخردل من قلبه : أنت خير البشر فطوبى لمن اتبعك ، والويل لمن تخلف عنك ... » . (٤١٩) .

* * *

٤٥ – .. وكما أقام الله مملكته الوهمية فى فراغ السموات ليدخل فى خلود ذاته بذاته ، سيقيم ذلك الجنرال المعتوه مملكته داخل النسيج الأرجوانى للأرض التى طوتها باسمه ، المملكة التى ستزدهر على مدى السنوات الصفراء . (٤٢٥) .

* * *

٤٦ – لم أسمع ولم أر إلا .. خد .. وهات .. إله المال كان يصرخ صراخ وحش جائع فى غابة .. الإله السماوى إلههم الذى يصومون له ، ويركعون من

أجله فى الجوامع ، كان يداس ويجرجر ، كانوا خاشعين أمام الإله الجديد : الدينار ، لم يتغير شيء .. كل الناس كانوا هناك يبيعون ويشترون بانجذاب مغناطيسى . (ص ٤٥١) .

٤٧ - جاء داود حاملًا ثلاث زجاجات وزعها على العصبة المنفردة عن الآخرين .. كما يجس جسد امرأة جس زجاجته : الله .. الله .. يا ولد .. يا داود .. لقد غفرت لك .. انكح كل صبيان بونة ، وأنا شفيعك يوم القيامة .. قال ذلك بغبطة مطلقة . (ص ٤٦٥) .

* * *

٤٨ - وفى الوقت الذى هوم فى رأسه موت طيور الأهوار انفجر شيء آخر ، وتشظى : الله .. والوطن .. والأسرة . (ص ٥٠٨) .

* * *

٤٩ - ... المهم أن نخرج يومًا من حظيرة الحلاليف .. الحرية .. الحرية .. هذا هو ربى . (ص ٥٤٦) .

* * *

٥٠ - انتفض بيقين شبه نبوى .. الطمأنينة .. المستنقع .. الزمان الميت .. ينبغى زلزلة الجذور القديمة التى تعفنت . (ص ٥٥١) .

* * *

٥١ - كنٌّ فى المعبد .. معبد عراء البحر الرحب ، يصلين لإله ينبثق للتو من فجوات الصخر - الجسد ... (ص٥٦٣) .

* * *

٥٢ - مستر لوجيك أو السيد عقل .. حى أبدا كالله .. قاض .. وديان .. يحاسب الحماقات .. وكأنه نبى هبطت به مظلة العزة الإلهية ذات غسق فى هذه السادوم الملعونة . (ص ٥٦٥) .

* * *

٥٣ - ... هو ذا ما يزال يضرب فى مندل الرمل بحثًا عن أشباح أنبيائه .. الأنبياء الأسطوريون القابعون فى تلافيف الدماغ . (ص ٥٦٦) .

* * *

٥٤ - يوتوبيا .. يوتوبيا .. حلم الإشراق فى العقل الصوفى المصاب بلوثة المستقبل الوضاء .. وهو يدخل تحت أمواج تحولاته .. انهدام كلى للعالم القديم .. وبناؤه أرضيًّا على شكل الله السماوى بدءا من بشر جوهرهم جوهر ملائكى .. أما أجسادهم فمن لحم ودم ، يرتقون فوق رغباتهم وصغائرهم العضوية ليكونوا الحالة الجديدة الخارجة من الزمان القديم البالى .. والزمان الراهن الخرع : الزمان الصارخ : لا إله إلا الله .. إلى الزمان الصارخ .. لا إله إلا الإنسان .. فى وقت فسد فيه كل شىء من الدم إلى الهواء المستنشق .. وقت الاستعاذة الطبيعية للحياة الأولى ، والهيولى الأولى ، بعد أن فتت ذراتها عبيد الله بن أبى ضبيعة الكلبى ظل الآلهة الممسوخة فوق الأرض .. فكوَّنها على صورته الحيوانية ماحيًا جوهرها الإلهى الذى يقول للأشياء : كونى فتكون . (ص ٥٦٨) .

* * *

٥٥ - .. الحاكم بأمر الله وأمر السيف .. الحجاج الثقفى المقعى على العرش .. رب السموات والأرضين الذى يقول للشىء كن فيكون . (ص ٥٦٩)

* * *

٥٦ - يقول حسان يحيى : خرا برب السياسة ومشاكلها ، ويهمس داود فى أذن ذو النون :عش امرأة أفضل من كل الثورات . (ص ٥٧٩) .

* * *

٥٧ - يؤكد (مهيار الباهلى) بأنه نجا بجسد فلة : لقد افتدتنى كما افتدى الله إسماعيل بالكبش . (ص ٥٩٢) .

* * *

٥٨ - خرا بربك .. دعك من الانحطاط العضوى . (ص ٥٩٢) .

* * *

٥٩ - .. فلة المساوية لروح الله الجامعة هبطت كالروح القدس ، فجمعت الجسد إلى النفس ، وأعادت تناسق التكوين الأول بعد اختلاله . (ص ٥٩٣) .

* * *

٦٠ - وفى تلك الأيام الأخيرة بدأ مهيار الباهلى رغم يأسه العام ، ودمار أعلام ثوراته ، كأنما اتقد جسده ، وتوهجت روحه الخاصة بنار اسمها (فلة بوعناب) . كانت نارًا شخصية تراءت له بغتة في وقت الضيق كما تلاقت العليقة الملتهبة لموسى فى الوادى المقدس طوى .. خاطبته : أنت فى الوادى المقدس ، فاخلع ثيابك وتقدم .. بغتة خلع أستاره كلها وتعرى ، اندفع فى اللهب ، فاكتشف الله فى جسد فلة بوعناب : العاهرة المقدسة التى وطئها الثوريون ، والمنفيون ، والسفلة والخنازير ، ثم لفظوها لفظ النواة بعد امتصاص الثمرة . (ص ٥٩٤) .

* * *

٦١ - الحلوف البوال .. يظن أنه الرب . (ص ٦٠٤) .

* * *

٦٢ تقول (آسيا) : الأمان لكم أنتم الرجال كالأمان للحنش الأرقط .

ضحك (مهدى جواد) وهو يجمعها إلى جسده : صح والله صح .. خلق الرجل للمبيت فى أكثر من عش .. تلك رغبة ربنا ونبينا محمد أول المرسلين .

كان يناكدها ، وهما على أبواب هبوب الجسد .

- أى عش يفضل وريث الأنبياء ؟

- الدافئ والضيق ، والذى يغطيه بالأعشاب الندية فى أوقات الحمى ، وهبوط الوحى . (ص ٦٠٩) .

* * *

٦٣ - .. ولأنه كان ملحدًا ومجوفًا كان يتصور أن الله يتقمص المرأة ، ويغويه ليدخله فى جسدها ، ثم يختطف روحه ليعاقبه فى عرش مملكته .. وهكذا كن يرتدين أثوابًا حريرية شفافة تشبه أثواب الملائكة فى الصور والتزيينات ، يغرقنه بالروائح ، وملاسة الحرير ، وانصقال الجسد ، والتأوهات الحارة .. ولكنه كان يرتعد فى لحظة ولوجهن ، وهو تحت السطوة البرقية للجسدين اللذين سيباغتهما الله .. وهما مشتبكان . (ص ٦١٣)

* * *

٦٤ - وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك قائلًا :

« لا تدخلوا المنازل إن لم يؤذن لكم » . (ص ٦٦٢)[1].

* * *

٦٥ - .. لأول مرة يستحمان معًا بعريهما الكلى : هى ترى تفاصيل جسده ، وهو يرى ... ويمدان الأعضاء المحرمة : القضيب .. وشعر العانة .. المثلث ، والمؤخرة ... ولعلها وهى تتجلى تحت البصر الآن فاقدة قداستها وحرمتها الدينية أكثر جمالًا وطفولة وتناسقًا وتطهيرًا للنفس . (ص ٦٨٦) .

٦٦ - .. وهى تسأل : ماذا علينا أن نفعل إذن ؟ وفاجأها : ننهض إلى الرقص .

بحركة مسرحية نهض إلى المسجلة فوضع شريطًا راقصًا .

وبحركة أخرى عاد ليتناولها من خصرها : هيا .. هيا .. إلى الجحيم كل شراميط الله ..

نحن معًا .. وهذا هو الحقيقى . (ص ٦٨١) .

* * *

---

(١) هنا تحريف واضح يدل على جهل كاتب الرواية بالمعطيات الإسلامية ، وما ذكره ليس حديثًا نبويًا ، وإن كان المعنى متضمنًا فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [سورة النور ، الآيتان ٢٧ ، ٢٨] .

وتجاه هذه النصوص التى استخرجناها من الرواية نسجل الملاحظات الآتية :

١ - أنها فى مجموعها - بصرف النظر مؤقتًا عن كونها وردت فى السرد أو حوارًا عل ألسنة الشخصيات - تبين عن طبيعة عدوانية على ذات الله ورسوله وأنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - ، والقيم الدينية ، والتعامل مع معطياته ورموزه باستهزاء ، وسخرية ، واستهانة واحتقار ، ووقاحة .

٢ - أنها وإن التقت جميعًا فى هذه الطبيعة العدوانية - تختلف فى درجة السقوط ، وحظها من التصريح أو التلميح : فبعضها - بالنظر إليه فى ذاته - ينطق بالكفر البواح : كوصف القرآن بأنه خراء (نص ١٣) ، ووصف الله بعدم الإدراك (نص ٢١) والفشل (نص ٢٩) ، وتراكم المشاكل عليه (نص ٣٢) . والنص الذى تكرر كثيرًا : خرا بربك .. وكذلك إضافة الشراميط إلى الله (نص ٦٦) .

ومن هذه النصوص ما يزرى برسول الله ﷺ ، ويعرض به ، ويسخر من واقعة شق الصدر ، ومن سنته ﷺ فى الزواج (نص ١٦ ، ٤٤) .

ومنها ما يسخر من المساجد ، ويضعها فى سياق يسىء إليها .. ويصف الفجور بالطهر ، والدعارة بالمقدسة ، ويجعل من الزنى سبيل نقاء وتطهير .

ومنها ما ينكر الغيبيات أو يسخر منها كالآخرة والجنة والنار (نص ٣٦) . ويسخر من أولياء الله الصالحين ، وما أعده الله لهم من نعيم (نص ٣٠) .

ومنها ما يستهين بالألوهية بإضافة أسماء أو صفات سيئة لله ، والإعراض عن الوحدانية بالحديث فى مواضع كثيرة عن « الآلهة » (نصوص : ٢ ، ١٠ ، ١٣ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨) .

وكثير منها يحل الحرام كالتعرى والزنى ، واللواط ، وشرب الخمر (نص : ٢ ، ٣٦ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٦٥) .

٣ - وبعض هذه النصوص يقطع بفقر الكاتب فى الثقافة الدينية بعامة ، والقرآن والحديث بصفة خاصة . ومن مظاهر ذلك الخطأ فى نصوص الآيات والسُّنة ، وعرض بعض الحكم على أنها آيات قرآنية (نصوص : ١٢ ، ١٦ ، ٤٤ ، ٦٤) .

ولا يستساغ الدفاع عن الكاتب بأنه قصد إلى ذلك قصدًا ليؤكد خروج هذه الشخصيات على الطوابع الدينية .. ومثل هذا الدفاع مرفوض لأنه لا دليل عليه ،

كما أن استعمال الأساليب الغالطة - وخصوصًا إذا كانت نصوصًا مقدسة - لا يعترف بها أحد كآلية فنية فى رسم الشخصيات ، أو إضاءة المواقف ، أو إدانة واقع معين ، وإلا لجاز مثلاً أن نستسيغ حوارًا ساقطًا لغويًا ونحويًا فى سياق الرواية إذا كان جاريًا على لسان مدرس لغة عربية هابط المستوى ، سطحى الثقافة . ثم إن الأسلوب - بصرف النظر عن مضمونه الفكرى - منسوب إلى كاتب الرواية يستوى فى ذلك السرد والحوار بكل أنواعه .

٤ - والنصوص التى عرضناها مستلة من سياقها بحذر شديد ودقة بحيث تحتفظ بعد اقتطاعها بمعناها ودلالاتها . والاعتراض الذى يردده بعضهم - فى سياق الدفاع عن الرواية - بأن هذه العبارات أخذت من سياقها على طريقة « ويل للمصلين » اعتراض ساقط لأن النص المقتطع محتفظ بمضمونه كما هو ، وكما كان فى السياق . كما أن هذه هى طبيعة « الشواهد » فى البحوث العلمية .. وإلا لنقلنا الرواية مرة أخرى إلى الورق .. ثم إنهم ينهجون النهج نفسه فى اقتطاع نصوص وعرضها للتدليل على « إسلامية » الرواية (!!) ، فهل المنهج الواحد حلال لهم ، وعلينا حرام ؟!!

٥ - وبعد كل الذى قدمناه من النصوص الحيدرية المستلة بأمانة من روايته - سردها وحوارها - وكلها يمثل صدمة عدوانية للعرب .. والذوق .. والخلق .. والدين .. نذكر القارئ بحقيقة لا يختلف عليها اثنان وهى أن اللغة مرآة الواقع ، وفى غناها يكمن غنى الواقع .. وهى تجسد فى فيض مفرداتها ما يفيض به هذا الواقع .. ومن هذا المنطلق يلاحظ الدارسون أن اللغة فى القطب المتجمد الشمالى ، وفى لغة قبائل الإسكيمو تحديدًا غنية بمفردات الثلج .. فهناك مئات من الكلمات التى تصف الثلج وذراته وحباته وصفًا دقيقًا بالغ الأهمية والإثارة ، ولا يوجد لمثل هذا الغنى فى المفردات التى تصف الثلج وتجلياته مثيل فى اللغات الأخرى ، ولا يوجد لأغلب هذه الكلمات مقابل فى اللغات الأخرى .. ويعبر هذا الغنى فى نهاية المطاف عن الغنى فى واقع الحياة الثلجية فى منطقة القطب الثلجى ، ويماثل هذا فى اللغة العربية وصف الصحراء والسيف فى الماضى[1] .

---

(١) الدكتور على وطفة : « المظاهر الاغترابية فى الشخصية العربية » - دراسة بمجلة عالم الفكر الكويتية (٢٤١ - ٢٨٠) - م ٢٧ - العدد ٢ - أكتوبر / ديسمبر ١٩٩٨ .

وأمام هذه الحقيقة قد لا نتعدى منطقة الصواب إذا زعمنا أن كاتب الرواية - وقد أرهقها بهذا السيل اللاذوقى واللاأخلاقى واللادينى من هذه الألفاظ والتراكيب - كان مندفعًا - بالوعى أو اللاوعى - أمام ضغط « معجم لغوى خاص » ، وهذا الإفراز اللغوى المنكود المرفوض يفتح المجال - فى سماحة - إلى دراسة شخصية حيدر بكل أبعادها ،، وإخضاعها لمدارس علم النفس الحديثة .

٦ - وأخيرًا .. أشهد أن بعض اليساريين المعروفين « بالحدة اليسارية » مثل الأستاذ إبراهيم عيسى (الصحفى) - وله كتب وقصص تعرضت - ومازالت تتعرض لنقد مرّ وهجوم شديد - رفض بشدة هذا « الإبداع الحيدرى » الساقط ، ومافيه من بذاء واهتراء ، وكتب مقالًا قويًّا جدًّا بعنوان « ما كتبه حيدر حيدر لا علاقة له بحرية الإبداع » ، ومما جاء فيه :

« ... هل من حق أحد أن يصف القرآن بالخراء ؟! أجب .. انطق .. قل الحق وما تراه يرضى ضميرك .. لن تجد إلا إجابة واحدة .. لا .. ليس من حق أحد ... بل أرى من الواجب على المثقفين أمام رواية حيدر ، وما جاء فيها من وصف حقير للقرآن الكريم حتى لو على لسان كلب فى الرواية .. وليس على لسان أحد أبطالها .. من الواجب علينا الاعتذار .. وليس الاستكبار ... »[1].

ومن الذين الذين دافعوا عن الرواية بحرارة ، وهاجم من عارضوها من أخذ عليها الانحراف اللغوى ، وصدم المشاعر العامة ، مثل الأستاذ أحمد سلامة الذى أخذ على المؤلف أنه لم يتقن حرفية الأديب التى يمكن أن تجنبه زلل الاصطدام بالمشاعر الدينية والأخلاقية السائدة فى مجتمعه . وهناك أساليب راقية فى الآداب العالمية ، عولجت فيها أصعب المواقف والشخصيات دون جموح أو تجاوز أو ابتذال . وكان حريًّا بالمؤلف أن يراعى ذلك ويحترمه[2].

---

(١) أخبار الأدب - العدد ٣٥٧ - ٢٠٠٠/٥/١٤

(٢) أحمد سلامة من مقال له بعنوان : « وليمة لإهدار العقل » (ص ٨٢) من مجلة « وجهات نظر » - العدد ١٧ - السنة الثانية - يونية ٢٠٠٠

القسم الثانى

الرواية بين التحدى والتصدى

[١]

تقرير اللجنة ...
ذلك العزف المنفرد

بقرار من الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة تشكلت لجنة لإعداد تقرير عن رواية « وليمة لأعشاب البحر » للكاتب السورى حيدرحيدر ، ورئيس اللجنة أو مقررها هو الدكتور عبد القادر القط ، وأعضاؤها هم الدكتور صلاح فضل ، والدكتور كامل زهيرى ، والدكتور مصطفى مندور ، والدكتور عماد أبو غازى .

ومع احترامى لأعضاء اللجنة ، لا يستطيع أحد أن ينكر أنهم من « مدرسة » واحدة ، أو على الأقل ذوو توجهات متقاربة جدًّا كأنهم يعزفون على وتر مفرد .. فلا تعددية فى التقييم والتوجه والتوجيه .. فالمقام الأول « للتماثل » لا « التكامل » ، يقطع بهذا أن التقرير يسير من أوله إلى آخره وليس فيه مأخذ واحد يسجله على الرواية .. وهذا من أعجب العجب .. لأن هذا يعنى - لا أنها مبرأة من العيوب فحسب - بل أنها تقف على قمة الأعمال الروائية العربية .. مع أن الذين عايشوها وتعمقوها ، وقدموا فيها دراسات وافية سجلوا عليها مآخذ تعيبها .. ومن هؤلاء - كما ذكرنا من قبل - الدكتور على الراعى .. ومحمود أمين العالم [1] .

وإعطاء الرواية هذه المكانة الراقية فى تقرير رسمى انتظره الجميع يعد ترديدًا مفصلًا لوجهة النظر الحكومية المتمثلة في وزارة الثقافة، وفى وزيرها فاروق حسنى ، وكنا نتمنى أن نرى فى اللجنة رجالًا مشهودًا لهم بالعلم الموسوعى ، والخلق الرفيع ، والاعتدال والوقار من أمثال أستاذنا الدكتور مصطفى الشكعة ، وشيخ النقاد الدكتور شوقى ضيف .

---

(١) وانظر ما أخذه الدكتور فؤاد زكريا على تقرير اللجنة فى مقاله « حقائق غائبة فى قضية الوليمة » (ص ٥٦) من مجلة المصور - العدد ٣٩٤٥ - ٢٠٠٠/٥/١٩

وقبل أن أقدم وجهة نظرى فى تقرير اللجنة أقرر أن الآلاف الذين تظاهروا ضد الرواية وضد من نشروها فى جامعة الأزهر لم يقرءوا الرواية .. وهذا لا يعيبهم .. ومن المستحيل أن نطلب منهم أن يقرءوا رواية من سبعمائة صفحة فى أيام يستعدون فيها للامتحانات .. وهم اعتمدوا فى ثورتهم على ما قرءوه من عدد كبير من صفحاتها – مصورة – فى صحيفة الشعب .. وهى نصوص مأخوذة من أحشاء الرواية دون اجتزاء واقتطاع يخل بالمعنى .. فهى « نماذج » كاملة ، من صفحات متباعدة تدل على طبيعة الرواية ، ومضمونها الفكرى لرواية لا تكاد صفحة من صفحاتها تخلو من لطمة للذوق ، أو الخلق ، أو الدين .. وأذكّر الأساتذة الكبار أننا – فى تدريسنا الجامعى – نعتمد على « نماذج نصية » مختارة من الإبداع للحكم على أدب المبدع .. بل طبيعة العصر .. فلا تظلموا طلاب الأزهر ، فما قاموا به حق طبيعى من حقوق التعبير ، ولم يكن « زوبعة فى فنجان » كما وصفه واحد من التنويريين جدًّا .. بل إنه حقق كسبين كبيرين :

الأول : أنه أثبت أن الوعى الشعبى – وخصوصًا عند الشباب – لم يمت ، وأن العاطفة الدينية ما زالت طاقة قوية لها وجودها وتأثيرها وقدرتها على التوجيه .

الثانى : أنه كبت الاندفاع المتطرف المستهين بالقيم والمشاعر فى وزارة الثقافة ، وجعل المسئولين فى هذه الوزارة يلتقطون أنفاسهم ، ويراجعون أنفسهم وخططهم ، ويعملون اعتبارًا للآخر .. ورأى الآخر .. وأصبح هو نفسه اتجاه الهيئة المصرية العامة للكتاب .. وقد صرح مسئول بالهيئة العامة لقصور الثقافة بأن كل الكتب التى كانت على قائمة الطبع فى الهيئة وسلاسلها المختلفة قد تم إرجاؤها وتأجيلها لحين النظر فيها مرة أخرى ، وتم استبدالها بكتب كانت مؤجلة من قبل [1] .

* * *

وفى وقفتنا مع تقرير اللجنة نقدم وجهة نظرنا فى السطور الآتية :

١ – يذكر التقرير أن وظيفة الرواية هى نقد الحياة ، وتعميق الوعى الجمالى بها ، وهذا يقتضى :

---

(١) انظر التفصيل : (ص ٧٦ ، ٧٧) من روز اليوسف – العدد ٣٧٥٥ – ٢٠٠٠/٥/٢٧

(أ) المحافظة على حرية التخيل من ناحية .

(ب) قوة التعبير الفنى وصدقه من ناحية أخرى .

وهى أمور لا نخالف التقرير فيها .. ولكن التفسير يقتضينا القول بأن تكون الحرية - بالنسبة للعناصر الروائية كلها - حرية منضبطة ، منزهة عن الفوضوية ، والسفول .. فلا يتورط الروائى مثلًا فى خيال مريض يثير التقزز والغثيان .. كتصوير حيدر لفلة بوعناب وهى تخرج من مؤخرتها ريحًا ذات رنين(1) ، أو هى تمارس بالقلم شهوتها أى العادة السرية (الاستمناء) وهى تئن وتهذى وهى عارية تمامًا أمام مهيار الباهلى(2) . وذلك للتدليل على استهتارها ، وشهوانيتها العاتية .

فمثل هذا الخيال المريض لا علاقة له بالأدب الروائى ووظيفة « نقد الحياة ، وتعميق الوعى الجمالى بها » .

أما الأداء التعبيرى فى رواية حيدر ، وعلاقته بالشخصيات فى الحوار الذى جرى على ألسنتها ، وعلاقته « بالواقعية » وحظه من المصداقية فقد عرضناه بالتفصيل فى القسم الأول من هذا الكتاب .

٢ - ومجمل التقرير يدعو بل يلزم - حتى يصح الحكم على الرواية - أن تقرأ قراءة من نوع خاص يمكن أن نسميها قراءة أدبية ، لا قراءة دينية .. أى بعيدًا عن الدين وأحكامه .. فهذه القراءة الأدبية هى التى تقود إلى النتائج السديدة بعيدًا عن الانحياز والخطأ وهذه المقولة هى عين الخطأ للأسباب الآتية :

(أ) القراءة لا تقسم على هذا الأساس .. لأن ذلك يتعارض مع طبيعة الأشياء .. وإلا لكنا أمام عدد لا يحصى من القراءات : (قراءة دينية ، وأخرى أدبية .. وثالثة علمية .. ورابعة اجتماعية .. وخامسة تاريخية .. وسادسة تراثية .. وسابعة أيديولوجية ... إلخ) وكل أولئك أو بعضه من مضامين مختلفة يدرك بالقراءة ، ويستخلص من النص تبعًا لطبيعة البحث الذى يقوم به القارئ .

(ب) وعلى فرض وجود هذين النوعين : أدبية ودينية فإن اتهام التنويريين للقراءة الدينية بالقصور والتشدد وضيق الأفق لآحاديتها يمكن أن يوجه « للقراءة

---

(١) « الوليمة » (٤٦٠) . (٢) « الوليمة » (٢٠٧) .

الأدبية » لأنها أيضًا قراءة آحادية .. وخاضعة لمذهبية نقدية معينة فى الغالب .. وإذا اتهمت « الدينية » بالتعصب والجمود فبالمقابل يمكن اتهام « الأدبية » بالتفريط فى معطيات الدين والقيم والأخلاق .

(ج) والقراءة المثالية التى تقود إلى الحكم الصحيح على المقروء هى « القراءة الشمولية المستوعبة » . وهى تلك التى دعا إليها كثير من النقاد المشهورين ، ومنهم « رتشارد » فى كتابه القيِّم « مبادئ النقد الأدبى » فقد ذهب إلى إن كل الأنواع الأدبية تحتاج فى قراءتها الصحيحة إلى إدخال جميع القيم العامة التى ليست هوى شخصيًا من القارئ نفسه .. يجب أن يقبل عليها القارئ بكل فكره وحسه ووعيه الفنى والخلقى والثقافى والدينى ، وألا يجعل شيئًا يحول بينه وبينها ، وألا يتعمد إغلاق جزء من نفسه وتكوينه عند قراءتها .. أما إذا حاول أن يتجاهل جميع الاعتبارات ما عدا تلك العناصر الجمالية المزعومة فإنه ينتهى إلى برج عاجى ينعزل فيه عن حقيقة الحياة »[1] .

وعلى سبيل الاستطراد أذكّر الذين يهاجمون « المداخل الدينية » ، ويصفونها بالتزمت بأن الناقد الكبير ت.س. اليوت فى كتابه « نحو تعريف الثقافة » انتهى إلى أن المسيحية هى الأساس الموحد ، والقوة الموجهة للثقافة الإنجليزية خاصة .. والأوروبية بوجه عام .. بل يقدم - فى هذا الكتاب قاعدة عامة لتحديد مفهوم كل ثقافة ، هذه القاعدة هى الدين[2] .

وفى بحثه القيم عن الرواية يذكرنا الدكتور سليم العوا بطبيعة الأمة المصرية فيرى أن الذين يذهبون إلى أنه لا يجوز الحكم على العمل الأدبى إلا من المنظور الأدبى فقط ، وأننا لا يجوز أن « نديِّن » النظر فى العمل الأدبى ينسون أن الأمة المصرية أمة متدينة ، لا يقبل مسلموها ولا أقباطها فصل دينهم عن حياتهم ، ولا يردون موردًا يتنافى وروده مع نواهى الدين ، أو يتضاد مع أوامره .. وحكم « الحلال والحرام » فى كل ثقافة فى الدنيا هو حكم دينى ، وليس حكمًا أدبيًا أو فنيًا .. فإذا أخرجنا الدين - كما يريدون - من معايير الحكم على الفن والإبداع والأدب فقدنا مرجعية هذا الحكم أصلًا ، وأبحنا لمن شاء أن يقذف فى حياتنا

(١) « مبادئ النقد الأدبى » (ص ١٠٧) .

(٢) انظر محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس : « فى الثقافة المصرية » (٢٥) .

الثقافية بما شاء ، وصارت هذه الحياة - الثقافية - فوضى لا ضابط لها ، يختلط الحابل فيها بالنابل ، والغث بالسمين ، وكفى بذلك فتنة وفسادًا [1].

* * *

ولأمانة البحث واستيفائه نذكر فى هذا المقام أن من كبار النقاد القدامى من فصل فى نقده بين الدين والشعر ، ولم يتخذ من الدين معيارًا لتقييم الشعر .. ومن هؤلاء القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى الذى يقول عن المتنبى : « والعجب ممن ينقص أبا الطيب ، ويغض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة ، وفساد المذهب فى الديانة ... فلو كان فساد الاعتقاد سببًا لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين ، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات .. ولكن الأمرين متباينان ، والدين بمعزل عن الشعر » [2].

وينقل أبو هلال العسكرى عن أحد الفلاسفة أنه قيل له : « فلان يكذب فى شعره ، فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام ، والصدق يراد من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام » [3].

ومن قدامى النقاد من يرى أن الصلة قوية بين الدين والخلق وبين الشعر ، ومن هؤلاء الأصمعى ، فقد أبدى استحسانه لشعر الحطيئة ، ولكنه يقول بعد ذلك : «أفسد مثل هذا الشعر الحسن بهجاء الناس ، وكثرة الطمع » [4].

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : « ما أحد أحب إلى شعرًا من لبيد بن ربيعة لذكره الله عَزَّ وَجَلَّ ولإسلامه ، ولذكره الدين والخير ... » [5].

وعن شعر أبى نواس يقول : « لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الإرفاث لاحتججنا بشعره ، لأنه كان يحكم القول ، ولا يخلطه » [6].

---

(١) « أعشاب وطحالب فى حياتنا الثقافية » (٢٤ - ٢٧) دراسة للدكتور محمد سليم العوا فى مجلة : وجهات نظر - العدد ١٧ السنة الثانية - يونية ٢٠٠٠

(٢) « الوساطة بين المتنبى وخصومه » (٦٣ ، ٦٤) .

(٣) « كتاب الصناعتين » (١٥٥) .

(٤) « الأغانى » (٥٨٨/٢) .

(٥) المرزبانى : الموشح (١٠٠) .

(٦) ديوان أبى نواس : المقدمة .

والنصوص التى تمثل النهجين النقديين المتناقضين ، واستقراؤها يضع أيدينا على الحقائق الآتية :

(أ) أن أحكامها كلها لم تتعد دائرة الشعر إلى غيره من الأجناس الأخرى كالرسالة والخطبة التى هى من إملاء الوعى .

(ب) أن الذين رفضوا المعيار الدينى فى نقد الشعر كان نصب عيونهم نماذج عالية من الشعر العربى فى نسجها وخيالها ، وأدائها التعبيرى ، فعز عليهم أن يُرفَضَ هذا الإبداع بسبب مخالفة محتواها للدين والخلق ، وكأنهم أرادوا أن يقولوا : إن هذا الشعر له - من حساب النقط - ما يشفع له فى خروجه على بعض مقتضيات الدين والخلق والأعراف .

ومن ثم نرى أن الدفاع عن رواية حيدر وما فيها من سقوطات لا دينية ولا أخلاقية بمقولة أن من القدماء من عزل الدين فى مجال التقييم الفنى .. نرى أن هذا الدفاع غير موفق للأسباب الآتية :

(أ) أن هذا الرأى لا يلزمنا ، وخصوصًا أنه يمثل خروجًا على الأصل فى أمة مسلمة رسم القرآن فيها صورة الشعراء كما يجب أن تكون ، فهم مبرءون من الغواية والنفاق والكذب ، وهم من : ﴿ ... **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ** ... ﴾[1] .

والرواية من عمل العقل الواعى ، وعليه أن يزن الأمور بميزانها الصحيح .

(ب) أن رواية حيدر ليس فيها من عظمة الفن بناء وتصويرًا وتعبيرًا ما يعوضها عن عبارات السقوط اللادينى واللاخلاقى . ورأينا أن ما فيها من هذا اللون نصوص تعد على أصابع اليد الواحدة أمام نصوص بالمئات تناقض العروبة .. والذوق .. والخلق .. والدين .. وقد عرضناها فى ختام القسم الأول من الكتاب .

* * *

---

(١) سورة الشعراء ، الآية (٢٢٧) .

٣ - جاء فى التقرير بالحرف الواحد :

« ومن هنا فإن ما نسب إلى الرواية من بعض العبارات التى يبدو فى الظاهر أنها يمكن أن تمس شعور القارئ غير المدرب لما يظن أنه مساس بالدين ، أو طعن فى القرآن الكريم ، أو تعريض بحياة الرسول ﷺ فهو من قبيل سوء فهم الفن الروائى ، وتحريف عباراته ، وانتزاعها من سياقها ، وتجاهل ما يرد فى النص ذاته من رد عليها من شخصيات مخالفة والمشاهد المشار إليها على وجه التحديد هى ... » .

وبصرف النظر عما فى العبارة من التواء فإنها تتهم من يظن ، أو يعتقد أن بالرواية عبارات تمس الدين وتطعن فى القرآن الكريم وشخصية الرسول ﷺ .. تتهم من يظن أو يعتقد ذلك :

- بأنه قارئ غير مدرب !!

- وأنه سيىء الفهم للفن الروائى !!

- وأنه حَرَّفَ العبارات وانتزعها من سياقها !!

- وأنه تجاهل ما فى الرواية من رد عليها من شخصيات مخالفة !!

وظاهر ما فى العبارة من شعور بالاستعلاء والفوقية نرفضه تمامًا .. ولكن دعك من هذا .. ودعنا نسأل : هل الذين اعتقدوا وصرحوا وجزموا أن الرواية غاصة بعبارات تخدش الحياء والخلق ، وتصدم قيم الدين ومبادئه ومن هؤلاء الدكتور مصطفى الشكعة ، والدكتور عبد الغفار مكاوى ، والدكتور محمد عبد المطلب ، والدكتور يوسف نوفل ، والدكتور محمد سليم العوا ، والدكتور محمد عمارة ... هل هؤلاء قراء غير مدربين ؟ وهل هؤلاء سيئو الفهم للفن الروائى ، ومنهم من يدرس هذا الفن لأبنائنا فى الجامعات ؟!!

ومسألة انتزاع النصوص من السياق نكتة أخرى !! هل كانت اللجنة تريد - فى مقام إدانة الرواية بتقديم نماذج نصية منها - هل كانت اللجنة تريد - حتى تتحقق « الأمانة » بمفهومها أن ينقل الناقد الرواية كلها ؟ إن المهم هو أن يكون « النموذج » وافيًا بالغرض ، وأن يكون اقتطاعه من الرواية غير مخل بمضمونه .. ثم إن اللجنة فعلت ما نهت الآخرين عنه ، فقدَّمت شواهد مقتطعة من الرواية كما

فعلنا نحن .. ولكننا لم نلجأ إلى التزوير الذى لجأ إليه حيدر .. وقد عرضنا ذلك فى ردنا عليه .. إذ أسقط جزءا من أحشاء نص دافع به عن نفسه ، ووقع كثير من التنويريين جدًّا فى الفخ ، فنقلوا النص المزور من الصحف ، ولم ينقلوه كاملًا من الرواية .

* * *

ثم أين الردود يا لجنة ؟!! لقد عرضت ما اعتبروه ردًّا فى مسألة (الخراء والنقطة وعلامة التعجب) ، وبينت أنه لا يصلح أن يكون ردًّا ، وقد قَدَّمْتُ فى ختام القسم الأول من هذا الكتاب فى أكثر من عشرين صفحة « معجم السقوط الحيدرى) ، ولو دلنى أحد على ما يسمى ردودًا لحذفت هذه الصفحات من الكتاب .

ثم ما قول اللجنة فى عبارات السقوط اللاخلقى واللادينى الواردة فى السرد - لا فى الحوار - هل هناك من رد عليها ؟

ثم إنى مساير اللجنة فى أن هناك « ردودًا » على عبارات السقوط هذه - وأنها وردت فى الرواية بالعشرات - وأسأل : ألا يضعف ذلك من حبكة الرواية ، وينال من فنيتها ، لأنها تكون حينئذ أقرب إلى « فن المناظرات » منها إلى « فن الروايات » ؟!! علمًا بأن اللجنة تتهم من يعارض الرواية بأنهم **« سيئو الفهم للفن الروائى »** !!

* * *

وللأسف أرى فى التقرير « تزويرًا فى التعداد » كنت أجلّ أعضاء اللجنة الموقرة عن الوقوع فيه .. فقد ذكرتُ أن المشاهد التى يحتمل أن يظن القارئ غير المتمرس أن فيها إساءة إلى الخلق والدين ثلاثة .. أقول : ثلاثة على سبيل الحصر .. وفى تعسف واضح ، وافتعال غير مقنع حاول التقرير الدفاع عما فيها من عدوان على الدين والخلق .. وقد عرضنا عشرات - لا ثلاثة - من هذه المواقف والعبارات العدوانية ، كما عرضنا المواقف والعبارات التى تساير الدين وتمجده وهى لا تتعدى خمساً ، جعلنا عنوانها « قطرات عذبة فى بحر الظلمات » وهو عنوان يدل دلالة

قوية على طبيعة هذه المشاهد ، ومكان هذه العبارات بالنسبة للعبارات المناقضة فى السياقة الروائية .

وحتى يدرك القارئ ما فى التقرير من تحيز وتعسف وافتعال أنقل منه - فى مقام دفاعه عن المآثم الحيدرية السطور الآتية بالحرف الواحد :

« أما المشهد الثالث فهو غزلى عابث يدور بين مهدى جواد - المدرس الشيوعى - وتلميذته التى تتحول إلى عاشقة .. ويمضى هكذا : تجذبه آسيا من شعره ، فيلتقى بصراهما .

- أنت لى .. هاه .. عليك أن تفهم ذلك منذ الليلة .. ويضحك .. أنفها الكبير المفلطح يواجهه .. يقرص أنفها .

- لكن أنفك هذا سيعترض مستقبلنا .

- هو من صنع ربى .. لماذا تسخر منه ؟!

- لا بد أن ربك فنان فاشل إذن .

ونلاحظ على هذا المشهد ثلاثة أمور :

أولها : أنه يأتى على سبيل الدعابة وروح الفكاهة فى لحظة غزلية بعيدة عن الجد .. ومن شأن الأدب فى هذه المواقف أن يتظرف بعبارات غير لائقة تأتى على لسان الشخصيات الملائمة لها .

ثانيها : أن الفتاة تحاول التخلص من عيبها الخلقى فى فلطحة الأنف بنسبته إلى ربها على الطريقة الجزائرية فى العامية الدارجة .. وهو يلتقط منها الخيط ليدين تصورها لربها لا ربه هو .. ولا الذات الإلهية .

ثالثها : أن موقف القراء من مثل هذه العبارات يتوقف على مدى شعورهم بالحرج والتحفظ ، أو الاكتفاء بإدانة الشخصية المتخيلة من سوء تعبير » .

قرأت هذا فشعرت كأنه كلام كتب لغير عرب يتكلمون العربية ، ويعرفون أدبها ، وكدت أشك فى معلوماتى الأدبية بعد أكثر من نصف قرن فى معايشة الأدب درسًا وتدريسًا .. تعلمًا وتعليمًا .. فالتقرير يصدر حكمًا حاسمًا لم أسمع به من قبل ، وما قرأت مثله ، ولا ما يقاربه فى المعنى من قبل « .. من شأن الأدب فى

هذه المواقف (مواقف الغزل أن يتظرف بعبارات غير لائقة تأتى على لسان الشخصيات ...) .

أى أدب تعنى اللجنة ؟ ومن أين أتى هذا التعميم ؟ ولماذا غير لائقة !؟

وهل كلام الفتاة آسيا بلخضر محاولة « تخلص » من عيبها الخِلقى ؟ كيف يكون هذا التخلص من عيب خِلقى ثابت ؟ أليس الأدق أن يقال : « تدافع » عن عيبها الخِلقى ؟ وهل نسبة هذا العيب إلى الرب طريقة جزائرية فى العامية الجزائرية ؟!

وهنا ثلاث غلطات يا لجنة :

الغلطة الأولى : أن نسبة العيب إلى الرب لا يمثل خصوصية جزائرية .. بل يكاد يكون نهجًا عامًّا فى كل شعوبنا ، ونحن فى مصر نقول فى مثل هذه الحال : « **داخلقة ربنا** » .

والغلطة الثانية : أن كلام آسيا لم يكن بالعامية الجزائرية كما ذكرت اللجنة .. ولكن كان بالعربية الفصيحة .

والغلطة الثالثة : فى وصف العامية بأنها « دارجة » ، لأن العامية عامية .. والفصيحة توصف بأنها « دارجة » إذا كانت سهلة واضحة مباشرة كلغة الصحافة .

ووقعت اللجنة - بحسن نية - دون أن تقصد طبعًا - فى التثليث : ربها - ربه - الذات الإلهية .. والكلمات الثلاث - مع تعدد ضمائر الإضافة - لا تعنى إلا واحدًا فقط هو « الخالق » ، وأعتقد أن اللجنة لا تخالف فى هذا .. ولا خطأ ولا ضير ولا جور على « فنية » الحوار إذا استبدلنا كلمة « الخالق » بكلمة « الرب » ، ويكون الحوار بالصورة الآتية :

- لكن أنفك هذا سيعترض مستقبلنا .
- هو من صنع خالقى .. لماذا تسخر منه ؟
- لا بد أن خالقك فنان فاشل إذن .

وتأتى مسألة « الخيط » هذه لتزيد الطين بلة ، إنه فى رده عليها لا يدين تصورها لربها (خالقها) ولكن الإدانة - بمنطوق الكلام - منصرفة إلى ربها ..

فالمسألة ليست تصورًا .. ولكنه واقع .. ولو أراد إدانة تصورها لجاء كلامه بالصورة الآتية :

- إن تصورك هذا يعنى أن ربك فنان فاشل إذن .

وحتى لو فعل ذلك لظلت العبارة تدل على سوء أدب ، وعدوان على عقيدة الأمة .

ولماذا لا تحلو الدعابة وروح الفكاهة فى أوقات الغزل وغيرها إلا بالتلاعب باسم الله وصفاته ، ومعطيات الدين ، ووقائع الحياة النبوية !؟ .. إن هذا النهج يذكرنى بمسلك المنافقين ومنطقهم فى التبرير .. كانوا يغتابون النبى ﷺ وأصحابه يقولون :

« يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها .. هيهات له ذلك » .

ويقولون عن النبى ﷺ وصحبه :

« ما رأينا مثل هؤلاء أرغب بطونًا ، ولا أكذب ألسنًا ، ولا أجبن عند اللقاء » .

فإذا ما عاتبهم الرسول ﷺ ، وواجههم بما قالوا ، أجابوا :

إنما كنا نخوض ونلعب .. أى ما قلنا ذلك إلا على سبيل الهزل والتفكه .. وليس على سبيل الجد !!

وقد أدانهم الله سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١) .

وثمة ظاهرة فى هذا التقرير ، وفى المقالات التى كتبها التنويريون جدًّا ، وفى الأحاديث التى يصرخون بها ، وهى اللواذ بمقولة « الخيالية » .. إنهم يرفعون ورقتهم ، ويصرخون فى الوجوه : إنها شخصيات خيالية .. أنحاسب شخصيات خيالية مخترعة ، على كلام خيالى مخترع يجرى على ألسنتها ؟ وقد رددنا على هذه المقولة فى صفحات سابقة أكثر من مرة .

ومما قلناه : إن المسئولية الأولى تبقى معصوبة برأس كاتب الرواية .. لأنه

---

(١) سورة التوبة ، الآية (٦٥) . وانظر للواحدى : « أسباب النزول » (٢٠٥) ، وللسيوطى : « لباب النقول فى أسباب النزول » (١١٥) .

يتصرف بوعى كامل ، ويختار شخصياته ، ويجرى على ألسنها ما يشاء من كلمات .. لا ما تشاؤه هى .. وفى أساليب العربية ما كان يمكنه من أداء أفكاره ومعانيه دون السقوط فى مستنقع العفن الغوغائى ، ولغة الدعارة والشواذ .. وكل ذلك دون الإساءة إلى البناء الفنى للرواية .. بل يحقق للرواية قيمة فنية كبرى دراميًا .. وتصويرًا وتعبيرًا .

ولكن حيدر كان حريصًا على « إثبات وجوده » و« تحقيق ذاته » بما لم يأت غيره بمثله من قبل .. فهو يتحدث عن نفسه - فى استعلاء - على أنه أجرأ من اقترب ، وعالج المحرمات الثلاثة : الدين والسياسة والجنس .. ويقول : إن الاقتراب للكتابة فى هذه المسائل يحتاج إلى جرأة لا تتوافر فى أى أديب آخر غيره [(١)] .

وبدعوى « الخيالية » يمكن أن تنقض عرى الدين عروة عروة فيأتى كاتب روائى آخر ويتبنى آراء المستشرقين والمبشرين فى القرآن والرسول ﷺ وقواعد الإسلام فى الأسرة والحياة الاجتماعية . ويعرضها على دفعات فى أعمال روائية محبوكة ، والحوار يدور على ألسنة شخصيات خيالية مخترعة ، ولا مانع أن يجعل بعض المشاهد على هيئة « أحلام » .. فإذا ما اعْترِضَ على مضمون الرواية كان الجواب جاهزًا « إنها شخصيات خيالية لا وجود لها فى الواقع .. فهل الخيال يحاسب عليه ؟! وهل الأحلام تقع تحت طائلة العقاب ؟!

فإذا ما علا صوت المعارضين أو « الظلاميين » ، شهر « التنويريون جدًا » الورقة الثانية ، وصرخوا .. هذا فن .. فن ، ودعواكم دعوى دين .. ولا دخل للدين بالفن .. ويقفز إلى ذهنى واقعة المرأة الصهيونية المجرمة فى إسرائيل التى رسمت صورة « خنزير » وكتبت عليها اسم رسولنا الكريم ﷺ .. وهاج العرب والمسلمون فألقت السلطات الإسرائيلية القبض عليها ، فكان دفاعها عن نفسها يعتمد على أن هذا فن .. مجرد فن .. رسم .. عبرت به عن نفسى . وهو دفاع لا يختلف فى جوهره عن الدفاعات الحيدرية ... دفاعاته عن نفسه ، ودفاعات التنويريين جدًا عنه !!

---

(١) من حديث لحيدر نشر فى أخبار الأدب - العدد ٣٦٦ ص ٩ .

وما المانع – باسم الفن المحصّن ضد تدخل الدينى – أن يكون امتحان الرسم فى السنة النهائية بالمرحلة الإعدادية : بالصيغة الآتية :

تعمل حكومتنا الرشيدة لمصلحة الأمة ونفعها وتقدمها ، مع اختلاف الوزراء فى الطباع والصفات :

تَخَيَّرْ ثلاثة حيوانات نافعة ، وارسمها ، واكتب على كل منها اسم الوزير الذى تراه مناسبًا فى طباعه وصفاته للمرسوم ؟!!

وما المانع أن يكون موضوع الرسم « الصحابة » أو « الأنبياء » بدلًا من الوزراء .. وقيل للمعترضين هذا فن تشكيلى رفيع فلا تعترضوا .. وهكذا ... وبالتدريج .. تُنْقض عُرى الدين ، وتنهار القيم والمقدسات ، ويصدق علينا قول الشاعر :

لقد هزلتْ حتى بَدَا من هُزالها ∴ كُلاها ، وحتى سامها كلّ مفْلِس

* * *

وثمة ثلاث مسائل أختم بها حديثى عن هذا التقرير الذى لا يزيد – من وجهة نظرى – على كونه « ورقة تبرير » .. تبرير لكل سقوطات الرواية الحيدرية :

الأولى : مشهد الحوار بين الشيخ محمد ومهدى جواد ، وما فى تبريره وتفسيره من التواء وافتعال شديد لا يخطئه النظر : فحينما يقول مهدى جواد : ورسولنا المعظم كان مثالنا جميعًا ، ونحن على سنته .. لقد تزوج أكثر من عشرين امرأة بين شرعية وخليلة ومتعة .

يقول التقرير: تذرع المدرس (مهدى) بفعل الرسول– عليه الصلاة والسلام – لا يقصد به الطعن عليه فى هذا الموقف (!!) بل يحاول أن يستند إلى حجة دينية فى خطابه للحاج الذى يظهر التدين .. ولا يمكن عند القراءة الأدبية للنص فى جملته أن نستشعر رغبة المساس بشخصية الرسول ﷺ فهى تَرِد بوصف « المعظم » وإن كانت تبالغ فى عدد نسائه (!!)

الافتعال واضح ... واضح :

١ – فاللجنة دخلت فى النوايا والقصود (لا يقصد به الطعن عليه) .

٢ - وفى عبارة طويلة ملتوية تتشبث اللجنة بما يسمى « بالقراءة الأدبية » وتدعو إليها كأنها تصنع المعجزات . وهذه القراءة الأدبية تلبى طلبات اللجنة فقط : فوصف مهدى للرسول (بالمعظم) يعد تقديسًا وتقديرًا له فى نظرها .. أما قوله : إنه تزوج عشرين امرأة بين شرعية وخليلة ومتعة ، فليس فيه رغبة المساس بشخصية الرسول (!!)

فلماذا لا يفسر كلامه كله (بالقراءة الأدبية أيضًا) على أنه مساس بشخصية الرسول ﷺ ، وأن وصف (المعظم) جاء على سبيل السخرية ؟!!

٣ - وصفت اللجنة قول مهدى عن النبى ﷺ بأنه « تزوج أكثر من عشرين امرأة بين شرعية وخليلة ومتعة » بأنه مجرد مبالغة من مهدى فى العدد (!!) ، وكيف غفلت اللجنة عن اتهام الرسول ﷺ بأنه اتخذ « خليلات » وأنه تزوج زواج متعة ؟؟!! أما حديث اللجنة عن « المفارقة » فحظه من الهشاشة يدفعنا إلى إغفال مناقشته !!! .

والمسألة الثانية : أن التقرير فى مجال تبرئة حيدر من أقوال شخصياته يقول :

« .. على أنه من المعروف أن من يروى الكفر ليس بكافر .. » .

ولكن هذه القاعدة ليس على إطلاقها .. فحتى تصح - ويجوز إعمالها لا بد من توافر الشروط الآتية :

١ - حسن النية فى « راوى الكفر » ، فلا يقصد بعمله هذا الإساءة إلى الدين ، وغمز رموزه .

٢ - ألا تروى عبارات الكفر والإلحاد إلا مصحوبة بالأدلة والبراهين التى تفندها ، وتبطلها ، ولا تمكنها من غرس الشك فى نفوس المؤمنين ، أو صد الآخرين عن الإيمان .

٣ - وحتى مع تحقق الشرطين السابقين يستحسن ألا تثار وتعالج هذه المسائل أمام من كان رقيق الدين ، أو من كان يعبد الله على حرف ، إلا فى حالة الضرورة .

وإيراد أقوال الكفرة والملاحدة دون أن يكون معها ما يفندها من أدلة وبراهين يسىء إلى العقيدة ، ويزرع الشك فى النفوس ، ويعمل على تدمير القيم والأخلاق .

وقد رأينا من قبل - وليرجع القارئ إلى الرواية ، وما أثبته من معجم

السقوط - أن ما جاء على ألسنة الشخصيات من سقوطات لم يكن متبوعًا بأية ردود أو نواقض .. ومن ثَمَّ لا تصدق على هذه الحالات قاعدة « راوى الكفر ليس بكافر » ، ويبقى استشهاد اللجنة بها فى غير محله .

* * *

أما المسألة الثالثة - وهى الأخيرة - : فهى من توابع التقرير ، وإن كانت أصولها فى التقرير راقدة .. وأعنى بها ما صرح به الدكتور عبد القادر القط مقرر اللجنة بعد نشر تقريرها بأسابيع متحدثًا عن الحوار فى رواية حيدر .. والجديد هذه المرة أنه وظَّف « البيئة المصرية » فى تبرير الحوار الحيدرى[1] .

يسأله الصحفى : حين يضع الروائى جملة على لسان شخصية فى حوار .. هل هذا الحور تعبير بالضرورة عن شخصية الروائى نفسه ؟

ويجيب الدكتور القط :

الحوار أداة مهمة فى يد الروائى يستعين بها على التركيز والانتقاء ، ويستغنى به عن كثير من الأوصاف والتفصيل فى طبيعة الشخصية وانتمائها الطبقى أو الفكرى أو اللغوى .. وإذا كان قراء الرواية قليلين نسبيًا ، فسسوف أستشهد الآن بأعمال ذات طابع قصصى .. وإن كانت مختلفة عن الرواية .. ولكنها ذات صلة جماهيرية يمكن أن يدرك المتلقى طبيعتها .. فحين نسمع شخصًا يقول للآخر : « اطلع من نافوخى » ندرك - دون حاجة إلى التصريح - طبيعة انتمائه الطبقى أو اللغوى أو الأخلاقى . وحين نسمع رجلًا يخاطب زوجته من خلال تلك العبارات قائلًا : « يا ولية أنت مخك طاقق ؟! » ندرك طبيعة الرجل وطبيعة علاقته بزوجته .. وهكذا الحال فى الرواية .

وهناك حوار يكون بين المثقفين أو بين من ينتسبون إلى قطاع خاص من المجتمع يبدو قريبًا مما يمكن أن يصوغه المؤلف بنفسه .. حوار مثقفين أو متعلمين وأفراد نشئوا على قيم أخلاقية متميزة .. ونحن نسمع فى الشارع

---

(١) حوار أجراه معه الصحفى حلمى النمنم (٥٢ - ٥٤) من مجلة « المصور » - العدد ٣٩٤٦ - ٢٠٠٠/٥/٢٦

المصرى ، وفى المدن العربية الأخرى ألفاظًا لا نلقى إليها بالًا .. مع أن فيها ما يبدو خروجًا على القيم الدينية أحيانًا ، أو المعايير الأخلاقية والسلوك الطبيعى أحيانًا .. نحن نستمع إلى ما يمكن أن يعتبر سبًا للأم ، وجرحًا للشعور الدينى فى عبارات مألوفة لدينا لا أريد أن أقتبسها هنا ، يمكن أن يستخدمها الراوى ، وإذا التقطها من الشارع فإنه لا يقصد نقلها نقلًا واقعيًا ، ولكن لاتخاذها مفاتيح للشخصية .

ومن ملاحظاتى للشارعين المصرى والعربى تبدو بعض هذه العبارات الجارحة ، وكأنها نوع من التبسط أو الفكاهة أو إظهار الصداقة الحميمة .. وبعض الشباب يحيون بعضهم بمثل هذه العبارات الجارحة ، ولا يجدون حرجًا حيث لا يقصدون دلالتها الحقيقية ، وهكذا يفعل الروائى ، فينقل حوارًا مختلف الطبيعة والمستوى حسب الشخصيات والمواقف .

- يسأله الصحفى : أين يقع الحوار فى رواية حيدرحيدر « وليمة لأعشاب البحر » من هذا التفسير .

- أجاب الدكتور القط :

فى الرواية شىء من استخدام هذه الوسيلة الفنية المشروعة التى لا تؤخذ دلالتها أخذًا مباشرًا .. وإذا كان الشارع نفسه يتجاوز عن دلالتها المباشرة ، ويتغاضى عما فيها .. فما بالنا بالروائى الذى يريد أن ينقل صورة فنية للحياة .. ولا شك أن من يقرأ بعض ما ورد فى حوار الرواية دون أن يفطن إلى هذه القيمة الفنية للحوار يجد فيه ما قد يجرح شعوره الخلقى والدينى بمعزل عن الموقف ، وطبيعة الشخصية .

* * *

لقد تعمدت أن أنقل للقارئ كل ما قاله الدكتور القط فى هذه المسألة بالذات .. وله بنفس المجلة كلام كثير فى مسائل أخرى ، والذى يقرأ هذا الكلام يعتقد - لأول وهلة - أننا فى مقام هزل لا جد .. ولكنه يدرك بعد ذلك أن ما قاله الدكتور القط - فى هذه المسألة بالذات - إنما هو امتداد « لمنطق التبرير » الذى تبناه التقرير ، تبرير كل شذوذات الرواية وسقوطاتها فى حماسة منقطعة النظير ، حتى أن اللجنة - كما ذكرت - لم تبرز فى تقريرها مأخذًا واحدًا على الرواية ، وكأنها قمة الإبداع الروائى فى عصرنا هذا .

أما أهم الملاحظات التى نسجلها على كلام الدكتور القط فتتخلص فيما يأتى :

١ - كعادة اللجنة - وهو جزء من منطق التبرير - يردد الدكتور القط الحديث عن القصود والنوايا (يقصد - لا يقصد - يقصدون - لا يقصدون) وهى خفايا لا يعلمها إلا الله .. ومن عجب أن يحسم القول فيها مع أن « المنطوق » يرفض هـذا الحكم .

٢ - المثالان اللذان استشهد بهما الدكتور القط حمَّلهما أكثر من طاقاتهما .. فهما مستعملان فى أكثر من طبقة اجتماعية .. ولست أدرى كيف تدل عبارة « اطلع من نافوخى » على طبيعة الانتماء الأخلاقى لقائلها !!!

٣ - يتحدث الدكتور القط عن الشارع المصرى والشوارع العربية حديث من يقصد شوارع فى الخيال ، أو كأنه يتحدث إلى « خواجات » لا مصريين ، ولا عرب .. فهل الرجل فى الشارع المصرى لا يلقى بالًا لعبارات يفهم منها سبًّا لأمه أو دينه ؟ وكيف فات سيادته أن المصرى تثور ثائرته إذا نودى منسوبًا إلى أمه (يا ابن فلانة) ، أو لمجرد ذكر اسم أمه .. أما شعوره بتجريح دينه فلا سكوت ، ولا سماح .. بل التعارك الذى قد تسيل فيه الدماء !!

٤ - وهل صحيح أن عندنا - فى مصر والبلاد العربية - شبابًا يحيون بعضهم بعبارات جارحة للدين والأم ولا يجدون حرجًا فى ذلك ؟! أعتقد أن مثل هؤلاء الشباب لا وجود لهم إلا فى الخيال .. وإن وجدوا فهم من الشواذ الذين لا يؤخـذ منهم ، ولا يقاس عليهم .

٥ - وتأسيسًا على وجود هذه الظاهرة « فى خيال الدكتور القط » يكون من حق كاتب الرواية استخدام هـذه الوسيلة التى وصفها الدكتور القط بأنها « فنية مشروعة » !!

وقد رأينا أن « الأساس » لا وجود له .. ومن ثَمَّ يكون إنكار ما أقيم عليه أمرًا طبعيًّا بدهيًّا لا حرج فيه !!

* * *

كان هذا هو دفاع اللجنة .. بل قتالها المستميت .. بالمشروع وغير المشروع - عن الرواية الحيدرية - وفيه كانوا « حيدريين » أكثر من حيدر نفسه .. ومصداقية هذا الحكم قد تتكشف لنا إذا ما قرأنا دفاع حيدر عن نفسه فى الصفحات التالية :

[٢]

ويدافع حيدر عن نفسه

الدفاع عن النفس حق مشروع للإنسان مهما كان خطؤه أو خطيئته .. ومن حقه كذلك أن يختار الأسلوب الذى يراه مناسبًا لهذا الدفاع .. ما لم يكن فى ذلك عدوان على حق .. أو دين أو عقل .. أو عرض !!

وقد حدث ما هو معروف من التصدى لرواية حيدر بالمظاهرات والمقالات والمؤتمرات .. وكل أولئك قنوات شرعية فى نظرى . وكان من الطبيعى أن يدافع حيدرحيدر عن نفسه وعمله فى بيانات أصدرها ابتداء ونشرتها الصحف .. وكذلك فى محاورات أجرتها معه الصحف هاتفيًا ، أو عن طريق كُتَّاب وصحفيين قصدوه فى بلده ، وأجروا معه لقاءات وحوارات .

وقد دار دفاعه أو دفاعاته عن نفسه على عدة محاور أهمها : الحديث عن شخصيته وسلامة عقيدته ، والحديث عن روايته وموضوعها ، وما فيها من طوابع إيمانية ، وشرح أو تبرير ما فيها من عبارات قد يُفْهمُ منها الترويج للجنس ، والإساءة إلى الدين .. والحديث عن الحملة الموجهة إليه ، وتقييمه لها والدوافع التى تحركها على التفصيل الآتى :

١ - يعلن حيدر أنه مؤمن بالله وأنه سليم العقيدة ، ويقول بالحرف الواحد :

« يقطع لسانى قبل أن أهاجم القرآن أو أتعرض للإسلام ، والذين كفرونى يضرون بالإسلام .. بينما أنا أنصره وأنصفه »(١) .

٢ - ويرى أن :

« النص المقدس » عمومًا حمال أوجه ، والاجتهاد منذ زمن المعتزلة هو الأساس فى بنية الإسلام ... والقرآن الكريم نص مفتوح للجميع ، ويحق لأى

---

(١) من حوار له مع وائل الأبراشى (٢٠ ، ٢١) من مجلة روز اليوسف - العدد ٣٧٥٣ - ٢٠٠٠/٥/١٣

مسلم أن يجتهد من خلال فهمه وإدراكه بعمق لحقيقة الإسلام [1]. ويؤكد أنه مسلم .. ولكن إسلامه ليس كإسلام الآخرين ، وتفسيره للإسلام ليس كتفسيرهم ، ويحق له أن يجتهد ، والقرآن هو أحد أهم مصادر ثقافته الأساسية .. وعندما يجتهد فى النص فهذا لا يعنى أن يكون اجتهاده مطابقًا لاجتهادهم [2].

٣ - ويرى أن :

روايته تعبر عن الواقع العربى المأزوم ، والمطوق بكثير من القوى التى تعيق تقدم هذا المجتمع ، وتحاول أن تصادر ما يمكن تسميته الرأى الآخر [3] وهو قد عايش عمق التصدع فى التجربتين العراقية والجزائرية بعد هزيمة يونيو / حزيران ١٩٦٧ .. وقدم ذلك عن طريق ما تحكيه شخصيات الرواية عن تجربتها النضالية انتهاء إلى المصير المؤلم بعد هزيمة يونيو .. وهى نفس أوجاعه كمثقف عربى بسبب الهزيمة [4].

٤ - ويرى حيدر حيدر أنه :

ليس فى الرواية صفحة واحدة تسىء إلى الإسلام ، بل بالعكس إنها تمجد الإسلام ، وفيها مشاهد للمجاهدين الجزائريين وهم ينزلون من فوق الجبال وقد وضع كل منهم القرآن الكريم على صدره [5].

٥ - كما يرى أن :

الهجوم على الرواية أشعله الأصوليون من أجل الحصول على مكاسب صغيرة فى الانتخابات التشريعية فى مصر خلال نوفمبر القادم .. لقد حرضوا الطلاب والطالبات الذين لم يقرءوا الرواية ، وربما أيضًا لم يسمعوا بها أو بصاحبها فى حياتهم [6].

---

(١) من حديث له فى لقاء مع محمد عبد العال : صحيفة الأيام الجديدة - العدد ١٩ - ٢٠٠٠/٦/٤ ، وهو يصف الإسلام كذلك - لا النص فقط - بأنه حمّال أوجه . ص ٥٥ من المصور ٣٩٤٦ - ٢٠٠٠/٥/٢٦

(٢) الأيام الجديدة السابق .　　　(٣) المرجع السابق .

(٤) السياسى المصرى - العدد ١٢٩٢ - ٢٠٠٠/٦/٤ من حوار مع الأمير أباظة .

(٥) أخبار الأدب - العدد ٣٥٦ - ٢٠٠٠/٥/٧ (من حديث هاتفى) .

(٦) السياسى المصرى السابق .

ويواصل حيدر حيدر حديثه فيقول :

ولكن المخطط كبير وخطير .. القضية ليست « وليمة لأعشاب البحر » وحيدر حيدر .. ولكنها أكبر من ذلك .. هم يستهدفون كل المثقفين التنويريين والعقلانيين لتخلو لهم الساحة من خلال التأويل والاحتماء بالنصوص .. وهدفهم استلام الشارع ، والسعى لاستلام السلطة كما حدث فى الجزائر .. هى ليست أكثر من شرارة تمهد لمخططاتهم .. القضية ليست حيدر حيدر .. وأنا لست أفضل من الذين نفوا أو حوكموا أو قتلوا بسبب آرائهم وأفكارهم .. ولنا أسوة بالمعتزلة أول من أرسوا باب الاجتهاد فى الإسلام .. نحن ورثة المعتزلة ، ورثة الغيلان الدمشقى أهم مفكرى المعتزلة ، والذى صلب وهو يدافع عن أفكاره ، وعن الحرية والاجتهاد والعقلانية [١] .

ويكاد يصف حيدر حيدر الذين عارضوه بالعمالة والخيانة .. فهم من وجهة نظره - كما يقول : « لا يتحركون من تلقاء أنفسهم ، بل إنك قد تندهش إذا قلت لك : إن العدو الصهيونى الإسرائيلى قد يكون أحد المستفيدين من حملات هؤلاء ضد المفكرين والفنانين والأدباء الذين يريدون للأمة العربية أن تنهض [٢] .

٦ - ويقول حيدر :

الرواية ليست خطابًا فكريًّا حتى أحاسب عليه .. ليست أيديولوجيا نعرضها فى حلقة نقاش سياسى .. والشخصيات فى الرواية تتكلم باسمها ، ولا تعبر عن رأى المؤلف .. تأمل فى الواقع سوف تجد الملحد ، والمؤمن ، والوجودى ، والعدمى والعبثى .. والشخصيات التى نسبت إليها هذه الإساءات ليست نموذجية .. فكيف أتحمل أنا آراءها وأفكارها ؟

٧ - وعن كلمة « خراء » التى جاءت بعد عبارة طويلة تنتهى بكلمة القرآن يقول حيدر :

هذا دليل على سوء نيتهم ، وتعسف منهجهم .. إن كلمة خراء قبلها نقطة ، وبعدها علامة تعجب .. ثم إن هناك من يرد عليها بعد ذلك ، أى أنها لا تصف عبارة « تعاليم القرآن » حيث تفصلهما نقطة أنهت الفقرة بالكامل .. وكلمة

---

(١) روز اليوسف : السابق . وانظر كذلك الأهرام العربى - العدد ١٦٤ ص ٦٨ ، ٦٩

(٢) الأهرام العربى : العدد ١٦٤ - ٢٠٠٠/٥/١٣ - ص ٦٩

خراء هنا تعنى أنه يهذى بكلام لا معنى له .. وفى العمل الأدبى فإن كل الاحتمالات مفتوحة .. مثلًا : عندنا فى الشام نقول تعبيرًا شائعًا هو « العمى فى سماك » ، ولا نقصد بذلك الإساءة إلى السماء .. ولكنها تعنى « خلصنا من هذه الحكاية ... » كذلك عبارة « خرا بربك » شائعة وفقًا للهجة العامية الدارجة .. وهى ليست إلحادية بالمرة .. وحينما يقولها المواطن باللهجة العامية فإنها تعنى « خلصنا من هذه القصة » ، ولم يتبادر فى ذهن أحد أن هذه العبارة تسىء إلى اللّه ، فكلمة خراء لا يوصف بها اللّه – معاذ اللّه – بدليل أنها شائعة على ألسنة الناس[1].

٨ – ولما واجهه محاوره بأن بعض الجزائريين غضبوا من تصويره لشخصية فلة بوعناب ، المناضلة التى تحولت إلى عاهرة ، وقالوا : الثورة الجزائرية ليست فلة .. أجاب حيدر :

وهذا يدلل على أن الرواية تخضع لكل احتمالات التأويل .. وفلة فى روايتى هى ضحية الثورة .. كانت مناضلة وحولوها إلى عاهرة .. وهى ليست عاهرة بمعنى الكلمة لأنها لا تعشق إلا من تحب .. وفلة بوعناب في روايتى شخصية حقيقية قابلتها فى الجزائر ، واخترت لها اسم فلة من عندى ، أعرفها جيدًا ، هى مناضلة مخذولة ، وذكرت على لسانها النقد الموجه للسلطة الانتهازية .. كل سلطة انتهازية فى الوطن العربى .. « وليمة لأعشاب البحر » حالة عربية أكثر منها حالة جزائرية .. أردت أن أقول من خلال روايتى : إن الذين استلموا السلطة فى الوطن العربى عقب ثورات الاستقلال حولوا الثورة إلى كرسى حكم وسلطة حكم ، ونسوا الشعب .. لقد امتصوا دماء الشهداء ، وسرقوا الأحلام[2].

* * *

كان هذا أهم – وربما كل – ما دافع به حيدر حيدر عن نفسه ، وعن روايته ، وله كلام طويل آخر فى تصريحات أخرى ، ومجلات أخرى .. ولكنه لا يخرج عن

---

(١) روز اليوسف : السابق . (٢) روز اليوسف : السابق .

المضامين السابقة ، ولا يزيد عليها .. وحتى نكون أقرب إلى الدقة والإنصاف نناقش ما جاء به جزءا جزءا :

١ - لا نحاول - ولن نحاول - أن نناقش إيمان الرجل .. فلنا الظاهر ، وعلى الله السرائر .. ونحن دعاة لا قضاة .. وحسابه على الله .. مع أنه قدم عملًا روائيًا أيسر ما يقال عنه إنه إساءة للإسلام .. والقرآن .. والخلق .. والذوق .. أما مناصرته للإسلام ، وإنصافه له فمحل شك كبير .. كبير جدًا حتى من بعض من ناصروا الرواية .

٢ - وتعبير « النص المقدس » غريب على المعروف والموروث من الخطاب الإسلامى ، ويكاد يكون « مصطلحًا مسيحيًا » .. ولكننا لا نقف أمام هذا الاستعمال الذى يبدو - فى ظاهره على الأقل - شكليًا ؛ لأن تفصيله بعد ذلك يشى بضحالة ثقافة الكاتب الإسلامية والتراثية من جانب ، وتضخيم شخصيته فى استعلاء ترفضه إمكاناته المتواضعة من جانب آخر :

(أ) فقد ذكر أن النص المقدس عمومًا حَمَّال أوجه ، والمعروف أن « النص المقدس » - وأنا أستعمل تعبيره - فى الإسلام هو القرآن والسُّنة - واستخدامه كلمة عمومًا يصدق عليهما . مع أن كلمة « حمال أوجه » لم تستخدم من قبل إلا على لسان على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ، وفى مناسبة خاصة ، وهى مناسبة توجيهه « عبد الله بن عباس » - رضى الله عنهما - لمحاورة الخوارج حتى يقنعهم بالتخلى عن تطرفهم ، والعودة إلى صفوف المسلمين . طلب منه الإمام على - كرم الله وجهه - أن يجادلهم بسنة رسول الله ﷺ السنة العملية بصفة خاصة (ألا تعلمون أن رسول الله ﷺ فعل كذا .. وكذا .. ألم تروا أنه فى موقف كذا .. فعل كيت وكيت ...) فهى مواقف لن يستطيعوا أن يؤولوها ، أو يخرجوا دلالاتها عن مسارها الطبيعى .. ونهاه عن أن يجادلهم بالقرآن « لأنه حَمَّالُ أوجه » : أى فيه مجال للتأويل والتفسير بالهوى (١) .

(ب) والاجتهاد لم يكن أساسًا فى بنية الإسلام منذ عهد المعتزلة - كما

---

(١) انظر : (جابر قميحة : « المعارضة فى الإسلام بين النظرية والتطبيق » ١٨٧ - ١٩٠ ، ونيفين عبد الخالق : « المعارضة فى الفقه السياسى الإسلامى » ٢٥٧) .

يزعم حيدر - بل هو مصدر من مصادر التشريع الإسلامى من عهد رسول الله ﷺ يأتى فى المرتبة الثالثة مباشرة بعد القرآن والسنة .. يؤيد هذا ما روى معاذ ابن جبل - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال له : « **كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟** » قال : أقضى بما فى كتاب الله .. قال : « **فإن لم يكن فى كتاب اللّه ؟** » قال : فبسنة رسول الله ﷺ .. قال : « **فإن لم يكن فى سنة رسول اللّه ؟** » قال : أجتهد رأيى ولا آلو .. قال معاذ : فضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : « **الحمد للّه الذى وفق رسول رسول اللّه لما يرضى اللّه ورسوله** » .

وما روى سعيد بن المسيب عن على - رضى الله عنهما - أنه قال : قلت : يا رسول الله .. الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ، ولم تمض فيه منك سنة ؟ فقال ﷺ : « **اجمعوا له العالمين من المؤمنين .. فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد** »[1] .

ولأن الاجتهاد عملية استنباطية إنشائية تعتمد على القدرة العقلية والضمير الحى ، والثقافة الموسوعية فى علوم الشرع بخاصة كان لا بد من ضوابط وتوافر شروط فى شخصية المجتهد أهمها :

١ - أن يكون المجتهد مسلمًا .. لأن الاجتهاد بذل الفقيه وسعه لاستنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية .

٢ - أن يكون المجتهد عالمًا بلغة العرب لكى يتمكن من تفسير القرآن الكريم ، وتفسير السنة النبوية الشريفة .

٣ - أن يعرف المجتهد القرآن الكريم ، وما يتعلق به كزمن النزول وأسبابه .

٤ - أن يعرف المجتهد السنة القولية والفعلية والتقريرية ، ومراتبها وأحوال الرواة .

٥ - أن يكون المجتهد متمكنًا من معرفة أصول الفقه ، لأنه العمود الفقرى الذى يرتكز عليه الاجتهاد .

---

(١) على حسب الله : « أصول التشريع الإسلامى » (٤٣٨ ، ٤٣٩) .

٦ - أن يكون المجتهد عالمًا بالمواضع التى أجمع عليها العلماء ، كإجماعهم على المحرمات التى جاء بها القرآن والسُّنة ، وإجماعهم على أصول المواريث .

٧ - أن يفهم المجتهد مقاصد الشارع العامة من تشريع الأحكام ، وأن يكون خبيرًا بمصالح الناس وأحوالهم وأعرافهم وعاداتهم ليستطيع إصدار حكمه على الوقائع التى لا نص فيها بالقياس أو الاستحسان أو المصالح المرسلة أو غير ذلك .

٨ - أن يكون المجتهد صحيح الفهم ، فيعرف غث الآراء من سمينها ، وطيب الأقوال من خبيثها .

٩ - ألا يكون المجاهد مبتدعًا ، مائلًا إلى الهوى ، لأنه يكون والحالة هذه فاسد الاعتقاد ، وفاسد الاعتقاد لا يتجه إلى النصوص يبحثها ، ويقلب وجوه النظر فيها بقلب سليم ، فمهما كان ثاقب الفكر ، صائب الرأى لا بد أن يسيطر على تفكيره ، ما يحول دونه ودون الاستنباط الصحيح للأحكام من النصوص .

١٠ - أن يكون المجتهد مخلصًا لله لا يبغى من وراء اجتهاده الجاه ولا الشهرة ، ولا يريد إلا أن يصل إلى الحق أنى كان [1] .

* * *

هذه هى الشروط أو الصفات التى يجب أن يتحلى بها كل من يريد أن يكون مجتهدًا .. وقد يهب « التنويريون » ثائرين زاعمين أن فى هذه الشروط تعنتًا وتعسفًا .. ولكن الواقع غير هذا .. والشروط المطلوبة فى شخص يريد أن يلتحق بوظيفة معينة منها ما يتعلق بالجنسية .. والسن .. والمؤهلات الدراسية .. والخبرة السابقة .. والحالة الاجتماعية .. وقدرة الأداء .. واجتياز امتحانات .. ولقاءات .. وقد يشترط الدين والمظهر .. زيادة على صحيفة الأحوال الجنائية للتأكد من أن تاريخ حياة الشخص خالٍ من الجرائم المخلة بالشرف .. وبعد هذا تضع الجهة الحكومية تذييلًا فى إعلان الوظيفة نصه : « وللجنة - لجنة التوظيف - رفض التعيين دون إبداء الأسباب » .

وهذه ولا شك ضوابط مهمة لمصلحة العمل .. ولو فتح الباب دون هذه

---

(١) انظر : (محمد زكريا البرديسي : أصول الفقه ٤٦٧ - ٤٧٢) .

الضوابط ، ما استقام عمل ، وما استقرت أمور .. فكيف يكون القرآن « نصًا مفتوحًا للجميع » لأى مسلم أن يكون مجتهدًا فى نصوصه ؟

وهل يملك « حيدر حيدر » الصفات التى ذكرتها آنفًا أو حتى بعضها ، أو شرطًا واحدًا منها وهو معرفة القرآن الكريم وفهمه حتى يعطى نفسه حق الاجتهاد فى نصوصه ؟! إن روايته حسمت الأمر ، فكشفت مستوره فإذا به لا يعرف الفرق بين الآية والحديث ، وما عرضه منهما غزير الأخطاء والتحريف [1] .. وهذا يقطع بكذبه إذ يَدَّعى أن « القرآن أحد أهم مصادر ثقافته الأساسية » .

أما مصادر ثقافته الحقيقية - كما ذكر هو - زيادة على كتب الأيديولوجية الشيوعية - كتب إدوار الخراط ، وإلياس خورى ، وجابر عصفور ، وبهاء طاهر وجمال الغيطانى ، وإبراهيم أصلان ، ورضوى عاشور [2] .

٣ - وتعبير الرواية عن الواقع العربى المأزوم والمطوق بكثير من القوى ... إلخ فيه من المبالغة .. بل الإغراق فى المبالغة الشىء الكثير .. فالرواية فيها تشويه للجهاد الجزائرى من بداياته الأولى .. وفى الرواية انتصار للجنس فى صوره الشاذة .. وفى الرواية دعاية للأيديولوجية الماركسية أثقلت الرواية بمئات من الصفحات حتى كادت تحولها إلى كتاب سياسى .. ومن عجب أن يصرح حيدر حيدر من عدة أسابيع :

أن الرواية كانت أكبر مما هى عليه الآن فى طبعاتها المختلفة ، وأنه قبل طبعها حذف من مخطوطها « خمسين صفحة كانت تتحدث عن الطابع الأيديولوجى للتنظيمات الماركسية حتى لا تأخذ الرواية الطابع الأيديولوجى الذى يغلب على الجانب الفنى أو الأدبى ، وحتى لا تبدو الرواية ، وكأنها بيان سياسى » [3] .

ولكن الرواية بقى لها هذا الطابع حتى بعد إغفال الصفحات الخمسين التى ذكرها حيدر .. وهذا ما أخذه على الرواية بعض الذين وقفوا فى صفها من أمثال : الدكتور على الراعى ، ومحمود أمين العالم . وقد أشرنا إلى ذلك فى صفحات سابقات .

---

(١) انظر الصفحات : (٢٤ ، ١١٤ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ٣١٩) من الرواية .

(٢) أخبار الأدب - العدد ٣٥٦ ص ٩ .　　(٣) روز اليوسف : مرجع سبق ص ٢١ .

٤ - يصر حيدر على أن الرواية ليس فيها صفحة واحدة تسيء إلى الإسلام .. بل فيها ما يمجد الإسلام ، ويلح على هذه المقولة كذلك كل « التنويريين جدًّا » مما سنعرض له فيما بعد .. ولن أرد على هذه الأكذوبة ، وأحيل القارئ على ما استخرجته من الرواية ، وعرضته فى القسم الأول تحت عنوان :

[اللغة ومعجم الهبوط] .

ولكن المؤلم حقًّا أن يقوم الكاتب التنويرى جدًّا حيدر حيدر بارتكاب جريمة مخلة بالشرف هى جريمة التزوير المتعمد .. وهى التزوير « بالكشط » أو « الإسقاط » حتى يوهم القارئ بصدق دعواه - بل ادعائه - بأن فى الرواية ما ينتصر للدين ، ويمجد محمدًا ﷺ .. ففى أحد تصريحاته لصحيفة مصرية [1] يورد النص التالى على أنه من الرواية :

« أترون جيدًا وصوابًا كيف يتشكل العربى الجديد فى العصر الراهن .. ذلك القديم كان مبلورًا ومحصنًا بالإسلام . محمد القرن العشرين .. هذا ما نحتاجه فى العصر المضطرب » !!

هذا تزوير حيدرى تابعه فيه كبار التنويريين .. والنص فى الرواية كما يلى بالحرف الواحد :

« أترون جيدًا وصوابًا كيف يتشكل العربى الجديد فى العصر الراهن .. ذلك القديم كان مبلورًا ومحصنًا بالإسلام (الآن نحن نعبر إلى الزمن الجديد .. من أين ؟ من الفراغ والسديم المطلق أم من ميراثنا ؟ هل الثورة هى القطع التاريخى الكامل ؟ أنا أرى فى ماركس أو لينين محمدًا جديدًا) محمد القرن العشرين (ماركس أو لينين العربى) هذا ما نحتاجه فى هذا العصر المضطرب » [2] .

---

(١) الأيام الجديدة : العدد ١٧ - ٢٠٠٠/٥/٢١

(٢) « الوليمة » (٨٧) ، وانظر كذلك إصراره على هذا التزوير فى حواره مع حلمى النمنم ص ٥٤ من مجلة المصور - العدد ٣٩٤٦ - ٢٠٠٠/٥/٢٦ . وكذلك فى حديثه مع الـ BBC (انظر ص ٤ من صحيفة الميدان ٢٠٠٠/٥/١٦) .

وهكذا يسوى حيدر - بتزوير متقن متعمد - بين محمد ﷺ ، وماركس ولينين .. وتابعه فى ذلك السادة التنويريون جدًّا !!

٥ - وحيدر حيدر فى تعليل الهجوم على روايته يرى أن الذى يتولى كبره هم الأصوليون فى سبيل مكاسب دنيوية أهمها الفوز فى الانتخابات القادمة .. هذا هو المنظور القريب الذى « سجله » حيدر أو سُجِّلَ له .. وأرى أنه « اشتَلَّه » أو استولى عليه من تقييم التنويريين جدًّا فى مصر .

وفى استعلاء أكبر يرى أن الهجوم عليه مظهر من مظاهر مخطط كبير وخطير يستهدف التنويريين والعقلانيين ، ويرى أنه واحد من هؤلاء ، وأنه واحد من ورثة أرباب الاجتهاد .. والحرية .. والعقلانية .. الذين حصرهم فى المعتزلة .. ودائمًا يربط بين الحرية وحركة الفكر والمعتزلة .. وهذا راجع إلى ضحالة ثقافته الإسلامية كما ألمحنا من قبل .. ومع ذلك فهو مصرّ على الاجتهاد .. مصر على أن يكون واحدًا من المجتهدين فى التعامل مع « النصوص » المقدسة .. وهو لا يملك شيئًا من عُدَّةِ الاجتهاد .. فهو - كما يقول الشاعر العربى - « كساع إلى الهيجا بغير سلاح » !!.

وأقول لحيدر - وهو يربط بين الحرية و « أجداده » المعتزلة : إنهم على أيديهم وبتدبيرهم قامت أكبر مذبحة فكرية فى التاريخ الإسلامى لمن عارضوا رأيهم فى القول بخلق القرآن ، وكان لأحمد بن أبى دؤاد (١٦٠ - ٢٤٠) وهو أحد زعماء المعتزلة القدحُ المُعَلَّى فى الدعوة إلى خلق القرآن ، وامتحان الآخرين ، وتقييم أقوالهم ، واستخدام العنف معهم على مدى عهود الخلفاء الثلاثة : المأمون والمعتصم والواثق ، وبلغ من اعتزاز المأمون به أن أوصى به أخاه المعتصم فى وصيته الأخيرة قبيل وفاته « ... وأبو عبد الله بن أبى دؤاد ، فلا يفارقك ، وأشركه فى المشورة فى كل أمرك ، فإنه موضع لذلك منك »[1].

وأُمِرَ المعلمون أن يُعَلِّموا الصبيان « عقيدة » خلق القرآن ، وقاسى الناس مشقة فى ذلك ، وقتل خلق من العلماء[2] منهم أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم

---

(١) « تاريخ الطبرى » (٦٤٧/٨) .   (٢) السيوطى « تاريخ الخلفاء » (٣١٠) .

الخزاعي ، وهو من أشراف بغداد المستنكرين القول بخلق القرآن ، قبض عليه ، وقتله « الواثق » بسامراء ، وبعث برأسه إلى بغداد ، فنصب فيها ست سنين ، وجسده بسامراء سنة (٢٣١ هـ) ، وعلقت فى أذن الرأس رقعة كتب فيها « هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر بن مالك »[١].

وقبض على أتباعه ، ومريديه ، ووضع نيف وعشرون رجلًا منهم فى الحبوس المظلمة ، ومنعوا من أخذ الصدقة التى يعطاها أهل السجون ، ومنعوا من الزوار ، وثقلوا بالحديد[٢].

وكان أشهر من ابتلى بهذه المحنة التى فرضها المعتزلة على الأمة : أحمد ابن حنبل (١٦٤ - ٢٤١) ، فضرب بالسوط ووضعت القيود الثقيلة فى رجليه ، وألقى به فى السجن ، وظل فيه تسعة وعشرين شهرًا .. وقد رجاه بعض أقاربه وأحبابه أن يقول بخلق القرآن تقيّة حتى ينقذ نفسه من هذه المحنة فرفض وقال : « إذا أجاب العالم تقية ، والجاهل يجهل .. فمتى يتبين الحق ؟ »[٣].

هذا كان موقف المعتزلة من « الرأى الآخر » ، وأصحاب الرأى الآخر .. ترى أيقبل حيدر أن يعامله معارضوه كما كان أجداده « المعتزلة » يعاملون معارضيهم ؟ أعتقد أن الإجابة ستكون بالنفى .. النفى الشديد !! .

* * *

ونعود - بعد هذا الاستطراد الذى كان لا بد منه - إلى تعليل حيدر الهجوم عليه وعلى روايته ، ويتلخص فى أمرين :

الأول : حِرْصُ المهاجمين على تحقيق كسوب سياسية فى الشارع المصرى أهمها : حصد فوز مرضٍ فى انتخابات مجلس الشعب فى نوفمبر القادم .

والثاني : الاستجابة العملية لمخطط كبير موضوع مقدمًا لضرب التنويريين والعقلانيين !! .

---

(١) انظر : (تاريخ الطبرى ١٣٥/٩) وما بعدها .

(٢) « تاريخ الطبرى » (١٣٩/٩) .

(٣) صلاح الدين الصفدى « الوافى بالوفيات » (٣٦٥/٦ - ٣٦٧) .

وانظر : (عبد العزيز البدرى : الإسلام بين العلماء والحكام ص ٥٣) .

والواقع أنه لم يقل جديدًا .. بل ردد ما كتبه وألح عليه السادة « التنويريون جدًّا » فى مصر المحروسة بصحفها القومية وبعض صحف المعارضة .

والتعليل الأول مرفوض لعدة أسباب أهمها :

(أ) أنه مبنى على أن هذه الانتخابات القادمة ستكون نزيهة ، بريئة من تدخلات السلطة التنفيذية .. وهذا مشكوك فيه إلى أبعد حد ، استئناسًا بما حدث فى كل الانتخابات السابقة .

(ب) أن الذين هاجموا الرواية ، وهاجموا وزير الثقافة ووزارته لنشر هذه الرواية الساقطة فى الحملة التى قادها حزب العمل كانوا يتوقعون ما حدث من السلطة التنفيذية والتى جاءت فى قرارات مصادرة صحيفة الشعب ، وتجميد نشاط حزب العمل ، ومعروف فى مصر .. بل أغلب البلاد العربية أن الكسوب الدنيوية مرتبطة أساسًا بإرضاء السلطة الحاكمة ، ومسايرة الحزب الحاكم .. لا معارضته ، والوقوف فى وجهه .

وأذكر هنا على سبيل الإلماع أن المظاهرات التى قام بها طلاب الأزهر وطالباته كانت مظاهرات « عفوية » لم يقدها حزب العمل ، ولم ينظمها ، ولم يَدُسَّ فيها المحرضين والمحرضات ، ولم يزد ما كتب فى صحيفة الشعب على فضح ما فى الرواية من سقوط ، وإثارة القراء لمعارضة هذه الرواية ، والاحتجاج على من نشروها بإرسال رسائل واحتجاجات موقع عليها للمسئولين .. وكل أولئك من حق حزب - أى حزب - معارض ، ومن حق صحيفة .. أية صحيفة معارضة .. وما كانت هذه المظاهرات لتقوم إلا إذا كانت النفوس مهيأة لذلك بغضب عارم دفين ضد كتاب ساقط خدش دين أمة ونبيها ﷺ وقرآنها ، ونشرت عنه صحيفة « الأسبوع » قبل أن تكتب صحيفة الشعب كلمة واحدة عنه .. أما المسئولية الأصلية عن هذه المظاهرات فترجع لاثنين : الكتاب وصاحبه من ناحية .. ووزارة الثقافة التى أعادت طبع الكتاب مرة أخرى ، وعرضته فى السوق بثمن بخس .. وما كان ألف مقال لمحمد عباس أو عادل حسين لتقيم هذه المظاهرات إلا إذا كانت النفوس مشحونة بالنقمة والغضب لدينها الذى أصابه حيدر هذا فى الصميم . وأمتنا - كما ذكرت فى مدخل هذا الكتاب معروفة - على مدار التاريخ بحاستها الدينية القوية .. وعلى الذين يلقون بالمسئولية على مقالات الشعب أن يسألوا

أنفسهم : لماذا لم تقم مظاهرات ضـد حسن الألفى .. وصبور .. ويوسف والى .. استجابة لمقالات مجدى حسين وعادل حسين وغيرهما ؟!! وهى مقالات نارية ثائرة غاضبة مصحوبة بوثائق - أو ما يعتقد كُتَّابها أنها وثائق - أعتقد أن الإجـابة واضحة لكل من أعمـل عقله فيما دار وما يدور ، وفتح عينيه ، وألقى السمع وهو شهيد !!

* * *

وذهاب حيدر إلى أن من عارضوه لا يتحركون من تلقاء أنفسهم ، وأن هناك أيادى أجنبية أو صهيونية تحركهم ... كلام حيدر هذا لون من العبث الصغير المكرر .. لأنها تهمة مستهلكة تثير غثيان أى عاقل ... هى التهمة التى يلصقها كل دكتاتور بكل من يعارضه .. وهى التهمة التى يشهرها العجزة من صبية الأدب والمفكرين فى وجوه الشرفاء .. والصهاينة يستفيدون من نشر كتاب حيدر لأنه يعمل على تدمير الخلق والقيم الإسلامية والإنسانية .. وهو ما يتفق مع الأهداف التى ترسمها بروتوكولات شيوخ صهيون .

أما اعتبار الهجوم عليه هجومًا مقصودًا به التنويريون والعقلانيون فى الأمة كلها فيذكرنى بمنطق إحدى الممثلات المشهورات التى انكشفت فضائحها المستورة ، فحملت عليها الصحف العربية ، وبعض الصحف المصرية .. فما كان منها إلا أن عقدت مؤتمرًا صحفيًّا موسعًا ، وأعلنت فيه أن هذه الحملة ليست موجهة إلىَّ بصفة شخصية .. ولكنها موجهة إلى مصر أُمِّنا جميعًا .. مصر التى أعتبر أنا رمزًا لها ، ولفنها العظيم .

وللأسف وجدت من يصدقها ، ويدافع عن منطقها .. ساعتها عرفت لماذا يهزمنا أعداؤنا .. ولماذا نتقدم إلى الخلف .. ونعلو إلى أسفل .. وهـذا الادعاء الحيدرى يعتبر مظهرًا من مظاهر النرجسية أو توثين الذات الذى أصبح يهيمن عليه هذه الأيام .. ومن كلماته :

« حينما أتكلم بوضوح عن علاقة الرجل بالمرأة يشعر هـذا الجيل التقدمى والتحررى بالقرب من هـذا العمل الأدبى ، وعنـدما أقف بجانب المرأة أشعر أن الأنثى العربية تقترب من أعماقى حيث أتحاور معها ، وأدعو إلى تحررها الحقيقى .. لا هـذا التحرر المزيف السائد .

يسأله السائل : أتعنى بذلك أنك تحدثت بلغة سابقة لعصرك ؟ يجيب حيدر :

ربما يقول النقاد ذلك .. وفي النهاية المتلقى هو الحكم .. فمن الممكن جدًّا أن ينظروا إلى أسلوبى على أنه الأبقى على مدار الزمن أكثر من أسلوب الواقعية الذى تعلمناه فى المدارس والجامعات .. أقصد الأسلوب الأكاديمى .. ويمكن أن نسميه الجمالية الأسلوبية التى تقترب أكثر من الأجيال الجديدة ، وبالتالى تبقى أكثر[1] .

ويتحدث عن نفسه على أنه أجرأ من اقترب وعالج المحرمات الثلاثة : الدين .. والسياسة .. والجنس .. ويقول : إن الاقتراب للكتابة فى هذه المسائل يحتاج إلى جرأة لا تتوافر فى أى أديب آخر غيره[2] .

* * *

٦ - ووصف حيدر روايته بأنها ليست خطابًا فكريًّا أيديولوجيًّا يحاسب عليه .. والشخصيات تعبر عن نفسها لا عما يؤمن به هو .. وقد تمادى التنويريون جدًّا فى التركيز على هذا المعنى : المؤلف ليس مسئولًا عما يَرِدُ على ألسنة شخصيات الرواية لأنها شخصيات خيالية .. وكل ما يدور على ألسنتها خيالى مخترع فكيف يحاسب المؤلف على خيال فى خيال ؟

وهذه المسألة بصفة خاصة تعتبر جوهرية أساسية فى الموضوع كله لما يترتب على حسمها من إدانة أو تبرئة .. وابتداء نذكر القارئ بقاعدة نقدية لا ينكرها أحد وهى أن الشعر يكون حظ « اللاوعى » فيه أقوى من حظ الوعى والتيقظ الفكرى ، وربما كان الدفاع السابق أقرب إلى الشعراء منه لكتاب القصة ، ولا يفهم من هذا أننا نقر الشاعر على أن يقول ما يشاء حتى لو كان فيه هدم للقيم وإساءة إلى المقدسات بحجة أنه حديث اللاوعى ومنطق اللاشعور .. والمقام لا يتسع لتفصيل هذه الحقيقة .. وبالنسبة للرواية - وهى أطول الأعمال القصصية - لا يختلف اثنان فى أنها « من عمل الوعى » ونصيب اللاوعى فيها محدود ؛ وأثره لا يبدو على كل حال فى التصميم الفنى للقصة ، ولا فى التعبير عنها إلا بمقدار ..

---

(١) أخبار الأدب - العدد ٣٦٦ ص ٩ .

(٢) انظر : السابق ، الصفحة نفسها .

فقد يكون له أثر فى تلوين الشخصيات ، وتصوراتها ، وأفعالها .. ولكن أثره ضعيف فى التعبير عن هذه التصورات والأفعال .. لأن التعبير فى القصة يتم فى حالة وعى كامل .. لا كما يتم فى الشعر فى بعض الأحيان تحت تأثير تيارات لا شعورية تغمر الوعى وتغرقه لحظات »[1].

فكاتب الرواية إذن مطلق الحرية ، وبوعى كامل : يضع تصميمها وتخطيطها ، ويحدد مغزاها الذى يفهم من السياق ، وبطريق غير مباشر[2]، ويحدد شخصياتها وطبيعتها ، وكذلك الأحداث والوقائع ، والبيئة التى تتحرك فيها الأحداث والشخصيات والحل أو انفراج الأزمة أو العقدة .

فاختيار الشخصيات والوقائع والأداء التعبيرى يتم بإرادة حرة ، وإدراك واع ، ونظام محسوب .. وكل هذه العناصر توظف كلها - فى بناء فنى متلاحم - لخدمة الهدف أو المغزى الذى تغياه الكاتب الروائى قبل أن يكتب حرفًا واحدًا فى روايته .

وأصبح من البدهيات النقدية فى العصر الحديث أن العمل الفنى - مهما كان ضالعًا فى الخيال - يكشف إلى حد كبير عن شخصية الأديب ، وواقعه النفسى والعقلى ، وتوجهه الأيديولوجى .. ومجموع هذه الآثار الأدبية حتى الخيالى المحض منها يستخلص منه ، بالنظر الفاحص ، والبحث المستبطن البصير - طبيعة الأمة والبيئة والعصر .. حتى قال هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) عن الملاحم الطبيعية كالإلياذة والأوديسة : « من يقبل على دراسة ملحمة ما يكون قد أقبل على دراسة أمة بتاريخها ومزاياها ، لتبين ما لديها من معطيات حيوية .. فمجموع الملاحم العالمية يشكل تاريخ العالم بأجمل ما فيه ، وأكثره حيوية وحرية »[3].

ولأستاذنا الدكتور أحمد الحوفى كتاب طالعناه من نصف قرن مضى عنوانه « الحياة العربية من الشعر الجاهلى » استطاع أن يقدم فيه أبعاد المجتمع الجاهلى فى

---

(١) سيد قطب « النقد الأدبى أصوله ومناهجه » (ص ٨١) .

(٢) أحمد الشايب « الأسلوب » (ص ١٠٩) .

(٣) انظر : (أبو حاقة : فى الشعر الملحمى ٤١) .

وارجع كذلك إلى : (موسوعة السياسة لعبد الوهاب الكيالى ، وآخرين : ٢١٤/٧ - ٢١٧) .

سلمه وحربه ، وعاداته ، وتقاليده ، ودياناته ، وطعامه وشرابه .. وكل ذلك اعتمادًا على استنطاق الشعر الذى نُقل إلينا عن الشعراء الجاهليين .. وبعد ذلك ، وعلى النهج نفسه قدم سفرًا أضخم هو « المرأة العربية فى الشعر الجاهلى » .

ومن الحقائق النقدية كذلك اختلاف الأساليب تبعًا لاختلاف المنشئين .. سواء أكانوا كُتَّابًا .. أم خطباء .. أم شعراء .. أم مؤلفين .. إلى غير هذا .. فالموضوع هنا واحد .. ولكن الأشخاص يتعددون ، فإذا بالأسلوب يختلف فى الفن الواحد باختلاف هؤلاء الأدباء .. إذ نرى لكل منهم طابعًا خاصًا - فى تفكيره ، وتعبيره ، وتصويره .. ممتازًا به من الآخر في هذه العناصر .. وقد يصح لنا بعد ذلك أن نقول مع القائلين : « الأسلوب هو الأديب » أو الرجل[1] .

وبناء على هذا التنظير - وهى قواعد لا خلاف عليها - يكون العمل الإبداعى دالًا على شخصية صاحبه فنيًا وفكريًا .. ومن ثَمَّ تنشأ مسئولية المبدع عن إبداعه ، فهو فى مجال الرواية مثلًا لا يختار عناصرها من مشاهد وأحداث وشخصيات ومغزى إلا على أساس فكرى ، وبوعى كامل .. وهو فى الأداء التعبيرى ينتقى أيضًا من الكلمات والعبارات سردًا وحوارًا ما يعد أنسب الأساليب وأقدرها على خدمة المضمون والمغزى الذى يحرص على إقناع المتلقى به .

ولكن حيدرحيدر يصر - ويؤيده فى إصراره كل « التنويريين جدًّا » - على أن شخصيات الرواية فى « وليمته » شخصيات خيالية ، تتكلم باسمها ومن ثَمَّ لا يكون مسئولًا عما يجرى على ألسنتها ، وما يدور بينها ، أو فى داخلها من حوار .

وخيالية الشخصيات ، وما يرتبط بها من أحداث لا يصدق - كما يقول الدكتور أحمد صبرة « على مجال القيم والمعتقدات المعروضة فى الرواية .. إننا لا يمكن أن نقول : إن القيم هنا قيم خيالية لا علاقة لها بالواقع ، أو إن معتقدات إحدى الشخصيات لا تجد لها نظيرًا فى المجتمع ، أو إن أحاسيس فلان فى الرواية ليست بشرية إلا على سبيل المجاز[2] .

---

(١) أحمد الشايب « الأسلوب » (١٢١) .

(٢) الدكتور أحمد صبرة « تحليل السرد الروائى » (ص ٢٧٨) من دراسة فى مجلة فصول : م ١٦ - العدد الرابع . ربيع ١٩٩٨ .

ومن عجب أن ينقض حيدر عمومية حكمه « بخيالية الشخصيات » ويعترف صراحة « بأن فلة بوعناب شخصية حقيقية قابلتها فى الجزائر ، واخترت لها اسم (فلة) من عندى ، أعرفها جيدًا ، هى مناضلة مخذولة ، وهى ضحية الثورة ، كانت مناضلة ، وحولوها إلى عاهرة .. وهى ليست عاهرة بمعنى الكلمة ، لأنها لا تعشق إلا من تحب [1] .. وذكرتُ على لسانها النقد الموجه للسلطة الانتهازية .. كل سلطة انتهازية فى الوطن العربى » [2] .

وكل من كتبوا عن الرواية من مؤيدين ومعارضين - يجمعون ومعهم حيدر - على أن الرواية سياسية أيديولوجية ، وهذه الأيديولوجية الخاصة تعبر عن مجموعة من الأفكار فى رأس الكاتب .. وهذه الأيديولوجية يقدمها بطرائق مختلفة ، قد تكون على لسان الشخصيات ، أو عبر السرد الروائى ، أو توظيف اللغة الأدبية .. وكل هذه الأشياء تقدم مجمل رؤية الكاتب للعالم .. فإذا كان هناك كاتب عنصرى ضد السود فسوف يقول عمن يكرهه : إنه أسود أو عبد .. وإن كان ضد العرب فسيصفهم بالبرابرة .. فالأديب موجود بشكل أو بآخر فى عمله .. والادعاء بأن الكاتب لا علاقة له بشخصياته ادعاء غير صحيح .. ذلك أن الشخصيات تنطق ، وتتكلم وتتحرك طبقًا لرؤية الكاتب للعالم [3] .

ويرى الدكتور عبد الغفار مكاوى [4] أن فنية الأديب وقدراته العالية ينبغى أن تجعله يتجنب الزلل الذى يصدم الشعور الدينى والأخلاقى العام .. وأديب كبير مثل ديستوفسكى عالج فى « الإخوة كرامازوف » مسائل الإيمان والإلحاد بكل جرأة كفنان كبير ، ولا أظن أنه أغضب رجال الدين . وكذلك فعل « جيته » فى « فاوست » .

والكاتب مطالب بأن يطرق أصعب المشكلات .. ولكن بروح فنية عالية .. « هنرى ميللر » تحدث عن الجنس كجزء من الحياة .. ولكن بشكل لا يدعو إلى

---

(١) « هى ليست عاهرة بمعنى الكلمة لأنها لا تعشق إلا من تحب » عبارة غريبة جدًا ، وهو يعنى أنها لا تزاول الدعارة إلا لمن تفتح قلبها له .. وحيدر لا يعتبر هذا عهرًا أو دعارة بمعنى الكلمة .

(٢) روز اليوسف (ص ٢١ - العدد ٣٧٥٣ - ٢٠٠٠/٥/١٣) .

(٣) سلوى بكر فى تحقيق لحلمى النمنم ص ٥٣ ، مجلة المصور - العدد ٣٩٤٥ - ٢٠٠٠/٥/١٩

(٤) المصور : السابق (٥٣ ، ٥٤) .

الإثارة ، ولا يكون دعوة للفجور .. لأنه لو فعل ذلك فلن يكون أديبًا حقيقيًا .

وقدم نجيب محفوظ الكثير من الشخصيات الشريرة والمنحرفة ولكن بمقدرة أدبية عالية .. وليس أديبًا كبيرًا من يصدم الشعور بفجاجة وابتذال .. وحتى لو كان لديه شخصية ملحدة أو شاذة ، وخارجة عن المألوف فيمكنه أن يقدمها بشكل رمزى ، وأسلوب راق ، ومقدرة أدبية عالية .

* * *

وفى مقام محاولة التعرف على مسئولية الكاتب عما يكتب نرفض فكرة التفريق بين الكاتب (أو المؤلف) والسارد (أو الراوى) لغموض هذا التفريق من ناحية ، وخيالية الفكرة ، وعدم واقعيتها من ناحية أخرى .

فالروائى – كما يقول الدكتور مرتاض – حين يكتب رواية فهو الذى يكتب ، وهو الذى ينشئ الشخصيات .. ويظل حاضرًا فى العمل الروائى .. فهو الذى يهندسه ، وهو الذى ينسجه ويدبجه (١) .

وهذا الحكم يساعدنا على تبين مسئولية الكاتب حيدر حيدر عن المضامين التى عبرت عنها روايته .. واضح أن العناصر الروائية التى اشتركت فى بناء الرواية لم تبزغ من فراغ فعليها الكثير من طوابع شخصية الكاتب وثقافته ومنهج حياته وعقيدته ، وأيديولوجيته السياسية .. وهذا أمر طبعى لأنه يمثل قاعدة نقدية مسلمًا بها ، مؤداها أن الكاتب – أيًا كان نوع العمل الأدبى الذى يكتبه – يستمد الكثير من تجربته الشخصية ، كما يعبر عن كثير من آرائه وأفكاره ، وموقفه العام من الحياة ومشكلات الإنسان فى بناء عمله الفنى ، ومن ثم كانت الحقيقة النفسية التى تقول : إن فهمنا لشخصية الكاتب – إذا كان ذلك متاحًا – يساعدنا كثيرًا فى فهم عمله الأدبى وتفسيره » (٢) .

١ – تبدأ مسئولية الكاتب حيدر – لا فى اختيار موضوع روايته .. فكل ما فى الحياة ومن فى الحياة يصلح أن يكون موضوعًا أدبيًا أو روائيًا – ولكن من

---

(١) فى نظرية الرواية ٢٤١ .

(٢) الدكتور عز الدين إسماعيل : التفسير النفسى للأدب ٢٢١ .

اختيار شخصياته .. فكلها أو أغلبها شخصيات غير سوية : مهدى جواد .. مهيار الباهلى .. فلة بوعناب .. آسيا بلخضر ... شخصيات استغرقها الجنس الحرام ، وتحكمت فيهم الشهوانية البشعة ، وكأنها رسالة حياة ، وشرعة وجود .. والحاج محمد شخصية لا تعرف من الدين إلا مظاهره ، وكذلك الغلو والتطرف الباطل المقيت .. وزوج لا لا فضيلة (الثانى) يزيد ولد الحاج لا يهمه فى حياته إلا متع الحياة من فراش .. وطعام .. وشراب ويعيش متسلطًا دكتاتورًا فى أسرته .

٢ - والإدانة الثانية للكاتب تتمثل فى كثير جدًّا من الحوار الذى أجراه على ألسنة الشخصيات .. وهو حوار - فى أغلبه ساقط سافل شكلًا ومحتوى - كما ذكرنا من قبل .. وكانت صورة الشخصيات الشاذة التى رسمها حيدر نقطة دفاع عن سفول هذا الحوار .. فإذا ما اعترضت على هذا السفول أتاك الجواب الغاضب : هذه هى الواقعية ، أتريد أسلوبًا راقيًا من عاهرة كَفُلَّة بوعناب ؟

والدفاع عن الرواية بأنها صورت الواقع حتى فى أدائه التعبيرى السائد فى مسرح الأحداث .. ومن ثَمَّ توافرت لها المصداقية الفنية ... هذا الدفاع يعتبر ساقطًا بكل المفاهيم النقدية .. والدكتور القط الذى تولى زعامة الدفاع عن الرواية يقول :

« ... فليس شرطًا إذن أن تتحدث الشخصية كما تتحدث فى حياتها اليومية .. وليس من ضير أن يترجم المؤلف أفكار الشخصية وعواطفها من العامية التى تتحدث بها فى واقع الحياة إلى ما يمكن أن تنطق به لو أتيح لها أن تتكلم بالفصحى .. فالواقعية ليست واقعية مادية ، ولا محاكاة حرفية للواقع .. ولكنها واقعية فنية تصور ما يمكن أن يكون »(١) .

فمن البدهيات النقدية أن التعامل الواقعى الفنى مع معطيات الحياة يخضع لمبدأين :

الأول : مبدأ الانتقاء .. فالمبدع ينتقى من الحياة الوقائع والأحداث والشخصيات التى يوظفها فى عمله الأدبى .

والثانى : مبدأ التصفية أو التنقية مرورًا بالوجدان الفاعل ، والعقل المميز

---

(١) عبد القادر القط « من فنون الأدب » (ص ٣٩) .

القدير .. وإلا كانت الواقعية .. واقعية تسجيلية راصدة .. تدخل فى نطاق العلوم الإنسانية .. كالاجتماع والتاريخ .

* * *

وإذا سلمنا جدلًا بأن الكاتب الروائى غير مسئول عن الحوار الذى يدور على ألسنة الشخصيات فهو مسئول عن أسلوبه ومضامينه فى السرد حيث إن مساحة الحرية الممنوحة له أوسع مدى ، وهو فى هذه الحالة لا يستطيع أن يزعم أنه واقع تحت سطوة شخصية من شخصياته يحرص على أن يجرى على لسانها ما يناسبها .. وفى سرد الوليمة من معجم السقوط الجنسى والدينى الكثير .. زيادة على عرض كثير من ملامح الأيديولوجية الماركسية .. فهو يرى فى سرده الروائى أن المسيرة التاريخية لا ولن يستقيم أمرها إلا إذا وجهته هذه الأيديولوجية .. كتب عن مهيار الباهلى أحد رءوس الماركسية ، ورفيق مهدى جواد فى « النضال » « ... ولأمر ما خارج عن طواعية مهيار ورغبته ، واندفاعه وبراءته ، وصدقه اللامحدود ، ونبله ، كان التاريخ ينأى عن متناول يديه ، ويتشكل كالأباريق على أيدى خزافين آخرين يصنعون التاريخ بشكل مغلوط ومشوه يدعو للرثاء .. وفى غضون جبهته وخطوطها الخمسة كان يتجلى الألم والغضب معًا .. هناك كنت تقرأ أن الأشياء ليست هى الأشياء التى يبغيها ، وأن هذه التغضنات والتموجات الصدغية تشكلت من هذه الخيانة الواقعية للتاريخ الملعون الذى صدم تهيؤات النفس بما لم تكن تتوقع[١] .

وكثيرًا ما تعرض الرواية بالوصف والسرد مشاهد جنسية صارخة غاصة بالأسماء الجنسية الصريحة ، وقد يستغرق المشهد الواحد عدة صفحات ، ويتلبس فيه السقوط الجنسى بالجرأة على الدين ، والاستهانة بالمقدسات .. كهذا المشهد الطويل العريض للقاء آثم طال بين مهدى جواد ، وتلميذته آسيا بلخضر .. ومنه العبارات الآتية التى تعتبر أقل حدة من بقية العبارات الصريحة الصارخة فى المشهد :

---

(١) « الوليمة » (٢٥٦) .

(٢) انظر : (الوليمة ص ٦٧٦ ، ٦٧٧) .

- ... لأول مرة يستحمان معًا بعريهما الكلى .. هى ترى تفاصيل جسده ، وهو يرى !! .

- ... وهى تتجلى تحت البصر الآن (عارية) فاقدة قداستها وحرمتها الدينية أكثر جمالًا وطفولة وتناسقًا وتطهيرًا للنفس !! .

- بين الضحك .. ورشق الماء .. والبذاءات المقدسة .. والتضام العارى .. والصيحات البدائية كانت النشوة .

* * *

وقد ذكرنا فى ختام القسم الأول من هذا الكتاب أن كاتب الرواية حيدرحيدر - وقد أرهقها بسيبل لا ذوقى ولا أخلاقى ولا دينى من الألفاظ والتراكيب - كان مندفعًا بالوعى أو اللاوعى أمام ضغط معجم لغوى خاص .. وهذا الإفزاز اللغوى المنكود المرفوض يفتح المجال - فى سماحة - لدراسة شخصية حيدر بكل أبعادها !! .

والمعجم اللغوى الخاص يعنى أن المبدع يكثر من توظيف ألفاظ معينة فكأنها لازمة من لوازمه الفنية والفكرية . ومنها يمكن استخلاص أحكام تتعلق بالكاتب .

فإذا ما أخذنا المتنبى مثلًا رأينا أبا العلاء المعرى فى رده على رسالة ابن القارح يقول : « ... كان الرجل مولعًا بالتصغير ، لا يقنع من ذلك بخلسة المغير كقوله :

- مقالى للأُحَيْمق يا حليم

- ونام الخويدم عن ليلنا

- أفى كل يوم تحت ضِبْنى شُويعر

وغير ذلك مما هو موجود فى ديوانه ، ولا ملامة عليه .. إنما هى عادة صارت كالطبع[1] ، وكان ابن القارح فى رسالته إلى أبى العلاء يعترض على قول المتنبى : « أذم إلى هذا الزمان أهيله » .. وجاء رد المعرى ملاحظًا ظاهرة التصغير فى شعر المتنبى ، مجيزًا لها .. وهذا ما لاحظه عباس العقاد ، ورأى أن إكثار المتنبى من

---

(١) « رسالة الغفران » (٢٨ ، ٤١٤ ، ٤١٥) .

استخدام صيغ التصغير ليس عادة صارت كالطبع .. إنما هي عادة في الطبع والخلق .. فهي « من الطبع ، وفيها ترجمة عنه ، ومجاراة لنوازعه »[1].

وهذه السمة اللغوية هي مظهر من مظاهر طموحه وتعاظمه ، وشعوره الضخم بذاته « فإذا ازدرى شيئًا ضئيلًا ، أو رجلًا حقيرًا فذلك ازدراء يشوبه الضغن ، ويضاعفه ظل العظمة الملقى عليه .. فإذا الشيء شُوىء ، وإذا الرجل رُجيل ، وإذا عادة المبالغة في الاستصغار موصولة بعادة المبالغة في التفخيم ، أو هي هي ... وأكثر ما يرى المتنبي « مصغرًا » حين يهجو مغيظًا محنقًا ، أو يستخف متعاليًا محتقرًا ، كما يقول في كافور :

أولى اللئام « كُوَيْفير » بمعذرةٍ   في كلِّ لؤم وبعض الغدرِ تفْنيدُ

ومن تصغيراته في شعره (الخويدم - نُويبية - « تصغير نُوبية » - نُويْبِي « تصغير نوبي » - أُخَيْمق - شويعر - أهيْل ، شويهات - أطيْفال ...)[2].

وقد تتبع العقاد ما في ديوان أبي نواس من ألفاظ الجنس والشذوذ والتهتك ، وخلص منها إلى أنه كان مصابًا بآفة النرجسية ، وما يلحق بها من لوازم مثل الاشتهاء الذاتي ، والتوثين الذاتي[3].

* * *

والمعجم الحيدري - أو معجم الهبوط - كما سميناه ، وقد عرضناه في الجزء الأخير من القسم الأول من هذا الكتاب - يقودنا إلى صورة كاتب أيسر ما يقال عنه أنه مستهين بالقواعد والقيم الدينية ، والثوابت الخلقية ، والأعراف الاجتماعية ، مما جعل الدكتور فؤاد زكريا يصفه :

« بانعدام الحس الاجتماعي » مما جعله يستخدم في حواراته عبارات بذيئة تجرح مشاعر المسلمين جرحًا عميقًا ، وعذره كما يقال هو أنه كان يريد أن

---

(١) العقاد « مطالعات في الكتب والحياة » (ص ١٨٢) .

(٢) انظر : (العقاد : السابق ١٨٩ ، ١٩٠) .

(٣) انظر : (العقاد : أبو نواس : الحسن بن هانئ ٣٣ - ٦١) ، وانظر : (جابر قميحة : منهج العقاد في التراجم الأدبية ٣٨١ - ٣٨٦) .

يعرض وجهة نظر الشخص الملحد .. مع أن هناك طرقًا عديدة يمكن بها التعبير عن موقف الإلحاد لا تتضمن تلك العبارات السوقية البذيئة » [1].

هذا زيادة على ضعف الحس الأدبى فى مراعاة قواعد الذوق ، وانعدام الحس الدينى ، حتى أنه يتحدث عن نفسه - باعتداد زائد - بأنه أجرأ من اقترب ، وعالج المحرمات الثلاثة : الدين والسياسة والجنس . ويقول : إن الاقتراب للكتابة فى هذه المسائل الثلاث يحتاج إلى جرأة كبيرة لا يمكن أن تتوافر فى أى أديب آخر غيره [2].

وقد انتهت الدراسات النفسية إلى الوصول إلى عدة حقائق تتعلق بالخصائص الكبرى للتفكير الإبداعى من أهمها الحساسية المرهفة لإدراك ما تنطوى عليه مواقف الحياة المختلفة من ثغرات أو مشكلات . وتعتبر هذه الحقيقة نقطة الانطلاق للتفكير المبدع [3].

* * *

٧ - وقد هوجم حيدر لأنه أتى بنص فى روايته يصف القرآن بأنه خراء .. والنص حرفيًا هو :

« الوعى العميق بالتاريخ غائب وهؤلاء يهمشون التاريخ ، ويعيدونه مليون عام إلى الوراء .. فى عصر الذرة والفضاء والعقل المتفجر يحكموننا بقوانين آلهة البدو وتعاليم القرآن خراء !! .

والعبارة السابقة جاءت على لسان مهيار الباهلى وهو يتحدث على الشاطئ فى جلسة حضرها مهدى جواد وفلة بوعناب .. وقد دفع حيدر حيدر هذه التهمة عن نفسه بما يأتى :

(أ) كلمة خراء قبلها نقطة ، وبعدها علامة تعجب ، فهى مقطوعة الصلة بالقرآن . والمقصود وصف الهذيان الذى هيمن على المتكلم .

---

(١) حقائق غائبة فى قضية الوليمة . مقال للدكتور فؤاد زكريا ص ٥٦ - المصور - العدد ٣٩٤٥

(٢) أخبار الأدب - العدد ٣٦٦ ، ص ٩

(٣) الدكتور مصطفى سويف : الشروط الاجتماعية للإبداع (١٤ - ٢٢) من مجلة فصول .

(م ١١) - العدد الأول - ربيع ١٩٩٢

(ب) جاء بعد ذلك من يرد عليه (وهو مهدى جواد) .
(ج) كلمة الخراء ، وخصوصًا إذا جاءت مع الرب لا تعنى الإساءة إلى اللّه ، ولكنها تعنى خلصنا من هذه الحكاية .

* * *

وهو دفاع هزيل ساقط لأن بقاء النقطة لا يغير من المعنى شيئًا .. بل يرفع من درجة سريان الوصف للقرآن وما قبله . وتكون الكلمة فى هذه الحال خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره (هى) أى (المذكورات السابقة) . ومن ثَمَّ فهى جزء من الفقرة ، ولا تصلح أبدًا أن تكون بداية للفقرة التالية فبدايتها « كان مهدى جواد يتملى البحر من خلال الزجاج ... » .

ولا تصلح أن تكون بدايتها :

« خراء كان مهدى ... » .

وبعد كلمة « خراء » فى الطبعتين فراغ بمساحة ثلاثة أرباع سطر .. وفى السطر التالى تبدأ الفقرة الجديدة مسبوقة « بالبياضة » التى تدل على بداية الفقرة .

وقول حيدر بأنه قد جاء بعد ذلك من يرد عليها يعنى أنه يكذب نفسه .. لأنه يثبت هنا أن الوصف غير لائق ، فكان لا بد أن يكون هناك من يرد عليه .

ووجود من يرد عليه كذبة أخرى فبعد الفقرة السابقة مباشرة والمسبوقة بـ (خراء) :

كان مهدى جواد يتملى البحر من خلال الزجاج المغبش . مراقبًا الدوران الأبله لطيور النورس التى تقترب من الصيادين ، وقد شحبت ظلالهم فوق الصخور ، ولكى يبعد عن رأسه طنين الكلمات الضخمة التى يطلقها عقل السيد الباهلى الملتاث كان يسلس العنان لخياله ، متقمصًا ريش طائر بحرى ... »[1] .

وهذه الفقرة لا تحمل ردًّا ، ولا شبه رد .. فمهدى لم ينطق بكلمة واحدة ،

---

(١) « الوليمة » (١٢٩) .

والفقرة وصف لمهدى وخواطره ومحاولة هروبه النفسى من ثرثرة مهيار الذى أفسد الجلسة الجميلة الشاعرية بمحاضرة ثقيلة لا تناسب هذه الجلسة الجميلة الشاعرية .. فهى محاضرة ثقيلة ، بكلمات طنانة يطلقها عقل ملتاث فى مقام لا يناسبها ، لأنه مقام متعة .

* * *

وقد خالطت فى العمل الجامعى ، والأعمال العلمية ، وسنوات الدراسة الجامعية .. لعشرات من السنين — إخوة من الشام والعراق والجزائر ، فما سمعت واحدًا منهم استعمل كلمة الخراء بالمعنى الذى ذكره حيدر .

إنها عملية كذب .. وتزوير .. وهروب غير شريف .

٨ – أما إساءة الرواية إلى الجهاد الجزائرى حتى فى أنقى فتراته فهى أوضح من أن تحتاج إلى شرح وتفصيل .. وليرجع القارئ إلى الكلمات التى أجراها حيدر على لسان فلة بوعناب المناضلة التى كانت تزاول الدعارة مع المجاهدين فى كهوف الجبال .. فكيف يتفق هذا مع مشهدهم وهم « يهبطون من الجبال المصبوغة بالدم ، ويهللون بتكبيرات عصور الفتح الأولى ، وكل مجاهد علق على صدره قرآنًا عربيًا كان بمثابة الرقية ضد رصاص المستعمر الصليبى »[(١)].

* * *

لقد قال الرجل ، وما زال يقول ، ومن حقه أن يستشعر الاستعلاء ، ويميل رأسه صَيَدًا ، وينظر إلى معارضيه من عَلٍ ، وهو يرى الصحافة المصرية « القومية جدًّا » ، وكل الصحف المستقلة والحزبية تلمعه بجنون ، وتنفخ فيه بخبل ، وتعانقه فى حرارة ، ويرى وزير الثقافة المصرية يعلن أن الرواية تدعو للإسلام ، وتنتصر له ، ويرى شخصيات من الوزن الصحفى الثقيل تسعى إليه فى قريته ، وتحقق حلم حياتها بحديث معه ، أو « أخذ » صورة بجانبه فى « أوضاع » متعددة ،

---

(١) « الوليمة » (٥٠٣) .

ويرى صحيفة مصرية تنشر إبداعه « الفذ » على حلقات .. وأرانى أردد قول رسول الله ﷺ : « **إذا لم تستح فاصنع ما شئت** » .

* * *

لقد عرضنا فى الصفحات السابقة تقرير لجنة الدكتور القط ، ورأينا ما فيه من دفاع عن الرواية الحيدرية مستميت ، وهو دفاع فى مجموعه وتفصيلاته يجافى الحق والحقيقة .

كما عرضنا دفاع حيدر عن نفسه وعن روايته ، ورأينا ما فيه من هشاشة وسقوط . وبينما كنا نهم بدفع كتابنا هذا إلى المطبعة - بعد الجمع التصويرى والمراجعة - فاجأنا الأستاذ محمد حسنين هيكل بدراسة عميقة نالت فيها رواية حيدر مساحة واسعة [1] وأعتقد أن « التنوريين جدا » حتى الغلاة منهم لن يتهموا الأستاذ هيكل بأنه لم يحسن قراءة الرواية ، أو أنه قرأها قراءة رديئة ، أو أنه أساء فهمها ، أو عجز عن فهم ما وراء النصوص والعبارات ... إلخ .

ومن الأحكام التى ساقها فى دراسته ما جاء موافقًا لما فى هذا الكتاب ، ومنها جديد لم نعرضه ، ولم يعرضه أحد من قبل ، بقدر علمى . وخصوصًا ملاحظاته التى تسجل وجوه شبه أو اختلاف بين سلمان رشدى وروايته « آيات شيطانية » من جهة ، وحيدرحيدر وروايته « وليمة لأعشاب البحر » من ناحية أخرى ، وفى السطور التالية نقدم أهم النقاط التى تمثل رؤية الأستاذ هيكل فى هذا المجال :

١ - ما أثير حول قصة نشر رواية حيدر فى مصر لم يكن فى حقيقة أمره مسألة تتصل بالحرية . ولكن جوهر القضية أن مؤسسة من مؤسسات الدولة - هى وزارة الثقافة - أعادت نشر الرواية ، وهذا يعتبر قرارًا بتزكية العمل عن رغبة فى تعميم فائدته الأدبية ، زيادة على الدعم المادى ، فالنسخة الواحدة تتكلف عشرة جنيهات ، وتباع بأربعة جنيهات فقط .

٢ - كان الأسلوب الذى لجأ إليه الدفاع عن « الوليمة » هو الاستدعاء الوهمى لقيم عظيمة فى غير مجالها ، مثل الحق والحرية ، ومثل الاستنارة والتنوير ،

---

(١) على أطراف الدين والسياسة والأدب (٤ - ١٣) - وجهات نظر - العدد ١٨ - السنة الثانية - يوليو ٢٠٠٠

ومثل العلم والثقافة . وجرى رسم الخطوط لمعارك مهيبة : مثل الانتصار للعقل ضد الخرافة ، والوقوف مع الفن والأدب ضد الجهل والأسطورة ، والتقدم مع جيوش النور حتى تندحر جيوش الظلام ... إلخ . والحقيقة أنه ليس هناك ما يسيء إلى القيم مثل استدعائها إلى غير مجالها .

٣ - تصرفت وزارة الثقافة على عجل ، كما يتصرف رجل وقعت من حوله الجدران أثناء وجوده فى الحمام ، وأخذته المفاجأة فلم يعرف كيف يتصرف . وعجزت لجنة الأدباء والكتاب أن تجد لها مخرجًا فى مطلب الحرية والتنوير ، لأن ذلك لم يكن موضوع الأزمة ، لأن موضوعها كان تزكية عمل مدعم بأموال الشعب .

٤ - راح الأدباء والكتاب المدافعون عن الرواية إلى اعتبار أنفسهم « هيئة مثقفين » لها تكوين وتنظيم وسلطة دون معيار متفق عليه ، وبغير اعتراف يمنح الشرعية بالقبول . ثم صدرت منهم بيانات لم يتنبه أصحابها أنهم خسروا المعركة قبل الطلقة الأولى ، فقد استطاع الآخرون وضعهم فى موقف يبدو وكأنه معادٍ لقيم الدين والفضيلة .

٥ - ومن مقولات هؤلاء أن النص الروائى يفهمه المتذوق الفنى ، وليس القارئ العادى .

وذلك منطق يجعل العمل والنقد الأدبى « دردشة » بين أفراد صفوة تعرف بعضها ، وتتلاقى فى دوائرها ، وتتقن لغة خاصة يجرى لها الحديث بين أصحابها بما يغنى عن الكلام مع بقية الناس .

٦ - ويدعى هؤلاء أن بعض العبارات المقتطعة من نص « أدبى » اجتزاء متعمد لبعض نصوصه . وهذا غير صحيح على إطلاقه ؛ لأن جمهورهم لم يقرأ أعمال أفلاطون ، أو أرسطو ، ولا « رسائل إخوان الصفا » أو « مقدمة ابن خلدون » ، لكن هؤلاء اطلعوا على أجزاء وإشارات أعطت للجزء مصداقية الدلالة على الكل . وكتاب « رأس المال » لكارل ماركس الذى قسم العالم إلى معسكرين عقائديين ونوويين لم يقرأه كاملًا إلا بضع مئات من العلماء والدارسين على امتداد قرن ونصف ، ولم يكن هناك من قرأ ، وإنما كان هناك من سمع .

٧ - ومن نقط الالتقاء بين حيدرحيدر وسلمان رشدى :

(أ) ادعاء كل منهما ، وادعاء من دافع عنهما أن « الرواية » تمثل « دفاعًا » عن الإسلام ، وقد رأينا وزير الثقافة المصرى « والتنويريين جدا » يصرون على أن رواية الوليمة تعلى من شأن الإسلام والتجربة الدينية .

(ب) تبرئة الكاتب اعتمادًا على نظرية « التخيل » : فأبطال « الوليمة » عليهم وحدهم مسئولية ما نطقوا به فى حوارات « المتخيَّل » من مشاهد القصة ، وهو - كما يقول هيكل - صدى لدفاع « سلمان رشدى » بمقولة أن المغضوب عليه فى سياق « آيات شيطانية » لم يكن غير أحلام رآها النائم فى نومه . وهل يسأل نائم عن الأحلام حين تزور ؟

(ج) وهناك وجه شبه طارئ على شخصية الرجلين وهو « الشعور الحاد بالتضخم النرجسى » ، وقد ذكرنا فى الصفحات السابقة من الكتاب أن حيدرحيدر كان يفخر بأنه « أجرأ » كتاب العربية على الخوض فى الدين والسياسة والجنس ، وأن أسلوبه هو أسلوب المستقبل ، وأن الهجوم عليه هجوم ظلامى على التنوير والثقافة والعقل والحرية ... إلخ .

وننقل عن هيكل سطورًا مما روته زوجة « سلمان رشدى » التى عاشت معه أيام صدور روايته ، وهى الكاتبة الأمريكية « ماريان ويجنز » « ... كان سلمان سعيدًا وهو يستمتع بالضجة التى ثارت حوله ، وبالشهرة التى تحققت له ... وأنها وجدته رجلًا أنانيًا بلا قضية حقيقية ، وأن الضجة من حوله أضافت إليه « ورمًا » من الغرور بحجم الفيل ... » .

* * *

هذه شهادة هيكل ، وهى شهادة تاريخية مهمة ، وترجع أهميتها إلى أن التنويريين جدا يعجزون عن اتهامه بأنه لم يقرأ رواية حيدر ، أو أنه قرأها قراءة رديئة ، أو أنه واحد من « الظلاميين » .

وعودا على بدء نذكر القارئ بأن حيدر والتنويريين وظفوا كل الوسائل فى الدفاع والعدوان ، ومنها التزوير ، والمغالطات والتلاعب بالألفاظ ، واستعداء المسئولين . ومما يؤسف له أنهم أقحموا كتاب الله العظيم فى الدفاع عن حيدر وعن مستنقعه العفن . وهذا ما نفصل القول فيه فى الصفحات التالية .

[٣]

وبالقرآن يدافعون عنه !!!

باب جديد طرقه الذين يدافعون عن حيدر وروايته ، ما كنت أحب أن يطرقوه لأنه لا يخدم غرضهم إلا فى الظاهر ، وعلى سبيل التعسف والتعنت والافتعال .. وأعنى به الاستشهاد بالقرآن الكريم فى تبرئة حيدر من إثم العبارات الساقطة التى تسىء إلى الدين والقيم والخلق . واستعانتهم بالآيات القرآنية يعتمد على تنظيم أجزاء القضية على النحو الآتى :

- جاء فى القرآن على ألسنة أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين واليهود أقوال تعبر عن كفر بواح وإساءة إلى القرآن والرسول ﷺ .

فمسئولية هذه الأقوال واقعة على أصحابها .

- وجاء حيدر بعبارات سيئة يفهم منها الإساءة إلى الدين والخلق على ألسنة شخصيات روايته « وليمة لأعشاب البحر » وهى شخصيات خيالية مخترعة ، وهذه الأقوال السيئة تعبر عن جوانيتهم ومعتقداتهم .

ومن ثم لا تقع المسئولية على كاتب الرواية .

* * *

وفى الصحف والمجلات رأينا حماسة قوية للفكرة التى عبر عنها أصحابها بمقالات ذات عناوين زاعقة مثل : هل نصادر القرآن (١)؟ هل نحذف الآيات التى تعرض حجج المشركين من كتاب الله (٢)؟

---

(١) مقال لرجب البنا : مجلة أكتوبر - العدد ١٢٣٠ - ٢٠٠٠/٥/٢١

(٢) مقال لمحمد مسعد - صحيفة القاهرة - العدد الخامس ٢٠٠٠/٥/١٦ ، وانظر كذلك مقالاً بعنوان : إساءات الكفار للذات الإلهية ، للدكتور عبد الله النجار (ص ١٦ ، ١٧) من مجلة روز اليوسف - العدد ٣٧٥٤ - ٢٠٠٠/٥/٢٠.

ولكن التشبيه أو القياس مع الفارق الكبير جدًّا ، ولو أن « حيدر » استأنس بمنهج القرآن ، وأخذ نفسه .. ولو ببعض ملامحه ما عرض نفسه للبلاء أو المؤاخذة :

١ - **فما أورده القرآن** من أقوال أعداء الإسلام أقوال حقيقية واقعية منسوبة لشخصيات حقيقية ، وإن لم يورد أسماء أصحابها .

أما الحوارات في الرواية فهى كما يقول كاتب الرواية خيالية منسوبة لشخصيات من صنع الخيال .

٢ - **أقوال أعداء الإسلام** جاءت في القرآن - على ما حملت من كفر وافتراءات - بلسان عربي مبين ، وأسلوب رفيع بليغ يتسق مع الأداء القرآنى المعجز .

أما الحوارات الحيدرية فكثير منها سوقى هابط المستوى قبيح الخيال .

٣ - **يورد القرآن** أقوال المشركين وحججهم ، ويعقبها بالرد عليها بحجج وأدلة مفصلة ، أو موجزة ، أو بتهديد ووعيد .

أما أغلب ما أثير في الحوار الحيدرى فلم يردْ معه ردود ، وكذلك ما أثير في السرد من باب أولى .

٤ - **ما جاء في القرآن** من مواجهة ودفاع كان ترسيخًا لحقائق ومفاهيم بدونها لا يستقيم الوجود الإنسانى الراقى والعقل الرشيد ، والعلائق الإنسانية الطيبة ، والقيم الحية البناءة .

أما معروضات الرواية من حوار وتعليقات عليها فلم تكن تهدف إلى هذا أو بعضه .. إنما كانت في مجموعها تجريحًا للعقيدة والموروثات ، وإثارة للغرائز الدنيا ، ونقضًا للحد الأدنى من الذوق .. وهذه الطوابع لا يعدمها القارئ في تضاعيف السرد الروائى كذلك .

* * *

وأعداء الإسلام الذين اعترضوا عليه ، وحاربوه ، وتقولوا عليه يتمثلون في فئات ثلاث هى : الكفار والمنافقون واليهود .. ونحاول فيما يأتى أن نعرض بعض مفتريات هؤلاء كما عرضها القرآن لنتبين طريقتهم ونهجهم في النيل من الدين والقرآن والرسول ﷺ ، وكذلك تفنيد القرآن لدعاواهم وادعاءاتهم لتوضيح منهجه كذلك في هذا السبيل .

ولنبدأ بالكفار وبعض مواقفهم وأقاويلهم :

مع بداية الدعوة لما نزل عليه ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾[1] صعد الصفا فقال : « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش فقالوا : مالك ، قال : « أرأيتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقونني ؟ » قالوا : بلى . قال : « فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد » ، قال أبو لهب : تبًا لك .. ألهذا دعوتنا وجمعتنا ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾[2] .

فالرد القرآنى هنا جاء على سبيل الوعيد المفصل مع بيان أمرين :

الأول : أن المركز المالى والاجتماعى لأبى لهب لن ينقذه من النار .

والثانى : إشارة إلى جريمة من جرائم امرأته ، وهى إلقاء الشوك فى طريق الرسول ﷺ ، فجاءت « حيثية » لإدانتها وتعذيبها .. وإن لم يكن لها يوم الصفا حضور أو اعتراض على النبى ﷺ

* * *

ووصفوا القرآن بأنه سحر ، وأنه أضغاث أحلام ، وأنه أساطير مملاة على محمد ﷺ ، وأنه قول بشر .

- ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾[3] .
- ﴿ ... وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[4] .
- ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ... ﴾[5] .
- ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[6] .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية (٢١٤) .
(٢) سورة المسد ، الآيات (١ - ٥) .
(٣) سورة المدثر ، الآية (٢٤) .
(٤) سورة سبأ ، الآية (٤٣) .
(٥) سورة الأنبياء ، الآية (٥) .
(٦) سورة الفرقان ، الآية (٥) .

- ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١).

وقد نفى القرآن الكريم كل هذه الافتراءات فى آيات متعددة ، وبين مصدر القرآن ، وصفاته الجليلة .. ومن ذلك قوله تعالى :

- ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢).

* * *

ومن وسائل الكفار فى التضليل محاولة « تعجيزهم » لرسول الله ﷺ بمطالب لا يهضمها عقل ، ولا يستطيع أن يحققها أو يحقق بعضها إنس أو جن .. فإذا ما ظهر عجز النبى ﷺ عن ذلك أشاعوا أنه ليس بنبى مرسل ، لأنه عاجز عن الإتيان بالمعجزات .. ومن هذه الطلبات التعجيزية ما عرضه القرآن الكريم فى الآيات التالية من سورة الإسراء :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِى الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ (٣).

وكان الإيجاز المكثف هو أقوى الردود وأوفاها على هذا التعجيز المفصل .. إن الله لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .. والاعتراض على الرسول البشر ،

---

(١) سورة النحل ، الآية (١٠٣) . (٢) سورة الحاقة ، الآيات (٤٠ - ٤٢) .

(٣) سورة الإسراء ، الآيات (٩٠ - ٩٥) .

أو بشرية الرسول ﷺ كان قائمًا فى نفوس الناس من قديم .. ولكن الله لم يستجب للناس فى هذه لطفًا بهم ، وذلك لاختلاف الطبيعتين . خَلْقًا وخُلقًا : الملائكة الذين خلقوا من نور ، والبشر الذين خلقوا من طين[1] .

* * *

وقد رسم القرآن الكريم ملامح صورة المنافقين فى دقة ووضوح فاضحًا أكاذيبهم وأباطيلهم ، كما نرى فى الآيات الآتية :

- ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى الْأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾[2] .

لقد قدمت آيات سورة البقرة صورة جامعة للمنافقين ، وثمة ملامح أخرى عرضتها آيات أُخر ، منها :

- ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[3] .

وهم جبناء كذابون ، ولا يبالون أن يحلفوا بالله كذبًا وزورًا جريًا وراء نفع أو اتقاء لعقاب .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٥/٧٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآيات (٨ - ١٦) .
(٣) سورة التوبة ، الآية (٦٧) .

- ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ (١).

- ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢).

- ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ... ﴾ (٣).

- ﴿ اتَّخَذُواْ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٤).

ولخطورة النفاق حكم الله سبحانه وتعالى على النفاق بأنه كفر ، وأن مصير المنافقين والكفار سواء : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (٥).

وفى الآية توجيه كريم للمسلمين ألا يجالسوا المنافقين وهم يخوضون فى أحاديث الكذب والنفاق حتى لا يحكم عليهم - وهم ساكتون لا يعترضون - بأنهم منهم ، أو أنهم قصروا فى الدفاع عن الإسلام .

ومنهم جماعة يؤذون رسول الله ﷺ ويعيبونه ، ويقولون هو أذن سامعة يسمع من كل أحد ما يقول فيقبله ويصدقه (٦).

ومنهم من يقول: إن عاتبنى حلفت له ما قلت هذا ، فيقبله ، فإنه أذن سامعة ، أى مستمع وقابل (٧) ، وفى هؤلاء يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٨).

* * *

---

(١) سورة التوبة ، الآية (٥٦) .
(٢) سورة التوبة ، الآية (٦٢) .
(٣) سورة التوبة ، الآية (٧٤) .
(٤) سورة المنافقون ، الآية (٢) .
(٥) سورة النساء ، الآية (١٤٠) .
(٦) « تفسير الطبرى » (٢١٥/١٠) .
(٧) « تفسير القرطبى » (٣٠٣١/٤) .
(٨) سورة التوبة ، الآية (٦١) .

أما اليهود فكان أمرهم أشد وأنكى .. فقد دأبوا على الإساءة إلى الرسول ﷺ والصحابة ، ووصف الله سبحانه وتعالى بما لا يصدر إلا من الكفار والملاحدة .. مع أنهم أهل كتاب .. من ذلك الخبر التالى الذى نقله إلينا ابن هشام فى « السيرة النبوية » :

دخل أبو بكر بيت « المدراس » (١) على يهود وقد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له : « فنحاص » ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر آخر من أحبارهم ، فقال أبو بكر - رضى الله عنه - لفنحاص : ويحك يا فنحاص ! اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا لرسول الله ﷺ ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة والإنجيل ؛ فقال فنحاص لأبى بكر : ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنى ، ولو كان عنا غنيًا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان عنا غنيًا ما أعطانا الربا .. فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص شديدًا ، وقال : والذى نفسى بيده ، لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك .

فذهب إلى رسول الله ﷺ شاكيًا ، وشرح أبو بكر - رضى الله عنه - للنبى ﷺ ما حدث ، وأنكر فنحاص أن يكون قد قال ما قال ، ومن الآيات التى نزلت فى هذا الموقف : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٢) .

ويظهر أن حرصهم على الحياة ، وحبهم للمال دفعهم - على سبيل الإسقاط - إلى وصف الله - جل وعلا عما يفترون - بما عبرت عنه الآية التالية :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) المدراس : البيت الذى يتدارس فيه اليهود كتابهم .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (١٨١) - « سيرة ابن هشام » (٥٥٩/١) .

(٣) سورة المائدة ، الآية (٦٤) .

نقلت الآية اتهامهم الباطل لذات الله بالبخل ، وجاءت الآية بالرد الفورى على هذه الأبطولة :

(أ) بالدعاء عليهم ولعنهم .

(ب) بنفى التهمة ونسبة الغنى والكرم إليه سبحانه .

(ج) من صفاتهم التمادى فى الطغيان والكفر حسدًا من عند أنفسهم كلما رأوا ما ينزل على النبىَ ﷺ من نعماء .

(د) تجذر العداوة والبغضاء فى قلوبهم ، فهم لا يجتمعون على حق أبدًا .

(هـ) إفساد الله كيدهم وخططهم للإيقاع بالمؤمنين .

(و) ومن سجاياهم السعى فى الأرض بالإفساد كأن الإفساد والتخريب رسالتهم فى الأرض .. والله لا يحب من هذه صفته [1] .

* * *

وتُلازمهم لعنة الله إذ يعلنون لكفار قريش أنهم أحق بالأمر من محمد وأصحابه ، وأن عقيدتهم الوثنية خير من الإسلام .

ففى العام الخامس للهجرة انطلق نفر من زعماء اليهود منهم سلام بن أبى الحقيق النضرى ، وحيى بن أخطب النضرى ، وهوذة بن قيس الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، وقدموا على قريش فى مكة فدعوهم إلى حرب الرسول ﷺ وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

فقالت لهم قريش : يا معشر يهود .. إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفدينُنَا خير أم دينه ؟

قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه [2] .

---

(١) انظر : « تفسير ابن كثير » (٩١/٣) .

(٢) « سيرة ابن هشام » (٢١٤/٢) .

وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾[1].

* * *

واستقراء هذه الآيات - وهى بعضٌ قليل من كلٍّ كثير - يضع أمامنا بعض ملامح القرآن الكريم فى التعامل مع خطاب أعداء الإسلام ، وتفنيد أباطيلهم وأكاذيبهم :

١ - تراوح المعروض من خطابهم ، وكذلك تفنيده بين الإيجاز والتفصيل ، وذلك فى توازن دقيق يراعى مقتضى الحال .

٢ - النظر إلى مصادر السيرة النبوية ، ومعارضة أخبارها بما جاء من آيات يصل بنا إلى نتيجة مطردة .. وهى أن القرآن الكريم قَدَّم خطاب الكفار والمنافقين واليهود بأداء مساوٍ أو مقارب جدًّا لأدائهم .

٣ - اعتمد القرآن فى تفنيد دعاوى المخالفين - زيادة على الأدلة العقلية - على نوعين من الأدلة - أو وسائل الإيضاح :

(أ) **الأول** : الحاضر المشهود : ومثاله أن الكفار كانوا يزعمون أن القرآن ليس من عند الله .. وأن محمدًا ﷺ كان يقصد غلامًا روميًّا نصرانيًّا فى مكة اسمه (جبر) يعلم محمدًا ﷺ القرآن ويمليه عليه . وقد نقض القرآن هذه الفرية بقوله : إن القرآن بلسان عربى مبين ، وهذه الحقيقة لا ينكرها الكفار .. وهذا الغلام (جبر) الذى يلحدون إليه - أى يشيرون إليه مُدَّعين أنه معلم محمد ﷺ - لا يعرف العربية ، ولا يتحدث إلا الرومية .. وهى أيضًا حقيقة لا ينكرها الكفار . وبهذا الدليل الحاضر المشهود نسف القرآن ادعاءهم[2] .

والثانى : التاريخى الغائب .. وإن كانوا يعرفون كثيرًا منه ، كتاريخ الأمم ،

---

(١) سورة النساء ، الآيتان (٥١ ، ٥٢) .

(٢) انظر : « تفسير الطبرى » (٢٣٣/١٤) .

وقصص الأنبياء ، وأخبار الطغاة من الملوك .. فالقرآن - على سبيل المثال - وهو يرد بعض حججهم - يذكرهم بإصرار الطغاة - من أمثال فرعون وقارون ممن أهلكهم الله - على كفرهم لأن المرسل بشر .. وليس ملاكًا .

٤ - وظف القرآن فى تفنيد دعاوى المخالفين طريقتى السلب والإيجاب ، أو النفى والإثبات ، فينفى عن الذات الإلهية والرسالة والرسول ما تقوّل به الكفار ، وأثبت ما هو لها نقيض .. فينفى عن القرآن أن يكون قول شاعر ، أو قول كاهن ، ويثبت له : أنه قول رسول كريم ﷺ .

وقد يكون النفى قبل الإثبات بطريقة ضمنية ، كما فى آية المائدة التى ذكرناها من قبل ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ** ... ﴾ [سورة المائدة ، الآية ٦٤] .

٥ - وجاء التهديد والوعيد فى مواقعه المناسبة من سياقة الآيات .. فمن لا يعمل عقله ، ويؤثر أن يعيش ببصيرة عشواء ، وقلب أعمى كان تهديده وإنزال العقاب به أمرًا يتفق مع طبيعة العدل .. وصدق الشاعر إذ قال :

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا ... فالحرب أجدى على الدنيا من السَّلَمِ
والشر إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعًا وإن تلقه بالشر ينحسم

٦ - عرض خطاب الكفار مصحوبًا بالرد عليه - وهو رد يخاطب العقل والشعور - ووراءه أهداف نبيلة أهمها :

(أ) إقناع الضالين بترك الكفر والضلال ، واعتناق الإسلام دينًا .

(ب) تجذير الإيمان فى نفوس المسلمين ، ووقايتهم من الوقوع فى الشك الذى يثيره أعداء الإسلام وهم يرون القرآن وقد فَنَّدَ مفترياتهم بالدليل الناصع ، والحجة الدامغة .

* * *

ومرة أخرى : أدعو القارئ أن يعيد قراءة الصفحات السابقة ، وبعدها مباشرة يعود إلى ما استخرجناه من معجم لغوى لحيدر حيدر ، والذى سجلناه فى ختام القسم الأول من هذا الكتاب ، ليرى إن كان يجوز لحيدر أن يستبيح ما استباح قياسًا على

ما عرضه القرآن من حجج المشركين ؟ وهل أصاب من زرع فى صحيفة « القاهرة » هذا العنوان المثير : هل نحذف الآيات التى تعرض حجج المشركين من كتاب الله ؟ ويواصل تساؤله داخل المقال : ... ألم يعترف القرآن بالكافرين وحقوقهم .. بل وأورد حججهم بين دفتيه نتلوها في صلواتنا فننال الجزاء الكبير ؟ هل زعزع هذا من عقيدة المصلين شيئًا ؟ وهل سنطالب الوزارة بحذف هذه الآيات الكريمة من كتاب الله أيضًا ؟ وأى عقيدة تلك التى تهترئ لجمل معدودة سطرت فى أحد الكتب [1].

وأمام قوله : (جمل معدودة) يؤسفنى أن أؤكد أن الكاتب لم يقرأ رواية حيدر ، بل لم يتصفحها ، ولكنى أكرر : ليعد الكاتب الكريم إلى الصفحات السابقة .. وليعقد موازنة سريعة بين ما ذكر فيها وبين المعجم الحيدرى الهابط الساقط وأترك الحكم بعد ذلك لبصيرته وذائقته .

* * *

ومرة أخرى أقحم بعض التنويريين جدًّا القرآن الكريم فى الدفاع عن حيدر وروايته : لماذا تحرمون على حيدر الكلام فى الجنس ، وعرض مشاهد جنسية فى سياق روائى ، مع أن القرآن ذكر أسماء الأعضاء الجنسية صراحة ، وبه كذلك مشاهد جنسية صارخة ، كما أنه تحدث عن الشذوذ الجنسى فى قوم لوط ؟ [2].

والإسلام يعترف بالجنس ، وعمق تأثيره على الوجود الإنسانى .

ولا يغفل الإسلام عما يحدثه التجاذب الفطرى بين الجنسين من مشاعر وخواطر وأفكار وسلوك .. ولكنه يقيسها بمقياسه الدائم الذى يقيس به كل شىء : فما سار مع الناموس ، ناموس الحياة والكون فهو صالح ، وهو صواب .. وما خالف هذا الناموس فهو خطأ ، وهو عمل غير صالح .

إنه لا ينكر الجنس ، وما يرف حوله من مشاعر وأفكار لأن منهجه الذى يسير

---

(١) محمد مسعد - مجلة القاهرة - العدد ٥ - ٢٠٠٠/٥/١٦

(٢) من حديث أحد الزملاء في مناقشة هاتفية مساء ٢٠٠٠/٥/٢٧ ، وقد أخذت نفسى بما طلبه من عدم ذكر اسمه « حتى لا يغضب العامة » على حد قوله !!

عليه فى معالجة النفس هو الاعتراف بالطاقات البشرية كلها نظيفة ، وفى معرض النور .. لا مستقذرة ، ولا مختلسة فى الظلام[1].

ومشاعر الجنس ككل شيء آخر فى القاموس الكبير : «كل ما يؤدى منها إلى الصعود والرفعة .. كل ما يؤدى إلى القوة والتماسك .. كل ما يؤدى إلى التوازن .. كل ما يؤدى إلى جمال المشاعر وصفاء النفوس ، وطلاقة الأرواح فهو جميل ، ومباح ، ومطلوب .

وكل ما يؤدى إلى الهبوط والنكسة إلى عالم الحيوان ، والضعف والانحلال والتفكك ، والانحراف الذى يفقد التوازن ، وغلظ المشاعر ، وعرامة الشهوة التى تخنق طلاقة الروح فهو قبيح .. ومنكر .. وحرام[2].

والجنس وموقف الإسلام منه موضوع كبير يحتاج إلى مؤلفات ضخمة .. ونكتفى فى هذا المقام بالإجمالة السابقة التى تلقى إضاءة خاطفة على موقف الإسلام من الجنس ، لنلقى إضاءات سريعة على أمور ثلاثة فى القرآن :

الأول : الأسماء الجنسية فى القرآن ، ويعنى الزميل أسماء الأعضاء الجنسية .. والواقع أن القرآن لم يذكر منها إلا كلمة « فرج » وجاءت مضافة إلى مريم - عليها السلام - العذراء فى مجال وصفها بالعفة ، وقد رماها المبطلون بالزنى :

- ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[3].

- ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾[4].

وجاءت كلمة « فروج » بالجمع خمس مرات فى القرآن الكريم ، فى مجال الإشادة بالمتعففين الذين يصونون أعراضهم من السقوط ، ودعوة المسلمين لذلك :

- ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾[5].

---

(١) محمد قطب : منهج الفن الإسلامى ٧١ .
(٢) نفسه ٧٢ .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية (٩١) .
(٤) سورة التحريم ، الآية (١٢) .
(٥) سورة المؤمنون ، الآية (٥) .

- ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ... ﴾ (1) .

- ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ... ﴾ (2) .

والعرب كانوا يستخدمون الكلمة للرجل والأنثى على سواء ، بلا حرج .. وإن استخدموا تكنيات كملمس العفة ، وغير ذلك . فالقرآن إذن لم يستخدم « أسماء جنسية صارخة ... » كما ذكر صاحبى فى مهاتفته .

* * *

أما تصوير القرآن لطبيعة قوم لوط - عليه السلام - فى « شذوذهم الجنسى » فكان بالتلميح الذى جاء أقوى إيحاء ، وأشد تأثيرًا فى المشاعر والعقول من التصريح :

- ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۞ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (3) .

ومشهد آخر يدين قوم لوط - عليه السلام - بإصرارهم على إتيان الفاحشة الشاذة ، ويعتبر آخر المشاهد فى حياة هؤلاء العصاة .. فقد بعث الله ببعض ملائكته ، ونزلوا ضيوفًا على لوط - عليه السلام - لقد جاءوا فى صورة فتية فيهم جمال وفتنة وصباحة وإشراق ، ففزع لوط خوفًا عليهم من قومه الذين علموا بوجودهم ، وأصروا على أن يرووا نهمهم الشهوانى الشاذ منهم ، وعرض لوط بناته لهؤلاء ليتزوجوا بهن ، فرفضوا هذا العرض رفضًا حاسمًا ، فكان الانتقام الربانى الرهيب (4) :

- ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ (5) .

---

(1) سورة النور ، الآية (٣٠) .

(2) سورة النور ، الآية (٣١) ، وانظر : سورة الأحزاب ، الآية (٣٥) ، وسورة المعارج ، الآية (٢٩) .

(3) سورة الأعراف ، الآيتان (٨٠ ، ٨١) .

(4) انظر : (سيد قطب : فى ظلال القرآن ١٩١٣/٤ - ١٩١٥) .

(5) سورة هـود ، الآية (٨٢) .

والمشهد بتمامه عرض فى الآيات الآتية :

- ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۞ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَـٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۞ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۞ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (١) .

ولننظر إلى تعبير لوط - عليه السلام - عن شذوذ قومه :

- ﴿ ... أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ ... ﴾ (٢) .

- ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ... ﴾ (٣) .

ولننظر إلى تعبير قومه عن شذوذهم :

- ﴿ ... مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ .

وكلها عبارات تعبر فى دقة عن المعنى المقصود .. ليس هذا فحسب .. ولكن تلقى بدلالاتها وإيحاءاتها القوية المؤثرة .. فقولهم : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ تعبر عن المعنى المقصود وهو « ممارسة الشذوذ » ، وتوحى - زيادة على أداء المعنى - بتمكن آفة الشذوذ منهم ، وشيوعها فيهم ، واشتهارهم بها .

وواضح أن التعبير عن هذه الآفة جاء بأسلوب يتفق مع ما يتسم به البيان القرآنى من سمو وجلال ورفعة حتى فى التعبير عن الأمور والنوازع الدنيا .. وأدعو القارى أن يعود إلى الكلمات الحيدرية التى عبرت عن هذه النوازع ومواقف السقوط ، ليؤمن بخطأ - بل بخطيئة - من أراد أن يغالط ، ويشبه أو يقيس هذا على ذاك .

* * *

---

(١) سورة هود ، الآيات (٧٧ - ٨٠) .

(٢) ، (٣) سورة الأعراف ، الآيتان (٨٠ ، ٨١) .

كان حديث القرآن عن الشذوذ الجنسى ومنهجه فى التعبير عن هذه الآفة هو الأمر الثانى .. أما الأمر الثالث الذى أثاره الزميل هاتفيًا فهو أن القرآن به مشهد - أو مشاهد - جنسية . لينطلق من ذلك إلى حق حيدر - بالقياس - فى عرض مشاهده الجنسية .

والمشهد المتكامل فى هذا المجال عرضه القرآن فى سورة يوسف - عليه السلام - ، وتعرضه للفتنة على يد امرأة العزيز .. ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ أنقذه منها .. يقول تعالى :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] .

فالمشهد يعرض صورة امرأة استبدت بها الشهوة العارمة ، وحاولت أن تطفئ نار شهوتها بأى ثمن ، مستبيحة لنفسها ما لا يليق بالإنسان السوىِّ : تدعوه لنفسها ، وهى الشريفة الحسيبة النسيبة ، وهو غلامها الذى اشتراه زوجها ، وجعله فى خدمتها ، وغلَّقت الأبواب - كل الأبواب حتى لا يفلت منها ، فلما حاول الإفلات منها تشبثت به ، ومزقت قميصه من دبر ، ورمت ضحيتها بدائها وانسلت ، فكذبت على زوجها ، واتهمت يوسف - عليه السلام - بأنه حاول اغتصابها .

وفى المقابل نلتقى بشخصية الطاهر العف الشريف الذى يرعى جميل سيده الذى آواه ، وأحسن مثواه ، ويخاف ربه لأنه من عباده المخلصين .. وتمتد « توابع المشهد » فى صورة يوسف - عليه السلام - ، وينتصر الحق على الباطل مهما كانت شدة المعاناة : محنة فى فتنة الجنس ، ومحنة فى سنوات السجن ظلمًا ، وكل أولئك يفرز بعد ذلك درسه الذى لا يتخلف أبدًا .. النصر للحق ولو طال الزمن .. وهذا الدرس النبيل من أهم الفروق بين الأدب الغث الهزيل ، والأدب الرفيع الجليل !!

---

(١) سورة يوسف ، الآيات (٢٣ - ٢٥) .

وهذا المشهد الذى قدمه القرآن ، والذى امتدت توابعه على امتداد قصة يوسف - عليه السلام - ، وما يهديه من دروس وعبر قصة كاملة من قصص الهبوط الجنسى ، ودفعة من دفعات العرامة الحسية التى تنسى فى ساعة الشهوة الغليظة كل اعتبار .. فكيف تجد طعم الجنس فى هذه القصة التى تتحدث عن هبوط الجنس ؟ هل تجد فى ذلك العرض الذى يهدف إلى إثارة التلذذ بالجنس ، والإعجاب بلحظه الهبوط ، والمتعة بالمشاعر المنحرفة ، والفطرة الموكوسة ؟ أم تحس - مع جمال العرض ودقته وأمانته وصراحته - بالنفور من تلك الفطرة المنحرفة والتقزز من ذلك الهبوط ؟

ذلك طريق التعبير عن مشاعر الجنس المنحرفة حين يراد التعبير عنها بطريقة الإسلام .. أمانة فى الوصف بلا إثارة جنسية ، ولا تلذيذ ، ولا إفساد »[1] .

* * *

وكما حاول أنصار رواية حيدر « توظيف القرآن » للدفاع عن الرواية ، وتبرير ما جاء بها من « سقوطات » حاول بعضهم « استدعاء » التراث للغرض نفسه ، وكانت صحيفة « القاهرة »[2] هى أبرز الصحف التى تكفلت بهذه المهمة ، وجاء العنوان الذى شغل ربع صفحة الموضوع - مثيرًا ... جد مثير :

أحرقوا كتب السيوطى والقرطبى ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، والغزالى ، وابن القيم .. واجعلوا حياتنا ظلامًا .. دامسًا !!!

والمقال - كما يظهر من عنوانه - أو عناوينه - متوقد الانفعال ، يستهله كاتبه بلال فاضل بالهجوم الضارى على الدكتور محمد عباس الذى وصفه الكاتب بأنه « أديب فاشل ، يعمل تاجرًا فى الأشعة الطبية .. حيث يجنى منها الملايين التى تمكنه من التفرغ لكتابة الصفحات الوعظية المطولة التى يختلط فيها الغث بالسمين » !!

وبعد حملة أخرى على صحيفة الشعب وحزب العمل يبدأ الكاتب فى معالجة

---

(١) محمد قطب : مرجع سبق (٧٧) .

(٢) العدد السادس ٢٣/٥/٢٠٠٠ .

موضوعه الأصلي الذى كاد يفلت من قارئه لشدة انفعال الكاتب .. والمحور الأساسى للموضوع هو : كثير من الفقهاء والعلماء الكبار من أسلافنا لهم كتب - أو فصول فى كتب - ضمت أدبًا مكشوفًا .. بل جنسيًّا صريحًا صارخًا .. وهو لا يجرؤ على نقل سطور منها حتى لا يخرجه الظلاميون من الملة .

وبعد أن يقدم كاتب المقال ثبتًا بأسماء علماء وفقهاء وأسماء كتب فيها « جنسيات صارخة » من وجهة نظره أنهى مقاله يبيت القصيد .. بالهدف الذى تغياه المقال :

« إذا كنتم ستحرقون أى رواية أو عمل أدبى لاحتوائه على ما ترونه كفرًا دون أن تنظروا إلى سياقه .. فمن باب أولى ابدءوا بحرق كل هذه الكتب ، واجعلوها ظلامًا .. رغم أن الله عَزَّ وَجَلَّ يريدها نورًا » .

وواضح أن هذا لون من الدفاع المستميت عن رواية حيدر باستدعاء تراثيات لفحول من العلماء والفقهاء والأدباء القدامى ، وضرب مثلًا بابن القيم .. فهو - كما يقول كاتب المقال - عن كتابه الطب النبوى : به فصل كامل اسمه « فى العشق - والباه » - والباه هو الجنس - حافل برواية القصص والحكايات عن الجنس والأوضاع الجنسية ، والحديث عن اللواط والعشق والزنا .. ولست أجرؤ على نقل أى سطر من سطوره هنا » .

وأقول : يا ليتك أقدمت ونشرت منه صفحة ، أو صحفتين ، ولا أقول : جرؤت .. فالمسألة ليست فى حاجة إلى جرأة .. فالفصل الذى جاء فى ثلاثين صفحة (٢٤٩ - ٢٧٨) ليس فصلًا روائيًّا قصصيًّا .. بل هو فصل طبى جمع بين : الطب النفسى ، والطب العضوى ، وهو من أحسن الفصول التى كتبها ابن القيم فى كتاب عنوانه « الطب النبوى » ، ومثل هذه الكتب العلمية الطبية تذكر الأسماء بصراحة يقتضيها الشرح والتفسير .. وليس فى ذلك ما يثير الغرائز والشهوات .. وهو فصل « تشريعى » كذلك ، يشرح فيه هدى النبى ﷺ وسلوكياته فى هذه المسائل .

ولم يتحدث عن اللواط إلا فى خمسة أسطر وعلى سبيل الإشارة إلى قوم لوط - عليه السلام - (ص ٢٦٦) . وقدم ابن القيم دراسة نفسية فقهية رائعة عن

العشق ، وأنواعه ، وحلاله وحرامه ، وهدى النبى ﷺ فى علاجه (٢٦٥ - ٢٧٨) .

وحديثه عن طرق الجماع حلالها وحرامها ، والصحى منها والضار هو حديث الطبيب الفقيه فى كتاب طبى فقهى . يمتد الانتفاع به إلى عصرنا الحاضر [١] .

* * *

ويقول كاتب المقال : « العلامة أبو حامد الغزالى يتحدث فى كتابه « إحياء علوم الدين » تحت عنوان : « القول فى شهوة الفرج » حديثًا صريحًا واضحًا عن الجنس والزنا واللواط ، موردًا حكايات وقصصًا مكشوفة ، ومستخدمًا إياها لإيضاح آداب الإسلام وتعاليمه » .

وما أشار إليه كاتب المقال خضع أيضًا للتهويل ، وبحثت عما فيه من « الحكايات والقصص المكشوفة » فلم أجد .. وقد جاء الحديث عن شهوة الفرج فى تضاعيف كتاب كامل عن آداب النكاح (٦٨١ - ٧٥٢) من المجلد الأول من كتاب « إحياء علوم الدين » [٢] .. وهى دراسة فقهية نافعة ، وخصوصًا للدارس المتخصص .

ولكنى لا أنكر أن هناك كتبًا فى الإلحاد والزندقة تصدى لها الفقهاء والعلماء قديمًا بالنقض والتفنيد . وهناك كتب فى الخلاعة والمجون أراد بها أصحابها التسلية ، وتدليك الغرائز والتظرف .. ولكن من قال : إن هذه الكتب يجب أن تكون المثل الأعلى الذى يحتذيه الكُتَّاب فى عصرنا ، أو على الأقل يستأنسون به ؟ لماذا لا نوجه شبابنا وأقلامنا إلى الأدب الجاد البناء .. بدلًا من أدب المجون والسقوط والشذوذ ، ونحن فى زمن يحتاج إلى بناء أمتنا على أسس متينة من الخلق القويم ، والقيم الإنسانية العليا ، حتى نستطيع أن نتحصن ، ونتصدى لتيارات الإباحية والعولمة التى تهب علينا فى قوة وعنف .

---

(١) اعتمدت على طبعة مؤسسة الرسالة (ط ٣ - ١٩٨٢) - حقق نصوصها وخرج أحاديثها ، وعلق عليها الأستاذان / شعيب الأرنؤوط ، وعبد القادر الأرنؤوط .

(٢) اعتمدنا على طبعة دار الشعب بالقاهرة (د . ت) .

وهناك حقيقة يجب ألا نغفل عنها فى هذا المقام .. وهى أن كتب التراث .. ومنها الكتب التى استشهد بها الكاتب ، لم يكن ينسخ منها إلا عدد قليل جدًّا لأنها كانت تكتب باليد ، وقد يكتب الكتاب ، ولا يطلع عليه إلا صاحبه ، وكثيرًا ما تدور فى كتب التراث مثل العبارة الآتية : « ... وقد علمت وأنا ببغداد أن فلانًا كتب كتابًا فى موضوع كذا ... وليس منه إلا نسخة فى خزانة فلان ... » ، فمسألة النشر والانتشار فى هذه الأيام كانت صعبة جدًّا ، ومحدودة جدًّا .. بعكس الزمن الذى نعيشه .. زمن العولمة والتقنية والانتشار السريع .

* * *

[٤]

حـرية الإبـداع
أم حـرية العـدوان ؟!!

فى زحام الحملات العاتية التى شنها « التنويريون جدًّا » على « الظلاميين » وما زالوا يشنون لم نعدم للأسف من يصرخ بصوت متشنج :

« إن هؤلاء يريدون أن يحكمونا بشرائع الغاب التى كانت سائدة من خمسة عشر قرنًا حيث لا حرية .. والأمر كان للسيف والسهم والرمح ... » وهى عبارة تشبه إلى حد كبير ما أجراه حيدرحيدر على لسان « مهيار الباهلى » ، والعهد المشار إليه هو فترة النبوة ، وعهد الخلفاء الراشدين .

ولا أملك إلا أقول : ﴿ ... كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (١)، فالإسلام هو دين الحق ، ودين الحرية .

وقد جاء الإسلام ليرفع من كرامة الإنسان – من حيث هو إنسان – فكرمه بالعقل ، وكفل له الرزق والطيبات ، وحقق له أفضلية على كثير من المخلوقات .. يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (٢) .

فالإسلام إذن من منطلق « تكريم بنى آدم » عمل على تحرير الإنسان من الرق .. ليس هذا فحسب .. بل كان أول نظام يمنح الإنسان – بصرف النظر عن جنسه ولونه ومعتقده – ما يمكن أن نسميه « الحرية الشاملة » .. ولا يعنى هذا الحرية المنطلقة المتسيبة بلا ضوابط ولا قيود .. فتلك هى الفوضوية بعينها .. الفوضوية التى تقود الفرد إلى الضياع وفساد الدين ، وتؤدى بالمجتمع إلى الخراب والانهيار .. ولكن المقصود بالحرية الشاملة تلك التى تتناول كل جوانب الحياة ،

---

(١) سورة الكهف ، الآية (٥) .   (٢) سورة الإسراء ، الآية (٧٠) .

وتمكن الإنسان من العيش والمعايشة بإرادته دون أن يكون مقهورًا أو مظلومًا ، أو واقعًا تحت ضغط غير مشروع ، أو هي كما عرَّفها أحد المفكرين المحدثين : « الانطلاق المشروع في الرأى .. والاعتقاد .. وفى القول .. وفى الفعل .. وفى الاتصال بالغير »[1] .

* * *

وقد كفل الإسلام للإنسان حرية التفكير ، وحرر العقل الإنسانى من الأوهام ، والخرافات ، والوقوع فى أسر التقليد الأعمى .. ومن حق الإنسان أن يتمتع بهذا النوع من الحرية .. فقد خلقه الله من مادة « الطين » ، ونفخ فيه من « روحه » ، وكرمه « بالعقل » الذى وعى حقيقة الأشياء اسمًا ومسمى .. والعقل هو الذى كفل له أن يكون خليفة الله فى أرضه :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[2] .

ولقد كَرَّم الله الإنسان بالحواس – لا لذاتها – ولكن بقدر ما توصل صاحبها إلى طريق الفهم والاهتداء ، والتقوى والإصلاح .. ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[3] .

وإذا لم تستطع الحواس أن ترتفع بالحقيقة الإنسانية فى نفس الإنسان ، ولم تَكُنْ وسائل لتحصيل العلم ، والوصول إلى اليقين والهدى ، والتحرر من ربقة الظلام فوجودها كعدمها سواء ، بل إن الإنسان فى هذه الحالة يكون أحط مكانة من

---

(١) الدكتور محمد البهى : الإسلام والفلسفات المعاصرة ٥٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآيات (١٣ – ٣٣) . (٣) سورة البلد ، الآيات (٨ – ١٠) .

البهائم .. لأن البهائم تستخدم حواسها بأقصى طاقاتها حفاظًا على بقائها .. أما هو فقد عطّل حواسه التى أنعم الله بها عليه لاستعمالها كصاحب رسالة كرمه الله باستخلافه عنه فى الأرض .. وما قيمة العقل إذا ما عطلت طاقته عن الخير ؟ وما قيمة العين إذا لم تبصر طريق الهدى ؟ وما قيمة الأذن إذا لم تصغ لصوت الحق واليقين ؟

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١).

والقرآن الكريم لا يذكر العقل إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به ، والرجوع إليه ، ولا تأتى الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة فى سياق الآية .. بل هى تأتى فى كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة ، وتكرر فى كل معرض من معارض الأمر والنهى التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله ، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه (٢).

وبهذا المفهوم الشامل للعقل ، وتحريرًا له من الجمود والتوقف والتخلف عن التفاعل الحى مع ما يرى من مظاهر الكون والحياة دعا الإسلام إلى النظر والتفكير والتأمل ، ونعى على الذين لا يفكرون ، ولا يتأملون خلق الله ، ولا يعملون عقولهم خلوصًا إلى اليقين ..

﴿ وَفِى الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٣).

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِى أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ... ﴾ (٤).

وفى عشرات من الآيات القرآنية .. بل مئات تتكرر كلمة « العقل » وما ارتبط بها من ألفاظ « الفقه » ، و« العلم » ، و« التفكر » على النحو الآتى :

---

(١) سورة الأعراف ، الآية (١٧٩) .

(٢) العقاد : التفكير فريضة إسلامية ص ٥ .

(٣) سورة الذاريات ، الآيتان (٢٠ ، ٢١) . (٤) سورة الروم ، الآية (٨) .

(أ) « عقل » ومشتقاتها : (عقلوه - تعقلون - تعقل ... إلخ) ذكرت ٤٨ مرة .

(ب) « علم » ومشتقاتها : (علم - يعلم - يعلمون ... إلخ) ذكرت ٨٦٦ مرة .

(ج) « فقه » ومشتقاتها : (تفقهون - تفقه - يفقهوا - يفقهوه ... إلخ) ذكرت ٢٠ مرة .

(د) « فكر » ومشتقاتها : (فكر - تتفكروا - يتفكرون ... إلخ) ذكرت ٨٧ مرة .

(هـ) « وعى » ومشتقاتها : « تعيها - أوعى - واعية ... إلخ) ذكرت ٤ مرات .

ومجموع الألفاظ فى المواد التى ذكرتها ١٠٤٣ (ثلاث وأربعون وألف) لفظة ، وكلها تدور على تقدير القرآن للعقل والنظر والتفكير .. وهذه المواد التى عرضنا لها هى المواد المباشرة . وهناك مئات من الألفاظ تدور حول العقل والتفكير بطريقة غير مباشرة لم نعرض لها [١] .

* * *

والإسلام يقرر للإنسان أن يفكر فيما شاء كما شاء وهو آمن من التعرض للعقاب على هذا التفكير ، ولو فكر فى إتيان أعمال تحرمها الشريعة .. والعلة فى ذلك أن الشريعة لا تعاقب الإنسان على أحاديث نفسه ، ولا تؤاخذه على ما يفكر فيه من قول أو فعل محرم .. وإنما تؤاخذه على ما أتاه من قول أو فعل محرم .. وذلك معنى قول الرسول ﷺ : « **إن اللّه تجاوز لأمتى عما وسوست أو حدثت به أنفسها ، ما لم تعمل به أو تتكلم** » [٢] .

وقد تدرج القرآن الكريم فى تدريب الناس على التفكر فى مراحل متعاقبة :

---

(١) انظر : جابر قميحة : المدخل إلى القيم الإسلامية ٦٤ - ٦٧ .

(٢) عبد القادر عودة : التشريع الجنائى الإسلامى ٣١/١ .

فالطريق الأول : إعمال الفكر بالنسبة للمحسوسات والمرئيات [١] .

والطريق الثانى : يخاطب فيه القرآن الناس لإقناعهم عن طريق الأسباب والمسببات [٢] .

والطريق الثالث : وهو طريق الاتجاه الرفيع بعد أن يكون العقل قد تدرج فى التفكير حتى وصل إلى هذه المرتبة ، وفى ذلك يقول تعالى :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [٣] .

كما أن هناك طرائق أخرى للفكر تجمعها جميعًا آية واحدة هى قوله تعالى : **﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾** [٤] .

هذه هى حرية الفكر والتفكر فى الإسلام ، ربطها الله سبحانه وتعالى بوجود الإنسان ذاته ، ودعاه القرآن إلى استعمال حقه فى التفكير والتأمل مستخدمًا طاقاته العقلية دون أن يعطلها بالتقليد الأعمى ، أو يهدرها فيما لا ينفع ولا يفيد .

وكذلك كفل الإسلام للإنسان حرية الاعتقاد .. وكان من قواعد الإسلام الراسخة قاعدة **﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... ﴾** [٥] ، و **﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾** [٦] ، أما الرسول – عليه الصلاة والسلام – فما عليه إلا البلاغ **﴿ ... وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾** [٧] . وسبيل هذا البلاغ هو الحكمة والموعظة الحسنة [٨] .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [٩] .

بل إن الإسلام ليأمر النبى – عليه الصلاة والسلام – وكل مسلم ألا يغلق بابه

---

(١) ارجع إلى سورة الغاشية ، الآية (١٧) وما بعدها ، وسورة ق ، الآية (٦) وما بعدها .

(٢) راجع سورة النحل ، الآية (١٠) وما بعدها .

(٣) سورة الذاريات ، الآية (٢١) .

(٤) سورة فصلت ، الآية (٥٣) ، وانظر الدكتور العيلى : الحريات العامة ٤٣٥ ، ٤٣٦ .

(٥) سورة البقرة ، الآية (٢٥٦) . (٦) سورة الكافرون ، الآية (٦) .

(٧) سورة العنكبوت ، الآية (١٨) ، وانظر سورة النور ، الآية (٥٤) .

(٨) انظر : سورة النحل ، الآية (١٢٥) .

(٩) سورة يونس ، الآية (٩٩) .

فى وجه مشرك استجار به .. بل عليه أن يجيره ويحميه ولا يتخلى عنه إلى أن يبلغ برّ الطمأنينة والأمان ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ... ﴾ (١) .

* * *

وقد كانت عهود النبى ﷺ وخلفائه للذميين دليلًا قاطعًا على كفالة الحرية الشاملة لهم وخصوصًا حرية الاعتقاد ، كما نرى فى عهد النبى ﷺ لنصارى نجران (٢) ذلك العهد الذى أكده ووثقه خلفاؤه الأربعة .. فنرى فى عهد أبى بكر - رضى الله عنه - لهم ينص العهد على أنه « أجارهم بجوار الله وذمة محمد النبى ﷺ على أنفسهم وأرضهم وملتهم - أى جماعتهم - وأموالهم وحاشيتهم ، وعبادتهم ، وغائبهم ، وشاهدهم ، وأساقفتهم ، ورهبانهم ، وبيعهم .. » (٣) .

وحينما فتح المسلمون إيلياء (القدس) كتب عمر رضى الله عنه كتابًا سنة (١٥ هـ) نص فيه على أنه « .. أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها ، وسائر ملتها ، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ، ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ... » (٤) .

وعقد الأمان أو عقد الذمة يوجب على المسلمين حماية الذميين من العدوان الخارجى ، ومن الظلم الداخلى ، وحماية أموالهم ، وتأمينهم عند العجز والشيخوخة والفقر ، وكفالة حرية التدين والاعتقاد والعمل والكسب (٥) .

يقول ابن حزم فى كتابه « مراتب الإجماع » : « من كان فى الذمة وجاء أهل

---

(١) سورة التوبة ، الآية (٦) .

(٢) كان ذلك فى العام العاشر للهجرة . انظر : نص العهد فى تاريخ الطبرى ١٢٨/٢ ، والخراج لأبى يوسف ١٥٧ . وفى الخراج كذلك نص عهد عمر رضى الله عنه لهم ١٦١ ، ونص عهد عثمان رضى الله عنه ١٦٢ .

(٣) الخراج لأبى يوسف ١٦٠ .   (٤) تاريخ الطبرى ٦٠٩/٣ .

(٥) انظر فى تفصيل ذلك : د . يوسف القرضاوى : غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى ٩ - ٢٥ .

الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ، ونموت دون ذلك صونًا لمن هو فى ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ »[1].

ومن المواقف التطبيقية لهذا المبدأ الإسلامى موقف شيخ الإسلام « ابن تيمية » حينما تغلب التتار على الشام ، وذهب الشيخ ابن تيمية ليكلم « قطلو شاه » فى إطلاق الأسرى ، فسمح القائد التترى للشيخ بإطلاق أسرى المسلمين ، وأبى أن يسمح له بإطلاق أسرى أهل الذمة .. فما كان من شيخ الإسلام إلا أن قال : « لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسارى من اليهود والنصارى . فهم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيرًا لا من أهل الذمة ، ولا من أهل الملة » . فلما رأى إصراره وتشدده أطلقهم له[2].

فاختلاف العقيدة لم يمنع المسلمين من رعايتهم للذميين والوفاء بعهودهم معهم ، وحمايتهم مما يحمون منه أنفسهم ، حتى عاش الذميون يتمتعون بالعدل والحرية شأنهم شأن المسلمين .. بل كان لبعضهم فى بعض العهود مراكز ومناصب ونفوذ وثروات تفوق ما كان عليه كثير من المسلمين .. مما لا يتسع المقام لشرحه ، وضرب الأمثلة له .

* * *

ولكن قد يتلجلج فى الخاطر تساؤل مؤداه : إذا كان الإسلام يدعو إلى حرية الاعتقاد ، ويحيطها بكل هذه الضمانات فلماذا لا يترك للمسلم حرية الارتداد عن دينه ، واعتناق دين آخر .. بل يعاقبه الإسلام بالقتل ؟ أليس فى هذا نوع من الإكراه للإنسان على البقاء على الإسلام الذى جاء بقاعدة « لا إكراه فى الدين » ؟! ولكن هذا الخاطر أو هذه الشبهة سرعان ما تنمحى إذا وضعنا نصب عيوننا الحقائق الآتية :

١ – الإسلام هو أكمل الأديان وأوفاها وأشملها ، وأكثرها رعاية لحقوق الإنسان وكرامته ، فنكوص المسلم عن الإسلام يعد إهدارًا لعقله وشخصيته بترك الفاضل إلى المفضول .

٢ – لم يجبر الإسلام أحدًا على اعتناقه .. إنما أساس دعوته إلى الناس يتمثل

---

(١) عن كتاب القرضاوى السابق ١٠ .

(٢) السابق : نفس الصفحة .

فى الحكمة والموعظة الحسنة .. وقد نص القرآن - كما رأينا - على أنه لا إكراه فى الدين .. وتَرَكَ المسلمون النصارى واليهود والمجوس فى بلاد الشام والعراق ومصر على دينهم ، ولم يفرضوا الإسلام على أحد منهم .

٣ - اعتناق الشخص للإسلام يعنى « التزامًا جادًّا » بقواعد هذا الدين ما دام قد اختاره بمحض إرادته .. وتعتبر الردة فى هذه الحال « **خيانة عظمى** » و « **إخلالاً خسيسًا** » بهذا الالتزام .

٤ - والارتداد عن الدين يؤدى إلى تصور غير صحيح لهذا الدين وأنه غير صالح ، ومن أجل هذا فكر بعض أهل الكتاب فى الدخول فى الإسلام والارتداد عنه سريعًا للإيحاء إلى الناس بعدم صلاحيته ، قال تعالى : ﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُواْ بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [١] .

٥ - والإسلام ليس بدعًا فى هذا .. فالمسيحية هى الأخرى تهدر دم المرتد عنها ، وكذلك تفعل الأديان الأخرى .

٦ - والإسلام : لا يقتل المرتد حال ارتداده ، وإنما يعطيه أمدًا يحاسب فيه نفسه ، ويستتاب فيه .. فإن لم يتب ويثب إلى صوابه قتل [٢] .

* * *

ولا قيمة لحرية الفكر وحرية الاعتقاد والتدين ما لم يكن هناك حرية التعبير ، فالفكر والاعتقاد من الأمور الخفية ، والتعبير عنهما هو المظهر العملى التطبيقى للحرية فى لونيها السابقين .

وقد رفع الإسلام « الكلمة البانية » مقامًا عَليًّا ، وسماها « الكلمة الطيبة » ، وهى تلك الكلمة الفاعلة الهادية التى تحمل العلم والحق والفضيلة والخير للناس :

﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ * تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ [٣] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (٧٢) .
(٢) انظر د . محمد حسين هيكل : الحكومة الإسلامية ١٢١ ، ١٢٢ .
وعبد الوهاب خلاف : السياسة الشرعية ٣٤ - ٣٦ .
(٣) سورة إبراهيم ، الآيتان (٢٤ ، ٢٥) .

كما ذم القرآن « الكلمة الخبيثة » التى تكُب الناس فى النار على وجوههم . كما يقول الحديث النبوى الشريف . إنها الكلمة التى تؤدى إلى تخريب الفرد وتدمير المجتمع ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (1) .

وتنطلق الكلمة الحرة لا يقيدها إلا ضوابط الخلق والنظام ، وهى – فى الواقع – ليست « قيودًا وموانع » بل هى « معايير وضوابط » .. والمسلم مطالب على سبيل الإلزام أن يواجه الباطل والمنكر باللسان إن عجز عن المواجهة والتغيير باليد ، فإذا ما قادته هذه المجابهة إلى الموت فهو الشهادة .. بل أعلى مراتب الشهادة وأكرمها .. فيقول النبى عليه الصلاة والسلام : « أكرم الشهداء على الله رجل قام إلى والٍ جائر فأمره بالمعروف ، ونهاه عن المنكر فقتله » (2) .

* * *

وانطلاقًا من هذا المفهوم الشامل السديد للحرية يكون لزامًا على المسلم أن يكون عضوًا فاعلًا فى مجتمعه ، وأن يكون صريحًا صادق العزم وهو يساهم فى معالجة قضايا أمته .. لا يسكت عن حق ، ولا يغفل عن باطل .. ولأمر ما كان الفعل ﴿ قُل ﴾ هو أكثر أفعال الأمر ورودًا فى القرآن فقد وجه للمخاطب الواحد ٣٣٢ مرة :

- ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ... ﴾ (3) .
- ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ... ﴾ (4) .
- ﴿ ... قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ... ﴾ (5) .
- ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ... ﴾ (6) .

---

(1) سورة إبراهيم ، الآية (٢٦) .
(2) انظر الغزالى : إحياء علوم الدين ١١٩٤/٧ .
(3) سورة البقرة ، الآية (١٢٠) . (4) سورة آل عمران ، الآية (٣٢) .
(5) سورة النساء ، الآية (٧٧) .
(6) سورة الأنعام ، الآية (١٣٥) .

- ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ... ﴾[1].

﴿ قُلْ ﴾ هذه الكلمة التى لا يفوقها فى العدد إلا لفظ الجلالة فى السياقات القرآنية تمثل دعوة صادقة « للإعلام » المتجدد فى مجال الحق والعدل والخير .. فالمؤمن مأمور أن يقول .. والآخر مأمور أن يسمع ، وأن يقول كذلك .. وبذلك يتواصل ترداد الدعوة ويتجدد ما دام هناك قول موجَّه ، وموجَّه فى الوقت نفسه .

وقد ربى النبى ﷺ أصحابه على أن « يقولوا » أن يعبروا عن رؤيتهم ، ولو تعارضت مع رؤيته - ما لم تكن وحيًا ، وكان يستجيب للرأى الآخر ما دام فيه خير ، وكان مبرأ من المعصية .

فى بدر أَمَرَ المسلمين أن يعسكروا فى مكان .. أبدى الحباب بن المنذر رضى الله عنه رأيًا مخالفًا .. أن ينزل المسلمون فى مكان آخر ، وقدم مبررات هذا الرأى ، فنزل النبى ﷺ عن رأيه ، وأخذ برأى الحباب .

وتكرر الأمر فى غزوة خيبر ، وأخذ النبى ﷺ برأى الحباب[2].

وفى بدر قبل تلاحم الجيشين يقول النبى ﷺ لأصحابه :

- « إنى قد عرفت أن رجالاً من بنى هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهًا لا حاجة لهم بقتالنا .. فمن لقى منكم أحدًا من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى أبا البخترى ابن هشام بن الحارث[3] فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله .. فإنه إنما أخرج مستكرهًا » .

قال أبو حذيفة بن عتبة :

- أنقتل آباءنا وأبناءنا ، وإخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس !؟ والله لئن لقيته لألحمنّه[4] بالسيف .

---

(١) سورة النور ، الآية (٣٠) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام ٦٣٠/١ .

(٣) كان أبو البخترى بن هشام أكف الناس عن رسول الله ﷺ وهو فى مكة ، وكان لا يؤذيه ، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه . وكان ممن قام فى نقض الصحيفة التى كتبت قريش على بنى هاشم وبنى المطلب .

(٤) أى لأضربنه بالسيف حتى يخالط السيف لحمه .

فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر رضى الله عنه :

- « **يا أبا حفص .. أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف ؟!** » .

وشعرأبو حذيفة بالأسى والندم فكان يقول : « ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفًا إلا أن تكفرها عنى الشهادة » . فقتل يوم اليمامة شهيدًا (١) .

* * *

وفى « أُحُد » نزل رسول الله ﷺ عن رأيه ، وأخذ بالرأى الآخر الذى يرى الخروج إلى قتال الكفار خارج المدينة ، وكان ما كان من انكسار المسلمين (٢) ، ولكن الشورى ظلت قاعدة ثابتة فى الحكم والسلوك .

وفى غزوة « الخَنْدق » ، وفى صلح « الحديبية » ارتفعت كذلك أصوات تعبر عن رأى أصحابها فى مسائل عامة كان وراءها دائمًا حسن النية والحرص على مصلحة المسلمين .

وكان يوم السقيفة - بُعيْد وفاة رسول الله ﷺ يوم ممارسة حقيقية « للتعددية التعبيرية » .. آراء طرحت .. ومناقشات طالت .. وكُلٌّ يقدم أسانيده وحججه .. ولا مانع أن يكون هناك بعض الحدة والانفعال ، ثم كان الانتصار لأنصع الآراء وأقواها وأدخلها فى الحق ، وأجدرها بتحقيق مصلحة الإسلام والمسلمين .. وبعد ساعات طالت يجمع الحاضرون على « الخليفة » أبى بكر الصديق رضى الله عنه (٣) .

---

(١) سيرة ابن هشام القسم الأول ٦٢٩ .

وأعتقد أن عامة المسلمين لم يكونوا يعلمون آنذاك أن العباس كان بمثابة عين للرسول - عليه الصلاة والسلام - فى مكة وكان يكشف له أسرارهم فى كتب يبعث بها سرًّا للنبى ﷺ [انظر للمؤلف : أدب الرسائل فى صدر الإسلام - الجزء الأول ٢٢ - ١٠١] .

وقال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : « كنت غلامًا للعباس ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأسلمت أم الفضل ، وأَسْلَمتُ ، وكان العباس يهاب قومه ، ويكره خلافهم ، وكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مال متفرق فى قومه » . [سيرة ابن هشام القسم الأول ٦٤٦] .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام ٦٣/٢ وما بعدها .

(٣) سيرة ابن هشام ٦٥٦/٢ .

يقول أستاذنا الدكتور ضياء الدين الريس :

« إن مساجلات الرأى دارت فى هذا الاجتماع بحرية وفى صراحة .. بحيث مثلت وجهات النظر المختلفة حتى أنها دعت كاتبًا غربيًا هو الأستاذ « ماكدونالد » أن يشهد بأن هذا الاجتماع يذكر إلى حد بعيد بمؤتمر سياسى دارت فيه المناقشات وفق الأساليب الحديثة[١] .

وفى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ووجه بمعارضة قوية حين قرر محاربة المرتدين ، وحين قرر تأمير أسامة بن زيد رضى الله عنه على جيش لقتال الروم ومن والاهم فى شمال الجزيرة .

وفى عهد عمر رضى الله عنه تعارضه امرأة فى مسألة المهور ..

ويهدده رجل من عامة الناس أنه يعامله بالسيف إن وجد فيه اعوجاجًا ..

ويهدده آخر بأنه لا طاعة له فى عنقه لأنه رآه يلبس ثوبًا ضافيًا ظن أن فيه جورًا على مال المسلمين ..

وعارضه جماعة من المسلمين على رأسهم بلال رضى الله عنه لأن عمر رضى الله عنه رفض توزيع أرض السواد على الفاتحين[٢] .

وتعددت صور « الصوت الآخر » وتحول بعض هذه الأصوات إلى فتنة ومروق كما نرى فى حالة الخوارج الذين كفَّروا الخلفاء الراشدين ، وكل المسلمين إلا فرقتهم ، ورفعوا السلاح ، وأراقوا الدماء .. ومع ذلك لم يكفرهم الإمام علىّ رضى الله عنه .. ولما سئل : أكفار هُمْ ؟ أجاب : « من الكفر فروا .. هم إخواننا بالأمس .. بغوا علينا اليوم ، لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ما أقاموا الصلاة » .

* * *

هذه بعض ملامح الحرية فى الإسلام .. وهذه بعض ممارساتها العملية فى عهد النبوة والخلافة الراشدة الذى كان محكومًا بالشريعة الوضيئة السمحة ، وما كانت كما زعم « التنويريون جدًّا » شريعة غاب لا مكان فيها للحرية .

---

(١) النظريات السياسية الإسلامية ٣٩ .

(٢) انظر التفصيل فى كتاب الأموال للقاسم بن سلام : ١٨ وما بعدها .

فالحرية فى الإسلام حرية حقيقية شاملة .. وهى حرية منضبطة لأن تسيبها يحولها إلى الفوضوية المدمرة .. وقد أشرنا إلى ضوابطها فيما سبق .. وكلها تهدف إلى صيانة النفس .. والعقل .. والدين .. والعرض .. والمال .. فحرية التملك - وهى استجابة لغريزة حب الجمع والتملك - لو كانت مطلقة تحولت إلى سلب .. وسرقة .. واغتصاب .. وحرية الجنس لو لم تضبطها قواعد الشرع والنظام لتحول الإنسان بها إلى درك أسفل من درك الحيوانات .

وحرية التعبير إذا لم ترْعَ حرمة الدين والأعراض لتحولت إلى بذاء .. وسفول .. وانتهاك للعقل .. والشرف .. وقيم الأمة وتاريخها .. كما نرى فى الحملات المعلنة التى تشن على من هاجموا الرواية الحيدرية .. فهم ظلاميون .. أغبياء .. متخلفون .. عاجزون عن قراءة الأدب الرفيع .. وإذا قرءوا لا يفهمون .. وإذا فهموا الظاهر فهم لا يفهمون ما فى العمل الأدبى من إيحاءات ودلالات .. وبعضهم « يقبض » من الخارج ، وله اتصالات بجهات خارجية ، وهم يعارضون من أجل تحقيق كسوب سياسية واجتماعية !! .

والتنويريون يبكون على الحرية بصفة عامة .. وحرية الإبداع بصفة خاصة .. تلك الحرية التى هتك حرمتها « الظلاميون » فى شخص الفذ العملاق حيدر حيدر .. وهذا ليس جديدًا عليهم .. وهم يعتنقون مبدأً : ضربنى وبكى .. وسبقنى واشتكى .. وهؤلاء - وأغلبهم يساريون ماركسيون - يريدون حرية الإبداع لأنفسهم بإطلاق .. دون ضوابط أو قيود .. ويحرمون على من يعارضهم طاقة واحدة من طاقات الحرية ، ينفذون منها إلى إبداء وجهة نظرهم .. كتب واحد من زعمائهم المشهورين تحت عنوان « من التنوير إلى الإظلام » :

« السؤال الملح المؤرق الذى لا يفارق ذهن المرء وهو يتابع مسيرة التنوير فى مصر المحروسة هو ما ذا حدث للتنوير ؟! إن الزمن الذى نعيشه يبدو مناقضًا للتنوير معاديًا له .. فرمال الإظلام تزحف من الإظلام على الوادى لتحجب ما تأسس من استنارة ، وسيوف الجهالة تحاول استئصال ما ترسخ من مبادئ للعقلانية ، ورماح التعصب لا تكف عن مناوشة كل ما ورثناه من وَعى

نقدى ، وأقدام التقليد تدوس فى غلظة جاسية على كل ما يولده السؤال من تطلع إلى أفق معرفى لا حد لفضائه »[١].

واعتقدت أن الرجل سيتحدث عن كارثة نعيشها من قرابة عقدين من الزمان اسمها قانون الطوارئ ، بمقتضاه أصبح الدستور فى تابوت الصمت !!

واعتقدت أنه سيتحدث عن تزوير الانتخابات ، وحكم الحزب الواحد الذى يركب الأمة من نصف قرن ..

واعتقدت أنه سيتحدث عن مهزلة اسمها نظام التعليم فى مصر .. ذلك النظام الذى يعد انعدام النظام أهم سماته ، والذى اتخذ من الطلاب حقول تجارب لكل فاشل من الأنظمة المتخلفة !!

واعتقدت أنه سيتحدث عن قوم مدنيين من خيرة شباب الوطن يحاكمون أمام قضاء عسكرى بتهمة محاولة « اختراق » الجماهير ، وازدراء الحكم الحاضر !!

واعتقدت أنه سيتحدث عن مذلة « التطبيع » واختراق الصهاينة لواقعنا ، وعقولنا ، حتى أصبح لهم فينا عِزّة .. وأنصار .. ودعاة من جلدتنا ، ويتكلمون لساننا ، ولا يعرفون شيئًا اسمه القدس ، ولا شيئًا آخر اسمه الحياء !!

واعتقدت أنه سيتحدث عن الفساد الذى يضرب أطنابه فى كل مكان حتى أصبحت الرشوة هى المعبر الطبيعى لقضاء المصالح ، وأصبح « نهب البنوك » هو « مودة » العصر ، والاستيلاء على أراضى الدولة حقًّا من حقوق كبار من ذوى الكروش المنتفخة .

كل ذلك .. ولا شىء من ذلك خطر على بال الزعيم التنويرى وهو يستعرض مظاهر - أو أسباب - الإظلام الذى زحف ويزحف لالتهام التنوير .. ولكنه علل ذلك بأشياء عجب .. منها : أن مقص الرقيب يمزق الأفلام .. والتمثيليات .. والمسرحيات باسم السياسة مرة .. والأخلاق أخرى .. والدين مرات .. فلا يستمتع المشاهد بالفيلم أو المسرحية أو التمثيلية إلا بعد أن يشوه مقص الرقيب مصدر المتعة الجمالية ، فيحذف حتى قبلة الزوج لزوجته[٢].. وصحف تغلق صفحات

---

(١) د. جابر عصفور : هوامش على دفتر التنوير ٢٤٩ .

(٢) السابق نفسه الصفحة .

الأدب .. والفكر .. والثقافة في رمضان (لتحل مكانها صفحات الفكر الدينى) .. وطلاب يوقفون محاضرات العلم فى كليات الجامعة بحجة أداء الصلاة ... »[1] .

الدكتور جابر عصفور يرى أن الظلام سائد ، والحرية ذبيحة لأن الرقيب يمنع القبلة من الأفلام .. وأنا أشك فى هذه المعلومة .. فما زالت الأفلام المصرية غاصة بأطول القُبَلِ فى العالم .. بل وأردئها ، وأشدها إثارة للغثيان .. وعلى فرض حدوثه .. هل يقضى ذلك على جماليات الفيلم المصرى ؟!! يا سيدى إن الهند - الدولة النووية .. الدولة التى تصدر الآن تكنولوجيا إلى كثير من دول العالم ممنوع فيها « التقبيل » - أيًا كان نوعه - فى الأفلام والمسرحيات وكل عمل فنى .. وأعمالها الفنية تفوق أعمالنا عشرات المرات موضوعيًا .. وجماليًا .. وتسويقيًا .. فى الأسواق العالمية ..

وماذا لو أن الفكر الدينى أخذ مكان صفحة أسبوعية أى أربع صفحات فى شهر واحد من عام ؟! ألم تر أن هذه الصفحة تحذف أحيانًا بسبب زحمة الإعلانات .. أو بسبب زحف خطاب شخصية مهمة ؟!!

والطلاب إن كانوا يتركون المحاضرات للصلاة فإنما يلفتون - عمليًا - أنظار المسئولين إلى خلل فى « الجدول » الذى لم يراع تخصيص نصف ساعة يوميًا للصلاة ! ألم تر أن الدراسة تعطل يومًا أو أكثر بسبب زيارة كبير .. أو مؤتمر .. أو ما شابه ذلك ؟! فلماذا نستكثر نصف ساعة فى اليوم على أداء فريضة ؟

والرجال الكبار جدًا فى الصحف القومية يبكون ويصرخون من أجل حرية الإبداع التى يمثلها حيدر حيدر بروايته الساقطة ، أذكر هؤلاء بالواقعة التالية :

كان حزب الحكومة اسمه « حزب مصر » فلما أعلن السادات فجأة إعلان « الحزب الوطنى » أسرع أعضاء الحزب القديم إلى الانضمام إليه فى سرعة البرق دون تردد .. فكتب مصطفى أمين تحت عنوان [فكرة] فى صحيفة الأخبار فى ١٩٧٨/٨/١٥ :

كنت أتمنى لو أن أعضاء مجلس الشعب لم يهرولوا إلى الانضمام إلى حزب الرئيس السادات الجديد .. كنت أتمنى لو أنهم انتظروا حتى يعلن

---

(١) السابق ٢٥٠ .

السادات برنامج الحزب ، وبحثوه ، ودرسوه ، ثم اقتنعوا به ، وبعد ذلك قرروا الانضمام .. كنت أتمنى لو أنهم انتظروا حتى يتألف الحزب فعلًا !!

كنت أتمنى لو أن أعضاء مجلس الشعب ذهبوا أولًا إلى دوائرهم الانتخابية ، وتحدثوا إلى الناخبين الذين انتخبوهم عن رغبتهم فى تغيير لونهم الحزبى الذى حملوه فى المعركة الانتخابية ، وبعد أن يحصلوا على تأييد ناخبيهم يعلنون انضمامهم إلى الحزب الجديد !! ... » .

مجرد أمنية .. الرجل المهذب قال : « كنت أتمنى » .. ولم يقل : « كان يجب » .. ومع ذلك أصدر عبد المنعم الصاوى وزير الإعلام قرارًا بمنع مصطفى أمين من الكتابة السياسية ابتداء من يوم ١٩٧٨/٨/١٨ .. وفى مؤتمر بمدينة « تلا » بتاريخ ١٩٧٨/٨/٢٢ نوه السادات بهذا القرار ، وهاجم مصطفى أمين بشدة .

ولم يعترض أحد من التنويريين جدًّا على هذا القرار الجائر ، ولم يرتفع صوت من دار الأخبار يقول : لا .. بل بالعكس .. نشرت الأخبار ما يؤيد القرار ويباركه .. ففى يوم ١٩٧٨/٨/١٧ فوجئ الناس بمقال للمخرج السينمائى حسام الدين مصطفى منشورًا فى الأخبار نصه :

لا يا أستاذ مصطفى
نضال السادات هو البرنامج

الأستاذ مصطفى أمين بعد التحية : قرأت كلمتكم التى تلومون فيها أعضاء مجلس الشعب الذين هرولوا إلى الانضمام إلى حزب الرئيس السادات الجديد .. وقلت : « كنت أتمنى لو أنهم انتظروا حتى يعلن السادات برنامج الحزب ، وبحثوه ، ودرسوه ، ثم اقتنعوا به .. وبعد ذلك قرروا الانضمام » .

أرجو أن تسمح لى أن أبدى رأيى فى لومكم هذا : إن هرولة أعضاء مجلس الشعب للانضمام إلى الحزب الجديد هو أمر طبيعى ، وتصرف تلقائى صادق .. لم ينتظروا إعلان برنامج الحزب لأن أنور السادات نفسه هو البرنامج .. تاريخ السادات النضالى الطويل منذ شبابه الأول حتى اليوم هو

البرنامج .. حكم السادات منذ ١٥ مايو ١٩٧١ حتى اليوم هو برنامج حكم الحزب الجديد ..

السنتان القادمتان .. وبعدهما ينزل الرخاء على مصر والمصريين هو مستقبل حكم الحزب الجديد .. هذا كله يكون برنامج حزب السادات الجديد ، وهو برنامج يختلف عن برامج الأحزاب فى العالم .. فكلها برامج مكتوبة .. أما حزب السادات فبرنامجه حى .. بل هو متدفق الحيوية .. وبرنامج نعيشه أقوى ألف مرة من برنامج نقرؤه ... » .

وهو منطق غريب يستدعى سؤالاً مؤداه : هل يعنى هذا أن الحزب الوطنى يعيش الآن بلا برنامج بعد أن قتل « برنامجه الحى » يوم المنصة فى السادس من أكتوبر سنة ١٩٨١ ؟

* * *

ومن البكائين على « حرية الإبداع » - ورمزه هنا الإبداع الحيدرى - كبير من كبار الماركسية .. ولعله أهم زعمائها فى الوطن العربى ، وما زال يدافع عن الماركسية بحرارة ، وعما كان يسمى « الاتحاد السوفيتى » بحرارة أشد ، ويهاجم الإسلاميين - أعنى الظلاميين من وجهة نظره - لأنهم - كما يرى - أعداء دائمون للحرية والديمقراطية .. وهم دائمًا لحرية الإبداع بالمرصاد .. وأجدنى مضطرًا إلى تذكيره بمقال السيد « لينين » الذى نشره سنة ١٩٠٥ بعنوان « **تنظيم الحزب وأدبه** » وفيه يقول :

« لنتخلص من رجالات الأدب غير الحزبيين .. لنتخلص من هواة الأدب المثاليين .. على قضية الأدب أن تصبح جزءا من القضية العامة للبلوريتاريا .. وجهازًا صغيرًا من الآلة الاشتراكية الديمقراطية الموحدة والكبيرة التى تحركها الطليعة الواعية للطبقة العامة كلها .. على النشاط الأدبى أن يصبح عنصرًا مؤلفًا لعمل حزبى اشتراكى ديمقراطى منظم »[1] .

* * *

---

(١) هنرى أورفون : الجمالية الماركسية ٢٢

وقد يكون هذا التاريخ بعيدًا عن ذاكرة الماركسيين – وهم أشد المتباكين على حرية الإبداع .. أما القريب جدًا من ذاكرتنا وذاكرتهم أيضًا فهى مأساة الأديب السوفيتى الذى حصل على جائزة نوبل « بوريس باسترناك » ، وطرد من جنة الشيوعية والشيوعيين بسبب قصته الشهيرة « الدكتور زيفاجو » .. ولنبدأ « قصة القصة » من بدايتها ، ونر موقف كبار الماركسيين منها :

إن هذه القصة – وهى لا تعدو أن تكون قصة – قد أثارت ثائرة المفكرين والكتاب الشيوعيين الرسميين ، فراحوا يصفون مؤلفها « باسترناك » بأنه « خائن » و « رجعى » و « مرتد » و « هرطيق » و « عدو لبلاده » !

لماذا ؟ .. الجواب هو أن السبب الوحيد فى الثورة العاتية الصاخبة التى أعلنها الكتاب والمفكرون الرسميون على « باسترناك » ، هو أن القصة لا تمجّد الشيوعية ، ولا تمجّد القادة البلاشفة ، والمجتمع الشيوعى .

السبب هو أن « باسترناك » لم يزيّف الواقع ، ولم يلتزم بالقيود الجامدة التى تفرضها « الواقعية الاشتراكية » الزائفة على الكُتّاب ورجال الفكر .

السبب هو أن « الصدق » فى التعبير عما يعتمل فى النفس يصبح فى المجتمعات الشيوعية – جريمةً لا تُغْتَفر ، ما دام هذا « الصدق » لا يخدم الأهداف الشيوعية .. مثلما يصبح « الكذب » و « تزييف الواقع » حسنةً وعملًا جليلًا ما دام « التزييف » و « الكذب » يخدمان الأهداف الشيوعية .

ولهذا كان جزاء « صدق » (باسترناك) هو تلويث اسمه وطرده من « اتحاد الكتّاب السوفييت » . وكان جزاء تمسك المفكرين والكتّاب الشيوعيين الرسميين بالقيود الصارمة التى تفرضها « الواقعية الاشتراكية » الزائفة على المفكرين والكُتّاب – بكل ما فيها من دعوة إلى « الكذب » و « تزييف الواقع » – هو تمجيد هؤلاء المفكرين والكتّاب الشيوعيين الرسميين ووضعهم فى أعلى المناصب ، وإسباغ الرعاية والتكريم عليهم .

وإنه لثمنٌ باهظٌ .. هذا الذى يدفعه هؤلاء المفكرون والكتّاب الشيوعيون الرسميون .. وإنه لجزاءٌ بخسٌ ذلك الذى يدفعون كرامتهم وحريتهم وضمائرهم ثمنًا له !!

وحسبنا لكى ندرك إلى أى مدى تتبلد ضمائر المفكرين الشيوعيين الرسميين ، وإلى أى مدى تصهرهم الشيوعية فى بوتقتها ، وإلى أى مدى تُصَبُّ عقولهم فى قوالب جامدة ، أن نقرأ نص الخطاب الذى بعث به « الكتّاب الشيوعيون الرسميون » إلى « باسترناك » ونشرته صحيفة « ليترا تورنيا جازيتا » - أى الجريدة الأدبية - فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٩٥٨ ، على أثر إعلان فوز « باسترناك » بجائزة نوبل العالمية » .

* * *

جاء فى هذا الخطاب ما يلى :

« يا بوريس باسترناك ... إليك رأينا فى روايتك وما أثارته فينا من قلق وحيرة .. والأمر لا يقف عند اختلافنا فى تذوق القيم الجمالية ، أو تقدير الكفاءة الفنية .. بل أشد خطورة .. فهو يتعدى ذلك إلى الاتجاه العام للرواية .. إلى منهجك الفكرى بأكمله » .

« فالمنطق الداخلى للرواية سلسلة متصلة تبدأ برفض الثورة الاشتراكية ، وتمضى مؤكدة أن ما نجم عن الحرب الأهلية من تحولات اجتماعية أدى إلى ازدياد أعباء الشعب ، وإلى تدهور المثقفين الروس ماديًا ومعنويًا .. وتنتهى بأن ثورة أكتوبر كانت خطأ تاريخيًا ، وأن اشتراك المثقفين فى تحقيق انتصار الاشتراكية ليس إلا كارثة لا مهرب من آثارها ، وأن ما أسفرت عنه الثورة شر كل الشر » .

« وهذه الرواية انتكاسٌ نألم له نحن الذين قرأنا لك : ميلاد جديد ، موجات قطار الصباح .. وهى أشعار تترقرق فيها أنغام لا تأتلف معها أبدًا النغمة السائدة فى قصة : دكتور زيفاجو .

« ورغم وقوع روايتك فى جزءين من الناحية الشكلية .. إلا أن خطًا فاصلًا فعليًا لا علاقة له بهذا الشكل هو الذى يشطرها إلى أجزاء .. والخط الفاصل هو عام الثورة ١٩١٧ .. فالرواية تجسد حياة المثقفين الروس ولعلها تجسد موتهم !! - تجسد موقفهم من الثورة التى تتجمع أعاصيرها ، ووضعهم أثناء اندلاعها ، ثم اضمحلالهم نتيجةً لانتصارها » .

« والثلث الأول من الرواية .. وهو يصوّر العشرين عامًا التى سبقت الثورة لا يفضى إلى رفضٍ قاطعٍ للثورة المقبلة رغم اعتقادنا بوجود بذور هذا الرفض .. فمن ناحية التعبير اللفظى المجرد تُقِرُّ أنت بما فى نظام المِلْكِية الفردية من جور ، وفوارق ظالمة .. ولكنك حينما تنتقل إلى تصوير الوقائع الجزئية الحية تبرز لنا صورة مشرقة عن هؤلاء السادة الرأسماليين وخدّام نظامهم من المثقفين .. فهم كائنات نورانية تفيض نبلًا ونقاءً يكاد يقتلهم التحرق إلى إسداء الخير .. وهم فوق ذلك تستحوذ عليهم النزعة الإنسانية الفياضة ويعجزون حتى عن إيذاء ذبابة ! » .

« وماذا يبقى من تصريحاتك عن رفض النظام الروسى الرأسمالى قبل الثورة ؟ إن قبولك الكامل له لا يخفيه التنكر خلف ألفاظ الرفض .. فهو قبولٌ يرتكز على تصويرك رأسماليين يتبرعون بكل ما يملكون للعمل الثورى ويعيشون وفقًا لما تمليه ضمائرهم ، ومثقفين يتمتعون بحريةٍ عقليةٍ كاملةٍ لا تتدخل لتعكير صفوها أدواتُ القيصر البيروقراطية ، وفتيات فقيرات يلقين سادةً أغنياءً ممتلئين حنانًا ، وعمالًا لا تواجههم المصاعب فى اكتساب الثقافة » .

« والشخصيات التى تزدحم بها روايتك تحيا فى دعَةٍ واطمئنان ترفرف عليها العدالة القيصرية السابغة ، وقد يود بعضهم أن يصلوا إلى مستوى أعلى قليلًا .. قليلًا جدًّا من الدعة والعدالة .. وهذا قصارى انتمائهم للثورة ! » .

ثم لا شىء عن الجحيم الذى كان يقاسيه الشعب والذى جعل من الثورة أمرًا حتميًّا .. لا شىء إلّا حديث بعض شخصياتك عن الثورة .. وهؤلاء هم نماذجك الأساسية الذين تبدى لهم العطف ... وأسلوب حياتهم لن يصبح أقل إمتاعًا إذا ما أُجْهِضَت الثورة ... فهم يستطيعون السعادة دونها .. على النقيض من الشعب الذى أخْفَيْتَهُ بعيدًا عن أحداث هذا الجزء .. كشىء راكد خامد لا قيمة له ولم تحدد منه موقفًا معاديًا إلا عندما بَدَأَت النيران تندلع من هذا البركان ، وبقى أبطالك الفرديون من المثقفين المتازين يعيشون فى ثراء فكرى ولا تعنيهم إلا مشكلات الوجود الذهنى .. فأنت تقول : « إن غريزة القطيع هى ملاذ الابتذال العقلى .. سواء تعلق الأمر بالإخلاص لسولوفيوف أو كانت أو ماركس .. الأفراد وحدهم باستطاعتهم البحث عن الحقيقة .. وهؤلاء الأفراد يقطعون علاقتهم بكل الذين لا يعشقون الحقيقة ..

وما أقل الأشياء التى تستوجب منا الولاء فى هـذا العالم ! » على حـد تعبير أحد « أبطالك » ، نيكولاى نيكولايفيتش » .

« وتـنشب الثـورة التى طال عنها الحديث دون عـون هؤلاء الأفراد الباحثين عن الحقيقـة » .. فرجال « الفكر » و « الـمُـثُلِ » لم يـبذلوا أية تضحية من أجل معتـقداتهم .. بل واصلوا حياتهم العقليـة الأثيرة لديهم .. ولكن الثـورة فادحة الثمن ، وتـفرض على مشعلى نيرانها أعبـاء قاسية من معاناة الجوع والبرد وشظف العيش ، وتجعل مصارعهم دانية .. والدكتور زيفاجو هذا الفرد الموهوب الممتـاز لا يريد أن يتعرض لشىء من ذلك .. إن حياتـه ثمينـة وليست كحياة أفراد القطيـع ، ويجب أن يصونها ويهيـئ لها الراحـة وسط الدمار والخرائب ، وهـو يستشعر نحو الثـورة نـفورًا كبيرًا .. وليس هـذا الموقف فى نظرك منطويًا على الجبن والنـذالة .. فهو وأمثـاله لا يريدون الحياة الآمنـة ، والدعـة المطمـئنة إلا من أجل الإنسانيـة .. لأنهم منابـع حياة عقليـة لا تـنضب .. ولم تكن الثورة حـدثًا ضخمًا يعـيد تشكيل حياتهم ما داموا يواصلون سيرتهم القديمة ، وغاية ما تصبو إليـه نـفوسهم ألا يعكر صفوَ حياتهم طارقٌ جديدٌ .. من أجل عيـون الإنسانيـة ! » .

« والثـورة تستوجب تحديد موقف معهـا أو عليها ، وتلح فى المطالبة .. فينـزلق شعور الاغـتراب عنها إلى العداء السافر لها .. ويخفى زيفاجو أنـه طبيـب حتى لا يزعجه الآخرون أثـناء وقت استشرى فيـه الوباء . وهـو يقول « فى العالم الجديد الذى يبـنيه القلب على نمط ملكوت الرب .. ليس ثمة شعب بل أفـراد » .

« فالشعب ليس موجـودًا بالنسبة إلى هـذا الفرد الموهوب .. وهـو لا يحمل نحوه أيـة مسئوليـة ، ومسئوليـته كلها تـنصب على ذاتـه وعلى قلة ضئيلة أثيرة لدى هـذه الذات » .

« وتـقول لارا فيودوروفنا والحرب الأهليـة فى أوجها لحبـيبها زيفاجو : أنا وأنت مثل آدم وحواء عندما كانا فى البدء ، لا يمتلكان ما يستران به الجسد .. نحن عاريان شريدان .. ونحن آخر ما تبـقى من السمو الرائـع الذى بُـنىَ على مر آلاف السنين فى هـذه الأرض منذ آدم وحـواء . وفى ذكرى هـذا السمو الذى ينـقشع الآن نعيش ونحب ونبكى ويتعلق كل منا بأحضان الآخر » .

« فكل ما تبشر بـه الثورة من خصب وازدهار لملايين الناس لا أهمية له أمام هـذه الكبرياء والأنانيـة الحمقاء .. فإنْ كنت تـنـتمى إلى نمط محدد فمعناه أن تـفـقد إنسانيـتك وأن تستحق اللعنة » .

« ونحن لا نـنكر وجـود أمثـال زيفاجو أثـناء الثـورة والحرب الأهليـة ، ولا نـنكر الطابـع النموذجى لهذه الشخصيات » .

« ففى اعتـقادنا أن دكتور زيفاجو يمثل فعلًا نمطًا معينًا من المثـقـفين الروس ، وهـو نمط ولوع بالكلام عن شقاء الشعب ويجيـد تـنميقه ولكنه عاجز كل العجز عن أن يفعل شيئًا يزيل هـذا الشقاء .. وتشعر نمـاذج هـذا النمط بأهميـة ذاتيـةٍ استـثـنائيـةٍ ، ويعيشون بمعزل عن الشعب ، وهم على استعداد فى أوقات المحنـة لخيانـته والتخلى عنه ، ورغم أنهم شديدو الحساسية تجاه أى أذى يصيبهم مهما تضاءل ومهما يَكُنْ مُتَخَيَّلًا إلا أنهم قادرون على تبرير ما ينوء الشعب تحته من أثـقال ، وعلى إضفاء عبارات جميلة على هـذه الأوضاع » .

« ولكن أهـذا النوع هـو صفوة المثـقـفين الروس ؟ وهل من الصواب أن يبرزوا رغم قصورهم وهربهم وتـفاديهم أن يحددوا موقـفًا بوصفهم نخبـة ممتـازة ؟ هل من حقهم أن يجلسوا القرفصاء كقضاة يصدرون الأحكام على الثـورة والشعب الروسى .. أو القطيـع الأخرس العاجز عن التـفكير ؟ أمن حـق هـذا الزيفاجو أن يكون قاضيًا وجلّادًا فى الوقت نـفسه !؟.. إنـه يقول : « إن هـذا النظام يناصبنا العـداء .. وفلسفـته غريـبة علىّ ؛ فإن أحـدًا لم يأخـذ رأيـى فيما إذا كنتُ موافـقًا على هذه التحولات » ... ويقول : هل الماركسية علم ؟ .. إن العلم شىءٌ أكثر اتساقًا . أتتكلمون عن المـاركسية الموضوعية ؟ أنا لا أعلم مذهبًا أكثر ذاتـيةً وابتعادًا عن الواقـع من المـاركسية » .. « ولمـاذا كل هـذه التحضيرات من أجل حياة المسـتقبل ؟ .. لقد خُلِقَ الإنسانُ ليعيشَ لا لـيَـفْـنـى فى التحضير للحياة » .. هـذا هـو ما يقوله .

« أى أن فلسفة زيفاجو لا تدور إلا حـول محور واحد هـو ذاته الضيقة ، ولا يدخل الشعب وانـتصاراته وما يكابده ، فى حسابه على الإطلاق . بل إن انـتصار الثورة يملؤه حـنـقًا ، ويثير فيه الحنين إلى العالم الذى فقده ، إلى جنة العزلة المريضة حيث لا يزعجه دوى الملايـين وهى تستيقظ من إغفائها وحيث لا تصك أذنَه ضوضاءُ البناء . إنه لا يؤمن بأنه بـإمكان الإنسان إعادة تشكيل الحياة .

فالحياة نعيشها ونمارسها ، ولا يجب أن يفسدها التحضير للغد ، وليس مستساغًا أن نرهن الواقع مقابل حلم . ويلوح له أعداءُ الثورة أصدقاءً ويحس بالحب لهم ، ولكن انطواءَه على نفسه يمنعه من أن يقاتل فى سبيلهم ، فيظل مستغرقًا فى ازدراءِ الثورة وقادتها الأغبياء والتحرق العقيم إلى فردوس أعدائها » !

« ولنعد إلى الفصل الذى اضطر فيه زيفاجو إلى إطلاق الرصاص على البيض ، وهو فصل يشير فى مجموعه إلى إعجابك - ككاتب - ببطل قصتك ، وإلى أنك تشاطره أفكاره ومواقفه » .

« فما هى هذه الأفكار والمواقف ؟ لنوجزها هنا : فقد أرْغِمَ الدكتور زيفاجو على أن يشترك مع جنود الأنصار ، وكان أعداؤهم فى الناحية الأخرى رائعين مثيرين للإعجاب من وجهة نظر زيفاجو ، وهم فوق ذلك أعزاء على قلبه ، وهو معهم بكل روحه ، فلماذا لم يذهب إليهم بجسمه أيضًا ؟ لأنه خشى أن يعرّضَ حياته للخطر ، وليس ثمة سبب آخر . ولا شك فى أنك مستيقن من كفاءة هذا التبرير لازدواج موقف بطلك ! ثم يصوِّب زيفاجو ناره إلى شجرة محترقة حتى لا يصيب أعزاءه البيض .. ولكن المصادفة تجعله يقتل ثلاثة منهم .. ولم يعد يشعر بالعطف على البيض ، بل على عاملة التليفون الثورية التى قتلوها ، ثم ينتقل عطفه إلى الجندى الأبيض الذى قتله هو . حينما يكتشف أنه لم يمت يتحايل على إطلاق سراحه رغم تأكيد الجندى بأنه عائد إلى صفوف أعداء الثورة ليقاتل الحمر من جديد !

« ألا يثير زيف عواطف زيفاجو وضحالتها ، وخاناته المتعددة لما يمليه وجدانه النفور والاشمئزاز ؟ ولكنك حاولت جاهدًا بكل ما فى موهبتك من قوة أن تتلمس له المعاذير . ووصلت فى النهاية إلى تبرير الخيانة . ولم تجد تبريرًا فى تمجيدك للفردية ، واعتبار العالم الذاتى الذهنى قمة الكمال الروحى ، يُضَحّى من أجل حمايته بكل شيء .

« ولم تقف عند ذلك ، فقد جعلت من زيفاجو شاعرًا يحمل مسئولية نقل شعره إلى العالم . وختمت الرواية بمقطوعات بعثرت فيها موهبتك لأنك حريص على أن تتم المطابقة بينك وبين زيفاجو .

« ويموت زيفاجو بعد أن ظلت حياته كلها مرتبطة بالآلام كآلام المسيح ،

ويترك وصيته الشعرية منتهيةً بكلمات المسيح : « ستسبح إلى القرون من الظلام كقافلة من السفن كى أحكم بينها » .

« ولكن ألا تقتصر « آلام » الطبيب الشاعر على تمجيده لنفسه فوق مصاف البشر ؟ وألم يكن الحافز لهذا المسيح العقلى هو أن يقتل زملاءه ويخونهم ويبغضهم لينقذ (روحه) هو ؟ ما أبعد زيفاجو عن المسيح . فقد كانت نفسه شغله الشاغل ولم يهتم بالإنسانية أدنى اهتمام .

« وأنت لست بعيدًا عن الرمزية ، فإن موت زيفاجو فى أواخر العقد الثانى يرمز إلى مصرع المثقفين بعد أن أصابتهم الثورة فى المقتل !! فزيفاجو فى رأيك هو أسمى تعبير عن روح المثقف الروسى ، ولكنه فى رأينا أحط درك يصل إليه المثقف .

« وفى رأيك أن المثقفين الذين ساروا مع الشعب وصوّروا نضاله وانتصاره قد هجروا رسالتهم الحقيقية ،وانتحروا انتحارًا أدبيًا ولم يقدموا شيئًا ذا قيمة ، ولكننا نعتقد أن هذا هو الطريق السليم الذى سار فيه الكتّاب قبل الثورة وأن انفصال الوعى من مصالح الشعب رِدّةٌ أيديولوجيةٌ تصيب الأدب بالعقم والجمود .

« ونود أن نضيف هنا أن ما تحفل به الرواية من ازدراءٍ للشعب إبّان الثورة ، يتعارض تعارضًا صارخًا مع تقاليد الأدب الروسى الرائعة . ولم نُشر حتى الآن إلى الناحية الفنية من روايتك ، ولا يفوتنا أن نسجل ما فى السرد من تشتت وما فى البناء من تزعزع ، بل ما فى الرواية من تمزق الأوصال ، فأجزاؤها المختلفة لا تأتلف فى لوحة متكاملة . ولكن تصويرك للطبيعة كان حافلًا بالجمال والشاعرية .

« ومهما يكنْ كلٌّ منا ثقيلًا على نفسك ، فقد أطلقنا على الأشياء أسماءها الحقيقية ، فمواقفنا من الشعب والثورة والإنسان العادى متناقضة .

« وإن كنت ما زلت قادرًا على إنعام التفكير فيما قلنا ، فلا تدعْ الفرصة تفلت . ونحن نود ذلك من كل قلوبنا .. » .

* * *

وحسبنا أيضًا ، لكى نقف على مدى الجمود المذهبى فى الأدب الذى

يخضع له الكتاب – فى ظل الشيوعية – أن تقرأ قرار « اتحاد الكتاب السوفييت » ... وفيما يلى نصه :

« انعقد مجلس رئاسة اتحاد السوفييت ، ومكتب اللجنة التنظيمية لاتحاد الكتّاب فى الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية ، ومجلس رئاسة قطاع موسكو من اتحاد الكتّاب فى الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية لمناقشة مواقف بوريس باسترناك . ووصل الأعضاء إلى قرارٍ إجماعى يَعْتَبِرُ هذه المواقف متعارضة مع رسالة الكاتب السوفييتى ، وموجَّهةً ضد تراث الأدب الروسى وضد الشعب والسلام والاشتراكية . وتبدأ هذه المواقف منذ زمنٍ طويل بتصريحاته التى تحبذ « الفن الخالص » ، وتنتهى بأن أصبح الآن أداةً من أدوات الدعاية البورجوازية ، ومصدرًا يسير المنال من مصادر الرأسمال السياسى للعناصر المسئولة عن الحرب الباردة ، وللعناصر التى تسعى إلى تشويه كافة الحركات التقدمية والثورية . إن هذه العناصر لا تحيى تدهور باسترناك الأخلاقى والسياسى لأنها حريصة على تكريم ما قد يكون لديه من موهبة أدبية ، بل لأنه انضم إلى صراعهم الضارىّ – رغم عقمه – ضد حركة التاريخ الصاعدة .

« وقد اختنق نشاط بوريس باسترناك الأدبى منذ زمن طويل فى العزلة المقفلة داخل الذات الفردية ،وفى الانفصال عن الشعب والمشكلات الحاضرة . ولا تعبّر روايته « دكتور زيفاجو » التى أثارت غبارًا كثيفًا من الدعاية إلّا عن غرورٍ زائفٍ وضحالةٍ فكريةٍ . فهى صيحة فَزِعَةٌ يطلقها سجن الأنانية الفردية ، تنم عن ألمه ولوعته ، لأن التاريخ لم يَسر فى الطريق المتعرج الذى وَدّ أن يسير فيه . وفكرتها الأساسية زائفة مبتذلة التُقِطت من كومة فضلات أدب الانهيار ، فبوريس باسترناك يود أن يثير الشكوك حول شرعية ثورة أكتوبر وضرورتها الآن ، حينما يتأهب الاتحاد السوفييتى للاحتفال بعيدها الحادى والأربعين ، كدولة قوية متقدمة تقف فى طليعة الثقافة العالمية والعلم . وقد أصبح انتصار الاشتراكية حقيقة تاريخية راسخة فى بقاع شاسعة من أوروبا وآسيا . ويقدّم بوريس باسترناك الفلسفة الفريسة المريضة لبطل قصته من مناهضة الفكر التقدمى والفعالية الخلاقة .

« وقد حاول اتحاد الكتّاب السوفييت – وهو الذى يحيط العمل الإبداعى بالرعاية – طيلة سنوات أن يساعد بوريس باسترناك فى التحقق من أخطائه وفى تجنب التدهور الأخلاقى ، ولكن باسترناك الآن قد قطع آخر صلاته بوطنه وشعبه ، وجعل من اسمه وإنتاجه سلاحًا سياسيًّا فى أيدى الرجعيين » .

« ولا ينطوى قرار منح جائزة نوبل لرواية « دكتور زيفاجو » – رغم تنكره خلف كلمات رنانة عن شعر باسترناك ونثره – إلا على موقف سياسىّ وضيعٍ من جانب العناصر الرجعية » .

« ويصاحب منح باسترناك جائزة نوبل حملةٌ هوجاءُ ضد الاتحاد السوفييتى ، هى فى حد ذاتها دليل على الطابع الدعائى لا الأدبى لقرار منح الجائزة » .

« ومن دواعى الأسف أن هذه ليست المرة الأولى فى منح جائزة نوبل لهؤلاء الذين يخدمون تجّار الكراهية ومثيرى الحرب الباردة ، والذين يشنون الحملات الصليبية ضد التقدم الاجتماعى والنزعة الإنسانية . ولم تستطع لجنة نوبل الأدبية أن ترى كنوز الأدب ذات الشهرة العالمية فى إنتاج ليوتولستوى وتشيخوف وجوركى وماياكوفسكى وغيرهم ، ولم تقع عينها على « بونين » إلا بعد أن هرب من الاتحاد السوفييتى وناصبه العداء ، وقد أبصرت الآن بالمرتد باسترناك . ولا عجب أن اعتبرت هذه الجائزة فى الصحافة الغربية جائزة معادية للشيوعية . ويفصح رجال الفكر فى السويد وفى غيرها من البلاد عن رأيهم القائل بأن باسترناك نال جائزة نوبل لأسباب سياسية بحتة .

« ونظرًا لتدهور باسترناك السياسى والأخلاقى ، ولخيانته الشعب السوفييتى وقضية الاشتراكية والسلام والتقدم واستهدافه خدمة الحرب الباردة مما أدى إلى منحه جائزة نوبل ، فإن مجلس رئاسة اتحاد الكتّاب السوفييت ، ومكتب اللجنة التنظيمية لاتحاد الكتاب فى الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفييتية ، ومجلس رئاسة قطاع موسكو من اتحاد الكتّاب فى الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفييتية ، لا تعتبره منذ الآن كاتبًا سوفييتيًّا ، وتفصله من اتحاد الكتّاب السوفييت » . (٢٨ أكتوبر ١٩٥٨) [١].

---

(١) ماهر نسيم : الأدب الشيوعى ١٤٨ – ١٥٦ .

هـذا هـو ما قاله « المفكرون الشيوعيون » الرسميون فى خطاب بعثـوا بـه إلى « باسترناك » ؛ وما قرره « المفكرون الشيوعيون » الرسميون فى اجتماع عقده « اتحاد الكتاب السوفييـت » .

وليس ثمة شك فى أن الخطاب والقرار يكشفان عن « الجمود الفكرى » ، و « الديكتاتورية الفكرية » فى ظل النظم الشيوعية . فهـذه النظم تَـحْرِمُ الكتّابَ والمفكرين من « الحرية الفكرية » وتجعل منهم مجرد أدوات تستخدمها الأجهزة الشيوعية الرسمية فى خنق الحريات ، والقضاء على الاستقلال فى الرأى ، وصب عقـول المفكرين والكتّاب فى قوالب جامدة ، وحملهم على تمجيـد الحياة الشيوعية ، بكل ما تحفـل بـه من رذائل ومثالب ، وإرغامهم عـلى الكذب وتـزييف الواقع ، وإدخال الفزع فى نـفوس أولئك الذين لا يرضخون ولا يخضعون للأجهزة الشيوعية .

وتلك هى محنـة الأدب الشيوعى الذى لا يؤمن بالحريـة ولا يؤمن بالصدق ، ولا يؤمن بالكرامة الإنسانية (١) .

* * *

وبعد كل ما سبق نرى أننا عشنا مع خطابين غريبين عجيبين :

خطاب يواجه « باسترناك » .. وأصحابه مفكرون شيوعيون كبار .

وخطاب يقف مع حيدر .. وأصحابه لجنة من النقاد الكبار بزعامة الدكتور القط .

الخطابان متفقان فى روح الغلو والإسراف والحدة فى إصدار الأحكام .. وكأنها نهائية لا تحتمل الشك ولا تقبل الجدل !! .

ولكن المفارقة المضحكة المبكية أن هيئة – أو هيئات – الحكم على باسترناك هيئات شيوعية ماركسية تحاكم رواية إنسانية المضمون ، راقية المعانى ، مستكملة كل عناصر الفن الروائى الرفيع ، وتحكم عليها بالهبوط والخروج والمروق ، وعلى مؤلفها بالغدر والخيانة و ... و ...

---

(١) السابق ١٥٧ .

أما لجنة الحكم على رواية حيدر فهى هيئة عربية مصرية مسلمة تدافع بحرارة عن عمل هابط يجافى روح الفن والذوق والدين !!

الأولى : تهاجم على طول الخط .

والثانية : تدافع باستماتة على طول الخط .

الأولى : لم تجد فى رواية باسترناك حسنة واحدة .

والثانية : لم تجد فى رواية حيدر سيئة واحدة .. وهذا من أعجب العجب !!! .

* * *

خاتمة المطاف

لقد طال بنا المسار ، وتعددت منا الوقفات مع هذه الوليمة الحيدرية الدميمة .. وأعتقد أننى منصف غير مسرف إذا قلت : إن رواية « وليمة لأعشاب البحر » :

- فى ميزان الإسلام رواية ساقطة داعرة !!

- وفى ميزان العقل رواية مختلة فاسدة !!

- وفى ميزان الأدب والنقد رواية ضعيفة مهترئة .

وهو حكم لم نلقه على عواهنه ، ولم يكن مدفوعًا بحماسة وعشوائية .. فكل صفحات هذا الكتاب تمثل حيثيات ميدانية واقعية موثقة لإبراز هذا الحكم وبيان وجه الحق فيه !!

* * *

وقبل كتابة هذا الكتاب تصدينا لرواية حيدر ، وقلنا فيها ما نرى أنه الحق .. جاء ذلك فى مقالات نشرت فى صحيفة « الشعب » وصحيفة « آفاق عربية » ، وكذلك فى ندوات .. وأحاديث .. ولقاءات إذاعية ، وتلفازية .. وكنا وما زلنا نقصد بعملنا هذا ولواحقه وجه الله - عَزَّ وَجَلَّ - ، وإحقاق الحق ، والانتصار للكلمة الطيبة النظيفة الشريفة .. ولكن بعض الإخوة - بحسن نية - عاتبنا على هذا التصدى .. لأنه كان سببًا لشهرة حيدر وشهرة روايته التى أصبحت توزع بعشرات الألوف .. بعد أن كانت توزع بالآحاد والعشرات .. بل أصبحت تباع فى السوق السوداء .

قال الأخ الكريم - وأنا أحاوره - : لو سكتم وما نطقتم ، وما كتبتم لظل حيدر هذا حيًا دفينًا مجهولًا فى قريته بأقصى شمال سوريا ، ولظلت روايته هذه مجهولة أو محصورة فى أضيق نطاق .

قلت لصاحبى : إن الاستهانة بالشر فى بدايته ، أو لصغره وخفاء تأثيره سيحوله - بالإغفال تدريجيًا - إلى قوة ضاربة ، وتيارات ضارية يصعب حصارها ومواجهتها ، وأذكرك بما كتبته فى مدخل هذا الكتاب :

- معظم النار من مستصغر الشرر .

- إذا نحن طـامنًا لكل صغيرة فلا بدَّ يومًا أن تُسـاغَ الكبائرُ

إن التفريط فى عقال بعير سيجر إلى التفريط فى البعير نفسه ، ثم فى القطيع ، ثم فى المرعى والحمى .

والتغافل عن بغلة عثرت فى أرض العراق سيقود إلى إهمال إصلاح الطرق ، ثم مرافق الوطن والأمة .

وإهمال « بثْرة » ملتهبة فى الجلد ، قد يؤدى بالتدريج إلى تورم خبيث يودى بالحياة .

ونحن - الأدباء والنقاد الإسلاميين - رِساليون .. ورسالتنا فى الحياة نابعة من قاعدة جليلة شامخة من قواعد هذا الدين الخاتم الذى نؤمن به .. وهى قاعدة « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » . ورحم الله أبا حامد الغزالى الذى قال : « إن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين ، وهو المهم الذى ابتعث الله له النبيين أجمعين . ولو طُوى بساطه ، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد [(١)] .

* * *

قال صاحبى - وأنا أحاوره - : ولكنك لا تستطيع أن تنكر أنكم بتصديكم هذا لحيدر قد مكنتموه - أوسهلتهم له - أن يدخل التاريخ من أوسع أبوابه !! .

قلت له : أتفق معك فى أنه دخل التاريخ .. ولكننى أختلف معك فى

---

(١) إحياء علوم الدين ١٨٦/٧ .

« وصف الباب » الذى دخل منه إلى التاريخ .. إنه لم يدخل التاريخ من « أوسع » أبوابه .. ولكنه دخل التاريخ من « أ... » أبوابه ... من الباب الذى دخل منه أشهر داعرى الفكر ، وساقطى الأدب ، وعتاة المزيفين ، ودعاة الهدم والتدمير ، ومصاصى الدماء والدموع والنخاع .. إنها الشهرة التى لا تفارقها اللعنة ، وعلى مدار التاريخ تستهدفها البصقات !!!

* * *

ولكنى _ إحقاقًا للحق - أقر وأعترف بأن رواية حيدر « وليمة لأعشاب البحر » قدمت للأمة والفكر - من حيث لا تقصد ولا يقصد صاحبها خدمات جليلة عديدة تنضوى كلها - على تعددها - تحت كلمة واحدة هى « التعرية » .. تعرية كثيرين كانوا يتدثرون بأردية ثقيلة صفيقة من الغش .. والخداع .. والكذب .. والادعاء ، وتعرية كثير من القيم النفعية كانت تتحكم فى مسيرة الأمة فكرًا وأدبًا !!

وأول من تعرى - أو عُرِّى - وربما أسعده ذلك - وزير ثقافتنا « الوسيم جدًا » الخديوى فاروق حسنى الذى أنفق من مال الشعب المطحون مائة وسبعين مليون جنيه في ليلة واحدة .. لا على تجهيز وزفاف « قطر الندى » بنت خمارويه .. ولا فى ألف ليلة وليلة .. ولكن فى ليلة واحدة سماها ليلة الاحتفال بالألفية الثالثة !!

لم يستح الخديوى فاروق حسنى أن يعلن فى قناة الجزيرة أن رواية حيدر ليس فيها ما يسيء إلى الإسلام .. بل إنها تخدم الإسلام ، وتعتبر دعاية طيبة له .. فلما قال له الأستاذ حسين عبد الغنى : ولكن الرواية فيها عبارات تسيء إلى الدين والأخلاق .. قال الوزير « الجميل » : هذه رؤيتهم والمعروف أن الأخلاق نسبية .

والوزير « الجميل » يردد ما تبناه السفسطائيون من أمثال هيبياس وأنتيجون وبروتاغوراس فى القرن الخامس قبل الميلاد من القول بنسبية الأخلاق .. والنظرية بتبسيط شديد جدًا تعتمد على محورين هما :

١ - لا ثوابت أخلاقية ملزمة تستوجب الإجماع عليها .

٢ - شخصية الأخلاق انطلاقًا من التصرف الحر دون قيد .. فالطيب الحلال : طيب حلال إذا رأيته أنت كذلك .. وهو خبيث حرام إذا حكمت عليه بذلك !!

وتفريعًا على « نسبية » الأخلاق الفاروقية الحُسْنية يعتمد تكييف السلوك على منطق التبرير الذاتى ، فأنت أستاذ نفسك ، وحاكم ذاتك .

فالرشوة تستساغ إذا كيفت بأنها إكرامية ، تلين القلوب ، وتسهل « مصالح » المواطنين .

والخمر - لا حرمة فيه - لأنه يجمع الأصدقاء ، وقليل منه - كما قال بعضهم - يصلح المعدة .

والشذوذ الجنسى السالب لا عيب فيه - كما نقل عن « كبير » مصاب بهذه الآفة - فعباقرة العالم من أمثال أبى نواس وأندريه جيد ، وأوسكار وايلد كانوا « كذلك » ، وقال الكبير : وفيما تسمونه شذوذًا سمو بالروح .. إنه « يوجا حقيقية » تُذل الجسد .. وبإذلاله تسمو الروح .

* * *

ومن « المعزِّين » كبير من كبار وزارة الثقافة لا يعرف الفرق بين الفاعل والمفعول وبرج الجزيرة ، ولا يحسن جملتين متتاليتين كتابة أو نطقًا .

ورعاة ثقافة يأمرون المطابع أن تدور بكل غث يضرب الدين والعقل والمنطق وقيم شعبنا الأصيل .. فأين الثقافة يا رعاة الثقافة ؟!! يا عجبًا !! بل يا أسفًا .. هل فاقد الشيء يعطيه ؟!!

وأثبتت « معارك » الوليمة أننا نعيش - لا أزمة نقدية - ولكن نكبة نقدية هى - فى واقعها وحقيقتها - انعكاس قوى لأزمة أخلاقية حادة جدًّا قوامها الكذب والنفاق .. والتفريط والإفراط .. والطيش والاندفاع وسوء الظن .. ولأترك التعميم إلى التخصيص والتعيين :

ماذا يعنى الاعتراض على رواية حيدر ؟ إن هذا يعنى أن المعترض :

إرهابى .. من دعاة الفتنة .. سفاح دموى .. قاتل من ورثة خالد

الاسلامبولى[1] يقبض من الخارج .. يهدف إلى تحقيق مكاسب سياسية واجتماعية .. ظلامى .. رجعى .. جامد .. ضيق الأفق .. من أعداء الثقافة وحرية الإبداع .. جاهل .. أحمق من دعاة الإسلام الحزبى[2].

أما القضاة أو الحكماء الذين خلعوا هذه الصفات على المعارضين ، واحتضنوا رواية حيدر فقد وصفوا أنفسهم بأنهم :

التنويريون .. المثقفون .. المثقفون الشرفاء .. أنصار الإبداع والحرية .. حراس الفكر والعقل .. رموز التنوير والانطلاق الفكرى !!

وهم يصرخون فى وجه الظلاميين :

« من وكّلكم وأعطاكم الحق فى الدفاع عن الدين ، ومهاجمة الإبداع ؟!! » .

ونسوا أن السؤال نفسه يمكن أن يجابههم « الظلاميون » به ، ويهتفوا فى وجوههم :

وأنتم .. من وكلكم وأعطاكم الحق فى الدفاع عن « الإفرازات الإبداعية » المتقيحة الساقطة ؟

* * *

والخلاصة أن التنويريين اتخذوا من الرواية الحيدرية : معيار حكم ، وميزان تقييم : **فمن « معها »** تنويرى تقدمى مثقف بإطلاق .. **ومن « عليها »** ظلامى رجعى بإطلاق .

ونسى التنويريون فى – سعار حماستهم – أنهم بهذا « الميزان » قد وقعوا فى الحرج والتناقض مما تكشفه الأسئلة الآتية :

– إلى أى فصيل ينسبون الكاتب **إبراهيم عيسى** ، وهو من أقواهم يسارية ، وله مقال قوى جدًّا فى فضح حيدر وروايته ؟

– وما مكان الدكتور **فؤاد زكريا** على « فيلسوف العلمانية » ، وله حملة شديدة على الرواية ، واللجنة القُطّيَّة التى كتبت تقريرها « العجيب » عن الرواية ؟

---

(١) انظر : عبد العظيم رمضان فى مقاله ص ٢٠ من مجلة أكتوبر العدد ١٢٢٩ – ٢٠٠٠/٥/١٤

(٢) انظر : سيد خميس فى مقال له ص ١٠ من أخبار الأدب العدد ٣٦٣ – ٢٠٠٠/٦/٢٥

- وهل يصنف الكاتب المعتدل الأستاذ « **سامح كريم** » فى الظلاميين أم التنويريين بعد أن وصف رواية حيدر بأنها « متواضعة جدًّا من الناحية الفنية حتى لا يكاد المرء يقلب بعض صفحات حتى يشعر بالسأم والملل ، فليس فيها بريق وجاذبية العمل الإبداعى الجميل .. وإنما اشتملت على الكثير من تشابك الأحداث ، وتداخلها بشكل مزدحم يتوه معه القارئ .. الأمر الذى يجعله يقيد الأحداث واحدة بعد الأخرى فى قصاصة صغيرة منعًا للنسيان والسهو حتى يمكن متابعتها والتحكم فى خيوط نسجها .. وهو أمر ليس فى صالح العمل الإبداعى الذى يفترض فيه أن يروق القارئ ، ويسوقه من أولى صفحاته إلى آخرها ، فلا يتركه إلا وقد فرغ منه تمامًا منتجًا لديه متعه ولذة .. »[1].



أما حيدرحيدر فقد أخذ التنويريون جدًّا ينفخون فيه من أرواحهم ، ويُلَمِّعونه .. يلمعونه بكل ما يملكون من قوى وإمكانات ، فلم يعد هو ذلك القزم القمىء الدميم القابع فى « حصين البحر » بأقصى شمال سوريا .. لا أنيس له إلا كلبه .. ولكنهم « شيئوه » و« عمْلقوه » فهو فى نظرهم :

- **خير من عَبَّر عن عصره .. بل هو سابق لعصره .**
- **وهو أجرأ من عالج وتناول الدين والسياسة والجنس[2] .**
- **وهو رمز للإبداع الحر ، والمبدعين الأحرار .**
- **وهو شهيد فكر ، يطلبه الظلاميون الخونة لقتله .**
- **وهو ... وهو ...**

---

(١) مقال بعنوان : ويسألونك عن الإبداع (الأهرام ٢٠٠٠/٦/١٣) .

(٢) صدقهم حيدر فيما يقولون ، وصدق نفسه ، فوصف أسلوبه بأنه سابق لعصره ، وأنه الأبقى على الزمن ، وأنه أجرأ من تناول « المحرمات الثلاثة » : الدين .. والسياسة .. والجنس .. وهذه الجرأة لا تتوافر فى أديب آخر غيره [انظر أخبار الأدب : العدد ٣٦٦ . ص ٩] .

وهو يذكرنا بغالى شكرى بحملاته المنكرة على ما سماه « بالكهنوت » وعَرَّفه بقوله : « الكهنوت كلمة جامعة مانعة ، لا سبيل أمامها للتخلص من الجذر الدينى وشعيراته الميتافيزيقية : السر .. الغيب .. المقدس .. المحرم .. المطلق .. المفارق .. الأزلى .. الأبدى .. الأوحد ... [انظر مجلة المنار - العدد ٥٧ السنة الخامسة - سبتمبر ١٩٨٩ - القاهرة] .

وانطلق المحظوظون من التنويريين إلى لقاء الرجل ليظفروا منه بكلمات أو كليمات « يعطرون » بها صحفهم ، وأحدهم لم يكتف بهذا .. بل شرع يعيد نشر « الوليمة » فى نشرته الأسبوعية ، ووالله لقد أخذنى الخجل حينما قرأت لواحد من هؤلاء يصف ما عاناه من مشاق على مدى أربع وعشرين ساعة بالطائرة والسيارة إلى أن وصل إلى « المحروس » حيدرحيدر ، وظفر منه بحديث ، وحرص على أن يلتقط معه عددًا من الصور فى أوضاع مختلفة ، وظفر منه كذلك بتوقيعه على « الأتوجراف » الخاص به (!!) . كتب السيد المحترم فى نشرته الأسبوعية المغمورة « ... على باب المنزل (منزل حيدر) يوجد كلب حراسة ، وقمت بمداعبته (!!!) وخلال ثوانى (كذا) فتح لنا الباب الكاتب الروائى حيدرحيدر ، يرتدى فانلة بنصف كم ، وبنطلون (كذا) ، ويبدو عليه الشباب والحيوية والعبقرية (!!!) .. » .

وتذكرت ما كتبه أنيس منصور فى كتابه القيم « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » واصفًا المشاق التى عاناها حتى التقى بـ « الدالاى لاما » أيام أزمته المشهورة .. ولكن شتان . وتذكرت - بعد قراءتى الكلمات السابقة - جملة الدكتور محمد عباس المشهورة « وضحكت ، وضحكت .. وضحكت » لا من قدرة « السيد التنويرى المحترم » على مداعبة كلب الحراسة .. (وكلاب الحراسة من صفاتها الشراسة) ، ولكن من وصف حيدر بأنه تبدو عليه العبقرية ... هكذا .. بسهولة يا تنويرى ؟ الشباب والحيوية نعم .. وارتباطهما بالبنطلون والفانلة أُمٌّ نصف كم .. .. جايز .. لكن « العبقرية » ... ؟!!!

* * *

نعم هذه بعض « التعريات » التى قدمتها رواية « وليمة لأعشاب البحر » من حيث لا تقصد .. ومن حيث لا يقصد كاتبها حيدر حيدر .. ولكنى أذكر القارئ مرة أخرى بأن هذه الرواية :

- **فى ميزان الإسلام رواية ساقطة داعرة !!**
- **وفى ميزان العقل رواية مختلة فاسدة !!**
- **وفى ميزان الأدب والنقد رواية ضعيفة مهترئة .**

أقولها بعد دراسة طويلة ، ومعايشة واعية .. أقولها لا أقصد بها إرضاء أحد .. ولا إغضاب مخلوق .. ولكن أقصد بها وجه الحق .. وتحرير الحقيقة .. بلا إسراف أو تقصير .. بلا إفراط أو تفريط .

والحمد لله رب العالمين فى الأولى والآخرة .

د . جابر قميحة

ربيع الآخر ١٤٢١

الموافق يوليو ٢٠٠٠

★ ★ ★

الوثـــائق

بيَان مجمع البُحوث الإسْلَاميَّة
بشأن رواية
وليمة لأعشاب البحر

لمؤلفها : حيدر حيدر

طبع ونشر الهيئة العامة لقصور الثقافة التابعة لوزارة الثقافة بالقاهرة .

تم عرض موضوع الرواية المشار إليها على « لجنة البحوث الفقهية » فكلفت اثنين من أعضائها المتخصصين بكتابة تقريرين منفصلين عن الرواية لعرضهما فى جلسة استثنائية « لمجمع البحوث الإسلامية » حدد لها يوم الأربعاء ١٣ من شهر صفر ١٤٢١ هـ الموافق ١٧ من شهر مايو سنة ٢٠٠٠ م ، وقد تم عرض هذين التقريرين والرواية على المجمع فى جلسته الاستثنائية وتبين ما يأتى :

أولاً : أن وزارة الثقافة التى نشرت هذه الرواية لم تستطلع رأى الأزهر الشريف أومجمع البحوث الإسلامية مع ما ورد فيها من أمور كثيرة تتصل بالإسلام والعقيدة والشريعة .. وذلك على خلاف ما يقضى به القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١ م بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها ولائحته التنفيذية والقوانين المتصلة بحماية حق المؤلف وتنظيم وزارة الثقافة مما قطعت فيه الجمعية العمومية لقسمى الفتوى والتشريع بمجلس الدولة بفتواها الصادرة بجلسة ٢ من فبراير سنة ١٩٩٤ (ملف رقم ٥٨/ ١ - ٦٦) من أن الأزهر الشريف هو وحده صاحب الرأى الملزم لوزارة الثقافة فى تقدير الشأن الإسلامى للترخيص أو رفض الترخيص بالمصنفات ، وأن شيخ الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية ، وما يتبعه من إدارات هو صاحب الولاية فى فحص المؤلفات والمصنفات التى تتعرض للإسلام لإبداء الرأى فيها .

ثانيًا : إن الرواية مليئة بالألفاظ والعبارات التى تُحَقِّرُ وتهين جميع المقدسات الدينية بما فى ذلك ذات اللّه - سبحانه وتعالى - والرسول ﷺ والقرآن الكريم واليوم الآخر ، والقيم الدينية .

ومن ذلك أنها تستهزئ بذات اللّه ، مثل وصفه بأنه « فنان فاشل » (ص ٢١٩) ، وأنه نسى بعض مخلوقاته من تراكم مشاغله التى لا تحد فى بلاد العرب وحدها (ص ٢٥٧) وأنه أقام مملكته الوهمية فى فراغ السماوات ليدخل فى خلود ذاته بذاته (ص ٤٢٦) .

كما يفتري على الرسول – عليه الصلاة والسلام – بأنه تزوج لأكثر من عشرين امرأة ما بين شرعية ، وخليلة ، ومتعة (ص ١٤٨) ، وأنه كان يتزوج من عذارى القبائل بغية توحيدها (ص ٤٢٦ ، ٤٢٧) .

وأنه حَرَّفَ في آيات القرآن الكريم ونسب إليه ما ليس منه كقوله : « واللّه – تعالى – قال في كتابه العزيز :

(إذا بليتم بالمعاصي فاستتروا) (ص ١٤٨) .

كما أن الرواية تحرض صراحة على الخروج عن الشريعة الإسلامية وعدم التمسك بأحكامها وذلك بالدعوة إلى ضرورة الانفصال عن الدين .. واللّه .. والأخلاق .. والتقاليد .. والأزمنة الموحلة .. والجنة .. والجحيم الخرافيين .. وطاعة أولي الأمر والوالدين ، والزواج المبارك بالشرع ، وسائر الأكاذيب والطقوس التي رسمتها دهور الكذب (ص ٣٤٨) .

ثالثًا : إن الرواية خرجت عن الآداب العامة خروجًا فاضحًا .. وذلك بالدعوة إلى الجنس غير المشروع ، واستعمال الألفاظ في الوقاع وأعضائه الجنسية للذكر والأنثى بلا حياء مما يعف اللسان عن ذكرها وكتابة نصها حفاظًا على الحياء العام الذي انتهكته الرواية .

رابعًا : إن الرواية لم تكتف بذلك .. بل حرضت صراحة على إهانة جميع الحكام العرب ، ووصفتهم بأقبح وأقذع الأوصاف مما يعف المقام عن ذكرها ، وطالبت بالخروج عليهم والثورة ولو بإراقة الدماء .

خامسًا : اتضح لمجمع البحوث الإسلامية من كل ما سبق أن ما ورد برواية « وليمة لأعشاب البحر » لمؤلفها حيدرحيدر خروج عما هو معلوم من الدين بالضرورة ، وينتهك المقدسات الدينية والشرائع السماوية ، والآداب العامة ، والقيم القومية ويثير الفتن ويزعزع تماسك وحدة الأمة التي هي الركيزة الأساسية لبناء الدولة ، ويضع على عاتق من نشروا هذه الرواية دون استطلاع رأي أهل الاختصاص المسئولية الكاملة عن هذا التجاوز والآثار المترتبة عليه .. دينيًا واجتماعيًا .. وذلك على النحو الموضح تفصيلًا بالتقريرين المقدمين من عضوي مجمع البحوث الإسلامية المشار إليهما .

واللّه ولي التوفيق .

شيخ الأزهر

الأستاذ الدكتور / محمد سيد طنطاوي

تحريرًا في ١٣ من صفر سنة ١٤٢١ هـ

الموافق ١٧ من مايو سنة ٢٠٠٠ م

نداء من علماء الأزهر الشريف إلى السيد رئيس الجمهورية بشأن تجاوزات وزارة الثقافة الخطيرة


العجمى الدمنهورى


عبد الحى الفرماوى


د . عبد المنعم البرى

السيد محمد حسنى مبارك - رئيس جمهورية مصر العربية، سدد الله على طريق الحق خطاه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

سيادة الرئيس: إن جمهرة علماء الأزهر وهم يلتفون حولك جنودًا للحق مخلصين نحو الغايات النبيلة والأهداف الكبيرة لتحقيق ما فيه خير البلاد والعباد يفزعون إلى الله تعالى ثم إليك لتدارك ما يمر بمصرنا وما نزل بها من فتن من شأنها أن توقد نيرانًا تتبدد بها الجهود وتأتى على الأخضر واليابس.

لقد دأبت وزارة الثقافة منذ سنوات على إصدار مطبوعات استهدفت أخص خصائص الأمة فى العقيدة، وفى الأخلاق وفى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بنشر كتب وروايات ومقالات فى المطبوعات المختلفة التى تصدر عن وحداتها الثقافية حتى نالت من المشروع النبيل «مهرجان القراءة للجميع» فدسوا بين إصداراته مطبوعات سيئة منها «محمد واليهود» الذى حمل محاباة لليهود مع تحامل وتشويه للإسلام وكتابه، وكتاب «موسم الهجرة إلى الشمال» لمؤلف سودانى حظرت السلطات السودانية نشره هناك ثم وجد طريقه بوزارة الثقافة المصرية وتم نشره ضمن إصدارات «مهرجان القراءة» عام ٩٦ وكتاب «دعوة للحوار» للدكتور حسن حنفى، وقد تم نشره كذلك عام ١٩٩٦، ... من فيه من تلخيص لمواقفه التى لم تجد من المنسوبين ... العلم غير واحد فقط دافع عنه ونجح فى التعريف ... بها، ورواية «الصقار» التى صدرت ضمن سلسلة كتابات جديدة عام ١٩٩٧، وكتابات «المجموعة القصصية» وهى عبارة عن قصص قصيرة يجمعها هدف واحد وفى هذه الروايات إثارات ملهبة للغرائز الجنسية ... الشباب بالتصوير المكشوف للعلاقات الجنسية بين العشاق والزناة، فى عبارات فاجرة ماجنة فيها إشاعة للرذائل وذبح للفضائل، من ذلك ما جاء فى ديوان «امرأة يروق لها البحر» وفيه: فتاة يقاسمنى فى حبها الله باحبه ولا أناصبه العداء، لمن سخونة الأرداف وقلق النهدين، أنت اختبرت خصوبتى، وسخونة رغوتى دليلٌ وحيدٌ على انتماء الماء للنار، وربما أسهر ليلة بكاملها مع أبى حيان التوحيدى لأعرف رأيه بوضوح فى الوطنية واستدراج العاهرات بعد انتصاف الليل، مونيكا حضارة الأنبياء، تأتيه لى فى الصلاة كأنك جزء من الصلاة.

وفى رواية أخرى تحت عنوان «رائحة النعناع» يقول المؤلف: برعاية وزارة الثقافة إذا قدر لأحد أن يخلد فسوف تكون بدرية، أحضرها أصدقائى، لم أدر ما الذى اعترانى وحتى أثناء الممارسة السريعة الملهوفة والتى انتهت فى ثوان كنت متضايقًا من حجم كبر ثدييها ومن أنها كانت عبارةً دفء لزج متسخ، قابلتها بعد ذلك بأيام نحكت لى أنها كانت خارجةً لتوها من المستشفى قالت: كنتوا كتير قوى تعبتونى».

تلك الحقارات المسفة ينفق عليها من حرُ مال الدولة، وتغرق بها الأسواق بأزهد الأثمان والدستور جعل الأسرة أساس المجتمع قوامها الدين والأخلاق ووزارة الثقافة تبدد أموال الأمة فى تدمير الشباب وإشاعة الرذائل بين جموعه مما نتج عنه سلوكيات تنذر بالثبور وعظائم الأمور، وليس لإدمان وأشكال الأنكحة الفاسدة وعبادة الشيطان وزنا المحارم واغتصاب البنات إلا بوادر لتلك الثمرات المرة لهذا الغرس الخبيث الذى أفرغ قلوبنا من انهيار القيم، وتحطيم سياج الأخلاق وإيقاد نيران الشهوات.

يا سيادة الرئيس: إن هذه المطبوعات التى تصدر عن «وحدات» وزارة الثقافة فى عهد الوزير فاروق حسنى قد ضمت إلى تدمير الأخلاق تطاولاً سافرًا على المقدسات الدينية من سخرية بالذات الإلهية، والقرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم، حتى لقد قال كاتب رواية «الصقار»: إنه كان إذا قضى حاجته يتطهر بصفحات وأوراق القرآن بدلاً من التطهر بالماء!!

يا سيادة الرئيس: ثم كانت الطامة الكبرى والداهية الدهياء، تلك الرواية «وليمة لأعشاب البحر» التى قال عنها الوزير فاروق حسنى: إنه ليس فيها ما يسئ للإسلام، وإنها تدعو للعقيدة والإيمان وتبجل الإسلام!! رغم أنها تطفح بكل قبيح من القول ورذيل الأعمال، فالكاتب المدعو «حيدر حيدر» يسب فيها الله عز وجل ويسخر علنًا من القرآن العظيم، ويرمى سيد الخلق


د . محمود حماية


د . مصطفي إمام


د . يحيى إسماعيل

صلى الله عليه وسلم بالفسق والزنا مع الدعوات المتكررة للفسق والفجور وتهييج الغرائز الجنسية.

ومع هذا يقول وزير الثقافة عنها إنها تبجل الإسلام.

اى تبجيل واى إسلام يا سيادة الرئيس في وصف كاتب الرواية لله عز وجل بأنه فنانٌ وفاشلٌ (ص ٢٢٠).

اى تبجيل واى إسلام في قول الكاتب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه «تزوج اكثر من عشرين امراة بين شرعية وخليلة ومتعة» (ص ١٦٨) والخليلة هى المعشوقة غير الزوجة.

اى تبجيل واى إسلام هذا في قول الكاتب على لسان محاوره: «خرا بربك دعك من الانحطاط العضوى» بغير تعقيب.

اى تبجيل واى إسلام هذا والكاتب يقول معلقًا: كان يداعب تلال المؤخرة الحريرية وحلمة الثدى للتنويع، الأمان لكم انتم الرجال، صح والله صح لم يبق الرجل للمبيت في اكثر من عش، تلك رغبة ربنا ونبينا محمد اول المرسلين (ص ٦٠٩). هل كان رسولنا صلى الله عليه وسلم اول المرسلين والله جل جلاله يقول فيه (ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين).

اى تبجيل واى دين يا سيادة الرئيس في قول الكاتب «فتحركت فاردة ثدييها، ثم استندت بنصفها ....» ونمسك عن الاسترسال رعاية لحرمتك وحرمة الدولة وحق القراء (١٨٦).

اى تبجيل واى إسلام هذا والكاتب المارق يقول في واطئ «فلة» اكتشف الله فى جسدها، واندفع اللهب فانكشف الله فى جسد فلة العاهرة» (ص ٢٥٩).

سيادة الرئيس: إن علماء الأزهر الشريف يناشدونكم سرعة التدخل شخصيًا لوقف هذه الجرائم وتطهير وزارة الثقافة من كل من أساء إلى الدين والوطن والأخلاق، وبدد المال العام فيما يضر بالأمة، كما يناشدونكم رفع الحصار عن الدعاة المخلصين الذين يعرفون كيف يدعون إلى الفضائل ويحاربون الرذائل بالحكمة والموعظة الحسنة حسبة خالصة لوجه الله تعالى، ثم يناشدونكم بالتدخل الشخصي لإعادة الوحدة إلى صفوف علماء الأزهر وجمع كلمتهم على ما فيه خير البلاد والعباد، ورفع الظلم الواقع على بعضهم من بعضهم حتى يفرغوا لاداء حق البلاغ عن الله تعالى ومعاونة الدولة فى مطاردة الفساد والمفسدين.

سيادة الرئيس: نرفع إليكم هذا النداء نحن هداة الأمة وائمتها أملين سرعة تدخلكم بالوسائل الحكيمة التى ترونها لتطهير مواقع المسئولية من كل ما يسئ إلى الوطن وقيمه ومبادئه ومقدساته.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) صدق الله العظيم

العلماء الموقعون على النداء:

١- ا. د. العجمي دمنهوري خليفة - استاذ ورئيس قسم الحديث وعلومه بجامعة الأزهر (سابقًا)، أستاذ الحديث المتفرغ بجامعة الازهر ورئيس جبهة علماء الأزهر.

٢- الشيخ سيد عبدالمقصود عسكر - امين عام مساعد مجمع البحوث الإسلامية السابق

٣- د. سعيد أبوالفتوح البسيوني- استاذ الشريعة المساعد بكلية حقوق جامعة عين شمس وامين عام جبهة علماء الأزهر.

٤- د. حسن يونس عبيد - استاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بجامعة الأزهر، وكيل جبهة علماء الأزهر

٥- د. محمد عبدالمنعم البرى - أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر، ورئيس مركز الدراسات الحرة سابقًا.

٦- د. إبراهيم محمد الخولى - أستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر

٧- د. مصطفى محمد إمام - أستاذ اللغويات بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر

٨- ا. د. إبراهيم محمد قاسم - استاذ البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر

٩- ا. د. محمد على عبده زايد - استاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر

١٠- ا. د. يحيى إسماعيل احمد حبلوش - استاذ الحديث وعلومه بجامعة الأزهر وعضو جبهة علماء الأزهر وامين عام جبهة علماء الأزهر سابقًا

١١- ا. د. عبدالستار فتح الله سعيد - أستاذ التفسير وعلوم القران بجامعتى الأزهر وام القرى.

١٢- ا. د. عبدالحي حسين الفرماوى - استاذ التفسير وعلوم القران بجامعتى الأزهر وام القرى.

١٣- ا. د. محمود على حماية - استاذ ورئيس قسم الدعوة بكلية اصول الدين - فرع اسيوط.

١٤- ا. د. احمد على طه ريان - أستاذ الفقه المقارن بكلية الشريعة والقانون - القاهرة.

١٥- ا. د. الخشوعي محمد الخشوعي - استاذ الحديث المساعد بكلية أصول الدين - القاهرة.

١٦- ا. د. مروان محمد شاهين - استاذ الحديث الشريف وعلومه بجامعة الأزهر.



د. عبد الله شحاته



د. محمود مزروعة

١٧- أ. د. محمد السيد جبريل - استاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الازهر.
١٨- أ. د. احمد محرم الشيخ ناجى - استاذ ورئيس قسم الحديث بكلية اصول الدين فرع اسيوط.
١٩- أ. د. مجاهد محمد هريدى - استاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية اصول الدين فرع اسيوط.
٢٠- أ. د. عبدالقادر محمد ابو العلا - استاذ وعميد كلية الشريعة والقانون فرع اسيوط
٢١- أ. د. عبداللطيف خليف.
نائب رئيس جامعة الأزهر الاسبق
٢٢- أ. د. محمد حربى محمود شريف - مدير عام الوعظ ورئيس لجنة الفتوى بالشرقية
٢٣- أ. د. عبدالعظيم المطعنى - استاذ البلاغة والنقد بجامعة الازهر
٢٤- أ. د. توفيق عبدالغنى سالمان - وكيل كلية اصول الدين فرع شبين الكوم
٢٥- أ. د. عبدالفتاح فرج موسى - مفتش باوقاف كفر الشيخ، عضو جبهة علماء الازهر
٢٦- أ. د. جمال عبدالحميد فتيحة - دكتوراه فى الحديث وعلومه
٢٧- أ. د. محمود محمد مزروعة - استاذ العقيدة والفلسفة بجامعتى الازهر وأم القرى، مقرر لجنة البحوث العلمية بجبهة علماء الأزهر سابقاً.
٢٨- أ. د. طلعت محمد عفيفى سالم - استاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر.
٢٩- د. عبدالرافع عبدالحليم الفقى - مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر.
٣٠- د. رمضان أحمد الدقن. مدرس اللغة العربية بكلية اللغة العربية
٣١- أ. د. فرج محمد إبراهيم الوصيف - استاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية الدعوة فرع المنصورة جامعة الأزهر.
٣٢- د. رياض السيد عاشور - مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر
٣٣- أ. د. عبدالله محمود شحاتة - استاذ الشريعة الإسلامية. كلية دار العلوم. القاهرة.
٣٤- أ. د. ابو اليزيد أبو اليزيد العجمى - استاذ العقيدة والفلسفة بكلية دار العلوم بالقاهرة.
٣٥- أ. د. عبدالبديع ابو هاشم محمد - استاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بجامعة الأزهر.
٣٦- أ. د. عبدالرحمن محمد عويس - استاذ تفسير وعلوم القرآن المساعد بجامعة الأزهر.
٣٧- الشيخ إبراهيم عبدالجليل مقلد - مفتش باوقاف الدقهلية.
٣٨- أ. د. محمد نايل الصواف - عميد كليات اللغة العربية بجامعة الأزهر وليبيا والسعودية، وعضو مجمع اللغة العربية.
٣٩- أ. د. عاطف احمد امان - استاذ الحديث وعلومه بجامعتى الأزهر والملك خالد بالسعودية.
٤٠- الشيخ محمد احمد النجومى - من علماء الأزهر الشريف.
٤١- أ. د. محمود فرج سليمان - استاذ ورئيس قسم اصول الفقه بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات.
٤٢- أ. د. منيع عبدالحليم محمود - وكيل كلية أصول الدين، القاهرة.
٤٣- أ. د. عبدالله عبدالحى عبدالرازق - استاذ ورئيس قسم الدعوة بجامعة الأزهر سابقاً.
٤٤- أ. د. محمد عبدالسميع
٤٥- د. عطية السيد فياض - مدرس الفقه المقارن بكلية الشريعة.
٤٦- د. شعيب عبدالمنعم مرسى الغباشى - مدرس الإعلام بكلية اللغة.
٤٧- الشيخ ماهر عثمان عقل - واعظ عام بوزارة الداخلية سابقاً، عضو جبهة علماء الأزهر.
٤٨- أ. د. حسن احمد جبر - استاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية اصول الدين - الزقازيق.
٤٩- الشيخ محمد المهدى الأطروبى - من علماء الأزهر الشريف.
٥٠- إسماعيل على محمد على - استاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المساعد بكلية اصول الدين المنصورة.
٥١- أ. د. زكى محمد ابو سريع فرغلى - أستاذ التفسير وعلوم القرآن كلية الدراسات الإسلامية والعربية.
٥٢- الشيخ أحمد عيسى - عضو لجنة الفتوى بالأزهر الشريف سابقاً.
٥٣- أ. د. صلاح زيدان - استاذ اصول الفقه المساعد بجامعة الأزهر
٥٤- الشيخ على طه سعد - من علماء الأزهر الشريف.
٥٥- فريد على حليط - مدرس مساعد بكلية الشريعة والقانون.
٥٦- يسرى محمد السيد هانى - استاذ ورئيس قسم الدعوة بكلية أصول الدين، فرع المنصورة.
٥٧- يسرى عبدالعليم عجور - اصول الدين، القاهرة.
٥٨- د. محمد انور بيومى - مدرس مساعد، اصول الدين ، شبين الكوم.
٥٩- د. عبدالفتاح إسماعيل - استاذ الجراحة والاوعية الدموية الدقيقة وحاصل على الإجازة العالية فى الدعوة والثقافة الإسلامية، جامعة الأزهر
٦٠- علاء السيد عنتر - مدرس الحديث وعلومه بكلية اصول الدين بطنطا

«أخبار الأدب» تنفرد بنشر تقرير اللجنة العلمية حول الرواية:

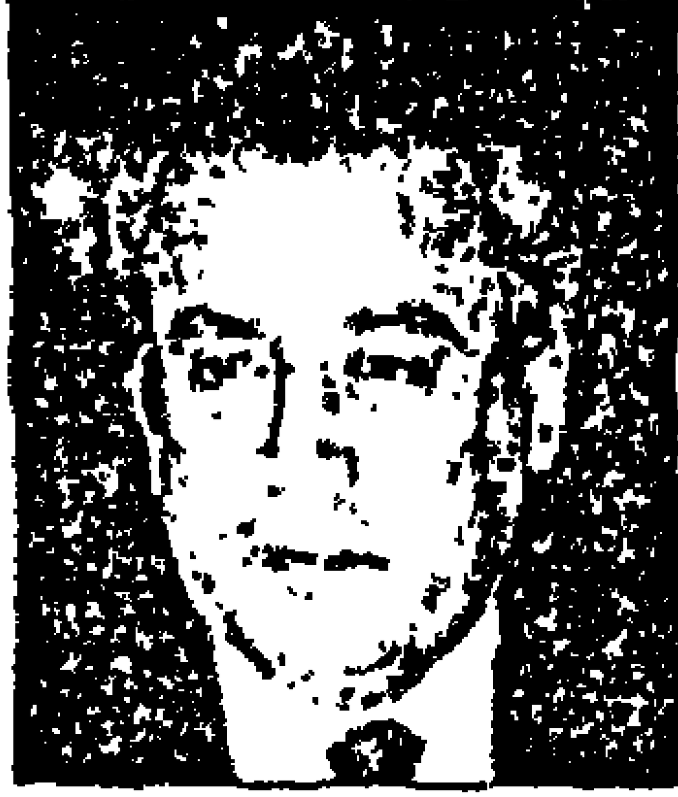
«وليمة لأعشاب البحر».. عمل مقاومة ينتصر للدين

الكاتب المثير للفتنة هو الذى أهان القرآن وليس الرواية


د . عبدالقادر القط


كامل زهيرى


د . صلاح فضل


د . جابر عصفور

محضر اجتماع اللجنة العلمية المشكلة لإعداد تقرير عن رواية «وليمة لأعشاب البحر»

اجتمعت اللجنة العلمية المشكلة بقرار الامين العام للمجلس الأعلى للثقافة رقم ٥٤ لسنة ٢٠٠٠ لاعداد تقرير عن رواية «وليمة لأعشاب البحر» للكاتب السورى حيدر حيدر فى تمام السابعة من مساء الثلاثاء ٢٠٠٠/٥/٩ بحضور كل من:

ا د . عبدالقادر القط مقرر اللجنة
ا د . صلاح فضل عضوا
ا د . كامل زهيرى عضوا
ا د . مصطفى مندور عضوا
د . عماد بدر الدين أبوغازى امينا للجنة

وقد اعتذر عن عدم الحضور:
أ د . احمد هيكل لمرضه

وقد استعرضت اللجنة التقارير الفردية المقدمة من أعضائها وتناقشت فيها باستفاضة (مرفق صورة منها) ثم انتهت الى صياغة تقرير جماعى يعبر عن رؤية اللجنة (مرفق نص التقرير).

وقد انتهى الاجتماع فى تمام الساعة التاسعة والنصف مساء.

امين اللجنة:
د . عماد بدرالدين ابوغازي
مقرر اللجنة:
ا د . عبدالقادر القط

تقرير اللجنة العلمية عن رواية «وليمة لأعشاب البحر»

تقدم رواية «وليمة لاعشاب البحر» رؤية مركبة للواقع السياسى المتحرك للتيارات التى ماج بها الوطن العربى فى النصف الثانى من القرن العشرين، وتبرز المشاهد الاستهلالية للرواية الروح التى تسيطر على اتجاه المعنى فيها، حيث تصور وداع مهدى جواد الشخصية المحورية- قبل رحيله الى الجزائر على النحو التالى: «أخت فى لون المرارة وشهقة النحيب ترفع القرآن بيد، وباليد الاخرى صحنا من الطحين. على الكتاب المطهّر يضع راحة كفه، ثم يعبر بخشية وجلال، منحنياً بقامته ورأسه تحت قوس الطحين تمتمات وأدعية تنطلق من أعماق السلالة التى تودع طفلها: أقسم بهذا المقدس وبهذه النعمة أن اكون وفياً، والا انسى فى الغربة البعيدة رائحة البيت والأرض والخبز، وصلوات الأجداد، والحليب والدم، وصرخة الحسين وهو يذبح بسيف الشمر»، إنه من السلالة النبوية، على الرغم من أنه أصبح ثوريا شيوعيا، وربما حنث بقسمه بعد ذلك، ولكن قبل أن نمضى فى تدليل القراءة الصحيحة للرواية ينبغى أن نتذكر أن تقييم الأعمال الإبداعية عامة، والرواية على وجه الخصوص يعتمد على ادراك طبيعة الرواية، بوصفها تتمثل فى ابداع عالم فنى متخيل، يحاكى فى قوانينه العالم الكبير، اعتمادا على تكوين شخصيات متخيلة، تنسب اليها أقوال وأفعال خاصة، ومواقف مماثلة لما يحدث فى الحياة بشكل أو آخر، وكل العبارات التى ترد فى الأعمال الروائية لايمكن أن تفهم على وجهها الصحيح منفصلة عن سياقها، ولا عن طبيعة الشخصيات التى تنطق بها، ولا التعليقات التى ترد عليها من شخصيات اخرى، وأى اجتزاء لعبارة من عمل روائى وفهمها خارج سياقها وبعيدا عن شخصية الناطق بها ورد المستمع لها فهو فهم غير سليم، ومن ناحية اخرى فان وظيفة الأدب الروائى هى نقد الحياة وتعميق الوعى الجمالى بها، وهذا يقتضى المحافظة على حرية التخيل من ناحية وقوة التعبير الفنى وصدقه من ناحية اخرى.

وأية محاولة لانتقاص حرية التخيل او إضعاف الصدق تؤدى إلى إضرار بالوظيفة الأدبية الجوهرية.

والرواية تقدم تجربة واسعة لعراقيين يعتنقان الفكر الشيوعى، ويقاومان مع كثير من عامة الشعب العراقى الحكم العسكرى القائم على العسف والمطاردة والقتل والتعذيب والمحاكمات الصورية أيام حكم انقلاب عسكرى معروف، وحين لا يجدان بعد المطاردة والسجن والتعذيب منجى من الموت إلا الهجرة الى بلد عربى يتوسمان فيه الأمان والترحيب يهاجران إلى الجزائر بعد ان كانت ثورتها قد نجحت وطرد المستعمرون الفرنسيون، واستولى الوطنيون على الحكم، كان مهدى جواد ومهيار الباهلى يأملان أن يجدا شيئا من الطمأنينة النفسية تعيد إليهما الاستقرار فى تلك المدينة الجزائرية الصغيرة «بونه» على ساحل البحر.

لكن الجزائريين كانوا يجتازون حينذاك فترة انتقال يسودها القلق والاحساس بأن السياسيين والانتهازيين قد جنوا ثمار ثورتهم التى ضحى الاف الشهداء بأرواحهم فى سبيلها، فكان فى نفوسهم كثير من الشك فيما بينهم وكثير من الشك فيمن يفد اليهم من الغرباء.

وهكذا تحول العذاب الجسدى والنفسى

الذى لقيــــاه فى العــــراق الى قلق دائم وإحساس بالغربة والعجز عن التواصل مع أبناء مهجرهم إلا من خلال علاقات عاطفية شخصية محدودة، يصفها الراوى بأسلوب شعرى جميل وهو يصور حب مهدى جواد وسلمى الاخضر فى رحاب البحر والطبيعة وصخور الشاطىء وفى مجابهة محفوفة بالمخاطر مع مجتمع المدينة الصغيرة المحافظ، ورسم الراوى صلة اخرى ذات طبيعة حسية خالصة وان لم تخل من مشاركة فى ذكريات المقاومة العراقية والثورة الجزائرية بين مهيار الباهلي وفلة العنابية، وهى امرأة شاركت فى الثورة مشاركة فعالة ثم وجدت نفسها فى النهاية - كما وجد كثير من الجزائريين انفسهم - وحيدة منبوذة - فلم تجد إلا الجنس سلوانا عن هزيمتها.

والمعنى الكلى للرواية يشير الى قيام حركتين ثوريتين: إحداهما شيوعية مجافية للدين في اهوار العراق ويكون مصيرها الفشل الذريع، والاخرى ثورية تحررية رفعت القرآن الكريم واعتمدت على الايمان فانتصرت فى الجزائر كما يقول الراوى: «حين هبط ثوار حرب التحرير الجزائرية من الجبال المصبوغة بالدم كانوا يهللون بتكبيرات عصور الفتح الأول. كل مجاهد علق على صدره قرآنا عربيا كان بمثابة الرقية ضد رصاص المستعمر».

ونلاحظ أن طبيعة الشخصيات التى تتحرك فى الرواية على قدر كبير من القلق والتوتر العصبى، يجعل احاديثها احيانا تبدو متجاوزة للمألوف، وقد يجد فيها القارىء غير المتمرس بقراءة الأعمال الابداعية اسرافا فى المرارة والحدة، لكنه عندما ينسبها إلى طبيعة الشخصية ويستحضر الموقف فى جملته يتبين أنها تعبر عن لحظة بعينها وتصبح ضرورية من الوجهة الفنية لتصوير الموقف.

ومن هنا فإن مانسب الى الرواية من بعض العبارات التى يبدو فى الظاهر أنها يمكن أن تمس شعور القارىء غير المدرب لما يظن انه مساس بالدين أو طعن فى القرآن الكريم او تعريض بحياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهو من قبيل سوء فهم الفن الروائى وتحريف عباراته، وانتزاعها من سياقها وتجاهل مايرد فى النص ذاته من رد عليها من شخصيات مخالفة، والمشاهد المشار إليها على وجه التحديد هى مايلى:

أولا: ماورد فى صفحة ١٢٨ - ١٢٩ من الطبعة المصرية على لسان الشيوعى الهارب «مهيار الباهلى» فى صور نقد ادعاء حكومة الرئيس بومدين تبرير التاميمات الاشتراكية بانها من الاسلام، حيث تقول الشخصية المتخيلة فى حوارها مع الاخرين:

«التأميم ليس الاشتراكية، وهذا الذى يحدث ليس اكثر من ترقيع مزيف لا يمحو الاستلاب الجوهرى للانسان، اشتراكية بروح العلم لا بروح الدين هذا ماينبغى ان يكون.. الوعى العميق بالتاريخ غائب، وهؤلاء يهمشون التاريخ ويعيدونه مليون عام الى الوراء.. فى عصر الذرة والفضاء والعقل المتفجر، يحكموننا بقوانين الهة البدو وتعاليم القرآن.. خراء» ثم تتابع الرواية على الفور شرح رد فعل الشخصية الثانية «كان مهدى جواد يتملى البحر من خلال الزجاج المغبش مراقبا الدوران الأبله لطيور النورس.. ولكى يبعد عن راسه طنين الكلمات الضخمة التى يطلقها عقل السيد الباهلى الملتاث كان يسلس العنان لخياله».

وبقراءة هذا المشهد يتضح أنه يعبر عن موقفين لشخصيتين تنتميان الى الحزب الشيوعى، احداهما تنقد تجربة الجزائر فى التاميمات باسم الدين والقرآن، وتؤكد على الجانب اللادينى، وتصف التجربة بانها خراء، والآخر - وهو شيوعى ايضا - لا يقبل كلامه ويحكم عليه بانه ملتاث العقل، وعندئذ لابد لنا من ملاحظة مايلى:

١ - نسبة هذه الأقوال الى الرواية والمؤلف غير صحيحة، لأنها تصدر عن شخصية متخيلة، تناسب معتقدها، وهى فى منظور شخصية أخرى نوع من لوثة العقل.

٢ - الغاء النقطة التى جاءت بعد لفظة القرآن والقول بأن الوصف البذىء الذى جاء عقبها ينصب على كلمة القرآن فيه تحريض مقصود، واساءة واضحة لتهييج المشاعر الدينية، وهو مخالف لأمانه النقل، يترتب عليه تغيير للمعنى واختلاف الدلالة، لأن مايوصف بانه خراء هو الحكم السياسى بتبريرات دينية.

٣ - إهمال الإشارة الى رد فعل الشخصية المقابلة واعتبار كلامها لوثة عقل مختل يصبح من قبيل لاتقربوا الصلاة.

على أنه من المعروف - حتى فى الكتابة غير الادبية - ان من يروى الكفر ليس بكافر، والقرآن الكريم ملىء بأقوال الملحدين والكفار الواردة فى سياق الرد عليه وتفنيدها ولا ينتظر من الأعمال الابداعية سوى أمرين.

- أن تكون الاقوال ملائمة لطبيعة الشخصية التى تنطقها، وهذا متحقق
- أن تكون الدلالة الكلية للعمل مغايرة لهذا المنظور الجزئى.

والقراءة الكاملة للنص الروائى تشهد بورود عشرات العبارات الاخرى التى تعلى من شأن التجربة الدينية التى أدت الى انتصار ثورة الجزائر، وتؤكد شعور التقديس المهيمن على بقية الشخوص تجاه القرآن الكريم واحترام التربية الاسلامية والتنديد بالاستعمار الاجنبى، ومنها وصية الشهيد الجزائرى - والد الفتاة التى تلعب دور البطولة - لزوجته: «ربيهم تربية تليق بنا كمسلمين. نحن نقاتل حتى لا يلوث الاستعمار شرفنا، ومن لايحافظ على بيته لايحافظ على وطنه» (ص ٦٤).

ويقول مهيار الباهلى - أحد الشخصيتين الرئيسيتين : الفلاحون شجرة الثورة ووقودها. هم الذين ابقوا الجذوة متقدة حتى النصر. هؤلاء هم البحر ونحن السمك الآن نحن بينهم كما كان رسولنا محمد مع المهاجرين والأنصار».

وحينما تقول آسيا عن المستعمرين الفرنسيين: «غرسوا فى ذاكرتنا أن المسلمين والعرب كانوا غزاة فاتحين. كانوا يؤكدون لنا أن القرآن مأخوذ عن الإنجيل والتوراة، واللغة العربية لغة دين وشعر لا لغة علم، وهذا هو سبب تخلف العرب فى العلوم والحضارة الحديثة». يرد عليها صديقها مهدى بقوله: «هذا طبيعى، إنهم منطقيون ومنسجمون مع غاياتهم. الاستعمار فى النهاية ليس العنف وحده، بل التزوير والاستلاب والقطيعة مع الجماعة».

ثانيا: ما جاء فى صفحة ١٤٨ من الحوار التالى الذى يدور بين مهدى جواد مدرس اللغة العربية والحاج محمد - صاحب المنزل الذى يسكن فيه - عقب نقاش حاد اتهم فيه الحاج محمد المدرس بالفاحشة لمجرد أنه كان يعطى درسا لتلميذة لديه، وشرع فى طرده ليسكن مكانه شخصى فرنسى سوف يضاعف له الأجر، ويأتى الحوار هكذا:

«فاجأه مهدى هازئا: عمى الحاج، بصلاة محمد على راسك هل أحببت فى حياتك؟

وقال الحاج: واحدة واحدة. على سنة الله ورسوله

- طبعا تزوجتها
- أكيد.
- ولكن الله قال: انكحوا ما طاب لكم. ورسولنا المعظم كان مثالنا جميعا، ونحن على سنته. لقد تزوج أكثر من عشرين امرأة، بين شرعية وخليلة ومتعة: وكان صلوات الله عليه وسلم يقول: (تناسلوا. تناسلوا. فإنى مفاخر بكم الأمم) استبد الغضب بالحاج: الرسول تزوج حسب الشريعة. أما أنتم فتريدونها شيوعية، والله تعالى قال فى كتابه العزيز: (إذا بليتم بالمعاصى فاستتروا). وهذا المشهد يدور بين شخصيتين متخيلتين، أحدهما مدرس غريب يتعرض للطرد من مسكنه، بحجة خروجه على الأخلاق وقد كان ملتزما بها حتى هذا المشهد، بينما يكمن السبب الحقيقى فى الرغبة فى مضاعفة الكسب وفى بالتعامل مع بقايا الاستعمار الفرنسى، والطرف الثانى يتذرع بالدين وهو جاهل به، والشيوعى لم يخطىء فى نسبة الآية الكريمة «انكحوا ما طاب لكم»، ولكن الحاج الجاهل نسب الى القرآن ما ليس فيه، وهنا تكمن المفارقة القصصية. وكل منهما يعبر عن رايه وموقفه، وتذرع المدرس بفعل الرسول

عليه السلام لايقصد به الطعن عليه فى هذا الموقف، بل يحاول ان يستند إلى حجة دينية فى خطابه للحاج الذى يظهر التدين، ولايمكن عند القراءة الادبية للنص في جملته ان نستشعر رغبة المساس بشخصية الرسول فهى ترد بوصف المعظم، وإن كانت تبالغ فى عدد نسائه، ورد فعل الحاج الغاضب عليها تعديل للمعنى ونسبته الى الفكر الشيوعى لمحاوره.

أما المشهد الثالث فهو غزلى عابث، يدور بين مهدى جواد، المدرس الشيوعى، وتلميذته التى تتحول إلى عاشقة، ويمضى هكذا:

«تجذبه أسيا من شعره فيلتقى بصرامما.. انت لى، هاه، عليك ان تفهم ذلك منذ الليلة، ويضحك، انفها الكبير المفلطح يراجهه، يقرص انفها، لكن انفك مذا سيعترض مستقبلنا.

- هو من صنع ربى، لماذا تسخر منه،
- لابد ان ربك فنان فاشل انن.

ونلاحظ علي هذا المشهد ثلاثة امور

أولها: انه يأتى على سبيل الدعابة وروح الفكاهة، فى لحظة غزلية بعيدة عن الجد، ومن شأن الادب فى هذه المواقف ان يتظرف بعبارات غير لائقة تاتى على لسان الشخصيات الملائمة لها.

ثانيها: أن الفتاة تحاول التخلص من عيبها الخلقى فى فلطحة الأنف بنسبته الي ربها على الطريقة الجزائرية فى العامية الدارجة، وهو يلتقط منها الخيط ليدين تصورها لربها لا ربه هو ولا الذات الإلهية.

ثالثها: ان موقف القراء من مثل هذه العبارات يترقف على مدى شعورهم بالحرج والتحفظ او الاكتفاء بادانة الشخصية المتخيلة فى سوء تعبيرها. ولا يمكن ان يلغي مثل هذا النزق التعبيرى عشرات العبارات والمشاهد الاخرى بروح الاحترام والتقديس للدين، فالحياة مفعمة بالجانبين، وعندما يتصدى الادب لنقدها، ويجعلنا نشعر بالتحرج منها، يكون قد قام بوظيفته فى انفتاح وعينا بالمخالفين لنا وتشكيل خبرتنا بالكون والوجود.

لهذا فان اعادة نشر هذه الرواية لايمكن ان يعدَّ مساسا بالدين ولايجوز محاكمتها، من منظور غير أدبى، وماقيل عنها فيه تجن كبير عليها وتحريف لمواضعها، وتجاهل لقيمتها الفنية المتميزة.

الثقافة الجادة

لا للتطاول على الله ، والقرآن ، والرسول ﷺ

ومما جاء في مقال الأستاذ فاروق جويدة ما يلى :

ليس من الحكمة في شيء أن يحاول البعض إشعال النيران كلما هدأت خاصة أننا جميعًا دولة ووطنًا وشعبًا قد دفعنا الثمن غاليًا .. وفى السنوات الأخيرة استطاعت مصر أن تتجاوز محنة الإرهاب التي هددت أمننا واستقرارنا وأطاحت بالكثير من أحلامنا فى التقدم والرخاء .

ولا أدرى لماذا يحاول البعض الآن الدخول بنا إلى معارك لا مبرر لها وقد تكون خسائرها أكبر بكثير من كل ما فعله الإرهاب بنا .. إننى أتابع منذ فترة بعيدة بعض الكتابات فى الصحف والمجلات المصرية التى دأب كتابها على الهجوم على الإسلام : الدين .. والعقيدة .. والرموز .. والتاريخ .. ولا أدرى ما هو الهدف من هذه الكتابات وما هي الغاية منها .. وإن كنت على يقين أنها لا تخدم مصالح الوطن بأى شكل من الأشكال .

ولا يمكن أن يكون بين الدولة والإسلام عداوة ، ومن الخطأ أن يحاول البعض بأساليب رخيصة إيجاد هذه العداوة .. إن هناك جوانب أساسية توضح موقف الدولة التى لا يمكن أن تعادى الإسلام دينها أو تأخذ منه موقفًا .

إن الإسلام ما زال حتى الآن الدين الرسمي للدولة المصرية .. وكل القوانين والتشريعات والمواقف والسياسات تؤكد ذلك لأنها تعبر من خلال هذا المنظور الواضح الذى لا خلاف ولا جدال حوله . إن رئيس مصر حسنى مبارك يعرف تمامًا كرجل مسلم قدر دينه وعقيدته ، ويدرك عن وعى عميق أن هناك فرقًا شاسعًا بين الإسلام الدين والإرهاب الظاهرة .. وفى أكثر من مناسبة كان الرئيس مبارك يؤكد هذا الموقف ، وفى رحلاته الخارجية كان الرجل يوضح ذلك أمام الإعلام الغربى ، وكان يدين دائمًا هذا الخطأ الشائع فى دوائر الغرب والذى يربط بين الإسلام والأرهاب ، لأن الإرهاب ظاهرة عالمية لا وطن لها ولا دين .

إن اهتمام الدولة بالأزهر الشريف تراثًا وتاريخًا وتعليمًا ودورًا لا يحتاج إلى تأكيد ولم تبخل مصر الدولة يومًا عن مؤسساتها الدينية بالمال والدعم والمساندة .

هذا هو التوجه الرسمى الواضح والصريح للقيادة السياسية وللدولة تجاه الإسلام .. ولكن بعض المزايدين والمتربصين لا يريدون لهذا الوطن أمنًا أو استقرارًا . إن بعض هؤلاء يتصور أن الهجوم على الإسلام والاعتداء على المقدسات الدينية يجد صدى لدى أجهزة الدولة فى معركتها مع الإرهاب .. وهذا تصور خاطئ

بعكس خللًا فى التفكير والفهم .. إن الدولة تقف ضد الإرهاب ونحن معها ولكنها لا يمكن أن تقف ضد دينها .. وأنا لا أتصور أن يفتح هؤلاء بتصرفاتهم الحمقاء معارك وخصومات ومواجهات ليس لها ما يبررها على الإطلاق .. إن المثقف الحقيقى هو الذى يجنب وطنه العثرات فما بالك بمن يلقى به إلى دوامات من الصراع والنتائج غير المحسوبة .

ما هى الحكمة من هذا الهجوم الضارى في بعض الصحف المصرية على رموزنا الإسلامية والسخرية منها .. والتهجم عليها .. وكيف نغفل ذلك أمام شباب يفتقد القدوة فى كل شىء .. ولماذا هذا الإصرار المريب على إسقاط هيبة هذه الرموز ومنها نماذج إنسانية رفيعة كانت غاية فى السماحة والزهد والعلم وحب الوطن ..

أتصور مثلًا أن تسخر هذه الكتابات من النماذج الرديئة فى حياتنا وما أكثرها أو أن تواجه الإرهاب بالفكر المستنير والإبداع الواعى .. أما أن تشمل السخرية كل ما يتعلق برموزنا الإسلامية فهذا عداء سافر للإسلام وهو أمر سيئ لنا جميعًا .

ما هو الهدف من نشر رواية سورية هى « وليمة لأعشاب البحر » للكاتب السورى حيدر حيدر من ميزانية أجهزتنا الثقافية وكيف تصدر من أموال تخص بجوع مصر وقراها وشبابها المطحون .. إن هذه الأمور خصصتها الدولة لتواجه بها خفافيش الظلام فى ريف مصر وقراها .. ومن الخطأ الجسيم أن تذهب لغير ذلك .. هل يعقل أن نترك كتابات عشرات المبدعين الشباب من المصريين وننفق أموالًا خصصتها الدولة لهم على رواية رديئة للكاتب السورى أثارت جدلًا واسعًا حول قيمتها الفنية !!

وهنا أتساءل .. ما هى الحكمة من نشر أعمال أدبية شاذة لأشخاص مرضى يعانون أمراضًا نفسية وجنسية .. إن مصر كعبة الثقافة العربية وكان صدور رواية أو قصة لكاتب عربى من قاهرة المعز تتويجًا لمسيرته واعترافًا بقيمته .

ولكننا الآن فى مصر نطبع وننشر لكل من هب ودب .. ولم يكن غريبًا أن تتسلل نماذج ساقطة كان منها رواية « الخبز الحافى » للكاتب المغربى محمد شكرى وهى تحكى ذكريات رجل شاذ جنسيًا وكانت ضمن مناهج التعليم فى الجامعة الأمريكية حيث يدرسها أبناؤنا ويؤدون الامتحانات فيها .. ثم كانت أخيرًا « وليمة لأعشاب البحر » وهى كارثة أخرى فى سجل الأعمال غير المدروسة التى تنشرها مؤسساتها الثقافية .

ما هى الحكمة فى أن نختار هذه النماذج وأمامنا نماذج إبداعية راقية لعدد كبير من الكتاب العرب تتجسد فيها كل قيم الفن الرفيع منذ احتضنت مصر طوال تاريخها المبدعين العرب الكبار .

إننا لا يمكن أن نكون ضد حرية الإبداع .. ولكن لا توجد حرية بدون مسئولية .. وهناك فرق كبير بين إبداع جاد ومترفع ومسئول .. وبين إبداع مبتذل ورخيص ومسموم .

ما هي الحكمة في هذا التشجيع المحموم الذى يقوم به بعض نقادنا لهذه التيارات الدخيلة على ثقافتنا ابتداء بلغة الجسد .. وانتهاء بنوبات الشذوذ ..

إن هذه الكتابات تعتمد تمامًا على حديث الغرائز حيث لا أسلوب ولا فكر ولا هدف ولا قيمة .. وهى أبعد ما تكون عن جماليات الفن والإبداع .. هناك فرق كبير بين فنون تؤكد قيم الجمال حتى ولو قدمت نماذج سلوكية قبيحة .. وفنون أخرى تروج القبح وتدعو إليه .

إن موضات كتابات الجسد .. ورسوم الجسد .. ومسرح الجسد .. وسينما الجسد .. وروايات الجسد .. كل هذه التقاليع لا علاقة لها بالفن الحقيقى لأنها تعكس أمراضًا نفسية يحتاج أصحابها إلى مصحات وليس إلى دور نشر وكتاب ونقاد وقراء مؤسسات ثقافية تملكها دولة .

والأغرب من ذلك أن هذه الكتابات تجدى صدى واسعًا فى الدوائر الغربية حيث تترجم كل يوم ويتلقى أصحابها التهانى والورود والدعوات ويشاركون فى المؤتمرات ، والسبب فى ذلك أن هناك تجارة رابحة فى الغرب الآن ويستطيع أى كاتب عديم الموهبة أن يقدم نفسه من خلالها إن يكتب فى الجنس ولغة الجسد .. أو يهاجم الإسلام .

إن الإبداع الحقيقى لا يمكن أن يكون خصمًا لمقدسات الناس وعقائدهم .. كما أنه لا ينبغى أن يكون دعوة للتحلل والتسيب والفساد .. ولا ينبغى أن يكون سلمان رشدى هو النموذج الأمثل لكتاب الرواية لأننا لسنا أمريكا ولسنا إنجلترا برغم أن هذه الدول لا تسمح لأحد بالاعتداء على مقدساتها الدينية .

منذ شهور تلقيت مجموعة قصصية لكاتبة ناشئة وعندما بدأت أقرأ فيها اكتشفت أن الكاتبة غير قادرة على صياغة جملة عربية سليمة .. وكانت أفكارها مشوشة .. والقصص جميعها تنحصر فى تجربة امرأة تمارس الجنس مع نفسها .. هل هذا هو الإبداع الذى نريده لأبنائنا وبناتنا ؟

نموذج آخر .. لشاعر يحاول أن يسخر من كل شيء فى صياغة ركيكة .. ابتداء بالخالق جل جلاله .. وانتهاء بكل الرسل والأنبياء .. فهل هذا هو الشعر الذى نريده ؟

لو خرج رجل مجنون إلى الشارع ، ووقف عاريًا فى ميدان التحرير فإن الشرطة سوف تلقى القبض عليه ، ويعاقبه القانون .. فماذا عن هؤلاء الذين يمارسون العرى فى الكتابة ، ويجدون من ينشر لهم ، ويدافع عنهم ، ويعطيهم الأموال من جيوب الشعب الغلبان ؟

لو أن شخصًا قرر الآن أن يطبع كتابًا ، ونحن على أبواب الانتخابات البرلمانية ، وأن يثأر فيه من الحزب الوطنى ويشوه رموزه .. هل يجد فى أجهزة الثقافة من ينشر له هذا الكتاب ؟

وهل يعقل بعد ذلك أن نسمح بكتابات تتجرأ على اللّه ورسله وأنبيائه ونقول : إن هذا يدخل فى نطاق حرية الإبداع ؟!! هل الحرية أن نروج نماذج للشذوذ الفاضح ؟

إن البعض يتصور أن هذه النماذج الرديئة من الكتابة هى دعوة للاستنارة ضد جحافل الإرهاب .. وهذا تفسير خاطئ لمسئولية الإبداع ودور المبدع .. إننا لا نستطيع أن نواجه الإرهاب بالأعمال الشاذة .. ولكننا نواجهه بالفن الحقيقى .. بالقيم الرفيعة .. والقدوة الصالحة .. والسلوك المترفع .. والحوار الجاد ..

إن هؤلاء يتصورون أنهم بذلك يخدمون الدولة فى معركتها ضد الإرهاب ، ولا أعتقد أن ذلك صحيح .. إنهم يسيئون للدولة وله .. ويسيئون لنا .. ويدخلون بنا فى سراديب مظلمة من الأخطاء والتجاوزات .. ويعلنون الحرب على قيم المجتمع ومقدساته .. ولا أعتقد أن الدولة بكل مؤسساتها فى حاجة إلى المزيد من المشاكل فلديها ما يكفيها !!

إن مصر هي أول من أرسى قواعد التوحيد في الكون .. وهى التى احتضنت كل رسالات السماء فى التوراة والإنجيل والقرآن .. وهى التى أكرمت العائلة المقدسة .. وحفظت للإسلام دوره وتاريخه .. واحتضنت بين ترابها الطاهر آل بيت رسول اللّه ﷺ .. كانت مصر دائمًا حصنًا لكل دعوة للتوحيد .. فكيف نسمح لجماعة من الانتهازيين وأصحاب المصالح بأن يدخلوا بالدولة وبالشعب وبالدين فى معارك لا مبرر لها غير البلبلة والمشاكل والصراعات .. والإساءة لمشاعر الناس .. كيف أصبح فى نظرهم كل من أدى الصلاة إرهابيًا .. وكل من دخل المسجد متطرفًا .. وكل من ترك لحيته متآمرًا .. وكل من دعا إلى اللّه عدوًا للدولة .

كيف توجه الأجهزة الثقافية أموالها لإصدار أعمال تسخر من مقدساتنا وهناك آلاف من المبدعين الشباب الشرفاء لا يجدون من يطبع إبداعاتهم الراقية فهل انتهت كل قضايانا ومشاكلنا الفكرية والثقافية والاقتصادية ولم يبق أمامنا غير أن تطبع هذه النوعية من الكتب الرديئة والكتابات التى تسخر من كل مقدساتنا .

إن كل من يروج هذه النماذج المريضة يهدد أمن مصر واستقرارها .. ويهدد أيضًا دورها ورصيدها وريادتها .. ويهدد قبل ذلك كله أجيالاً لا ينبغى أبدًا أن نقدم لها هذا الزاد المسموم .

فى معركة ضد الإرهاب كلنا فى خندق واحد .. شعبًا وحكومة .

فى معركة مشبوهة ضد الإسلام ..

الكل خاسر .

ماكتبه حيدر حيدر لاعلاقة له بحرية الإبداع!

إبراهيم عيسى

على قدر ما استاء البعض وتوجس اخرون من المظاهرات التي انطلقت من جامعة الأزهر الأسبوع الماضي منددة برواية «وليمة لاعشاب البحر» (دون حتى ان يتبينوا اسمها) ورافضة لما اعتقدوه وظنهم صحيح- مساسا بالمقدسات الدينية.

على قدر ماجاءت ردود أنعال مثقفينا مستاءة ورافضة، على قدر ما رايت في المظاهرات شيئا إيجابيا وفعلا شعبيا وطلابيا محمودا مطلوبا، فالجانب المشرق في هذه المظاهرات ان لدينا – مازلنا – طلابا وشبابا مهتمين بالشئون العامة، وما يحيط بهم في مجتمعهم.. وان لدينا – مازلنا – طلابا وشبابا يستفزهم المساس – مجرد المس – بمعتقداتهم الدينية، وان لدينا – مازلنا – بعضا من الناس تسري في عروقهم دماء مستنفرة وقلوب متقدة.

اليوم خرجوا – وهذا حقهم كامل غير منقوص لا منة من احد، ولا دفعا من احد – في مظاهرات من اجل كبريائهم الديني، ففي الغد يخرجون من اجل كبريائهم الوطني والسياسي واليوم يندون بتجاوز اعتقدوه في وزارة الثقافة، وغدا يندون بتجاوز يعتقدونه في غيرها.

علينا كمثقفين وطنيين – ان نحتفل ونحتفي بهذه المظاهرات، لا ان نستنكرها ونستنكف منها، حتى ولو كان شعارها ضد رواية او اعمال ادبية او اعمال يدعي اصحابها انها كذلك.

إذا ثار شباب وطلاب وتيار ضد رواية او كتاب او قصيدة، فهذا دليل على انهم مهتمون ومهمومون بقضايا عامة خارج ذواتهم، وشخوصهم.. دليل اخر في السياق نفسه على انه لا تزال الروايات والأعمال الأدبية الإبداعية قادرة على اثارة مجتمع واستثارة جدل وتحريك مظاهرات، ولعل – مثقفينا – النائمين في العسل والجالسين على هامش الحياة السياسية والفكرية يستيقظون – يوما – على اهميتهم واهمية مايكتبون وينشرون، ويوجهون هذه الاهمية وجهتها الحق، وجهتها الصواب، نحو الحرية الحقيقية ضد القمع والفساد والاستعباد، وليس ضد حرية كاتب في العيب في الذات الالهية، او قران ربي المجيد.

قبل ان اتيا إلى ماهو زلق قد نسمع ان هذه المظاهرات خرجت بحشد وتعبئة من تيارات، وهذا ما اشك فيه كثيرا، فهذه التيارات ليست بالقوة التي تحكم وتنظم وتخطط وتنفذ، فقد فشلت كثيرا في كثير من خطواتها واهدافها، ولم تفلح في لم احد ولا جر قدم نحو قضايا عديدة كانت ملحة عليها، وقاهرة لها.. فأحسب – حتى لو كانوا هم من نجحوا في الحشد والتعبئة هذه المرة – فلأهمية الموضوع، ولفداحة الحدث، ماجاء في الرواية.. وما استفز الناس.. كل الناس».

اما حكاية ان الطلاب الذين خرجوا لم يقراوا الرواية، فلا أظن هذا ينقص او يزيد في الامر شيئا.. فالاحسن انهم لم يقراوا الرواية، فقد تستفزهم اكثر، اما انهم اعتمدوا فقرات متقطعة، وسطورا مبتسرة في الرواية نشرتها لهم صحيفة «الشعب» ففي ظني ان هذه الفقرات والسطور تكفي جدا لاستثارتهم، ولحفزهم على التظاهر، وان اي سياق ادبي «مزعوم» لايغني.ولايسمن من جوع في شرح شيء للناس يقلل من غلوانهم ويهدىء من روعهم..

وقد احتج كثير من المثقفين والادباء.. بان ماكتبه حيدر حيدر صاحب الرواية المشئومة «بئس الرواية التي كشفت بؤس واقعنا الثقافي» ماكتبه يستند الى حرية الابداع والتعبير، ويسعدني كما يؤسفني ان اصدم اصدقائي بان ما جاء في هذه الرواية لايمت الى حرية التعبير بصلة تذكر.

حرية التعبير والابداع في حق الكاتب في تنوير الناس، ومواجهة السلطة، والسلطان، والتصدي للقهر، والقمع والفساد، والاستبداد، في ولوج عالم الاجتهاد، وقراءة النصوص الدينية، وتفسيرها.. التماهي مع سير وقصص الأنبياء، والاستلهام الحر من حياتهم، مسيرتهم.. في كشف الجمود السياسي والفكري والديني.. في تعرية شيوخ الطاعة ووعاظ السلاطين، في تعرية السلاطين.. في الهجوم السافر على احفاد ابي الحجاج الثقفي ويزيد بن معاوية، ومنصور السفاح، في السعي الى الديمقراطية، والحرية ونزاهة الانتخابات، وحق التصويت غير المزيف ولا المزور، في مجابهة ومواجهة حملة مباخر النفاق، وجملة مواخير السياسة.. في سب ولعن وكشف وفضح الاستبداد والفساد.

اذا كنا نريد ان نضحك على أنفسنا وعلى الناس وندعى وندعو الى ان حرية الابداع هي وصف القران بالخراء، او نبي بالشذوذ او عضو انثوي بالقبلة والمحراب، فالحرية بريئة من هذه الأفكار العطنة.

واريد ان اسأل: ما الإضافة الى الحرية والابداع والضمير الوطني والعروبة الثقافية والاسلام المستنير التي اضافتها فقرات تصف القران بالخراء؟ ما هذا الحرص الغبي المستغبي على تقديم الحرية على انها قد تشمل لصق صفات حقيرة بدين حنيف او مقدس ديني منزه في الاسلام او المسيحية او اليهودية؟!

ان هامش الحرية في الوطن العربي ضيق ومحدود ويكاد يكون لامرئيا، فبدلا من ان نقاتل ونناضل من اجل اتساع هذا الهامش والكفاح من اجل ان تصبح الحرية حقا وحقيقة، نكاد غرق في عطن الوطن، وإرث الروث، حين نصر على استنفار جهودنا لجعل هذا الهامش مخصصا فقط لحق المبدع في نعت المقدسات بما يحلو له، او حق المبدع في هلك قلب القاريء بذكر الاعضاء الذكورية والانثوية وزجاجات البيرة وبلل المني وسب الدين والملة في قصائد النثر».. لقد تحرك المثقفون من الأدباء المصريين غضبي من حملة جريدة «الشعب» على اصدار مؤسسة في وزارة الثقافة رواية «وليمة لاعشاب البحر» مستندين على الأسباب الاتية:

١ – انها حملة ارهاب فكري وديني تستهدف قمع حرية الابداع، وتكفير الأدباء.

٢ – ان السكوت على هذه الحملة انتصار لاصحابها وسوف يشجعهم على استلام بقية المبدعين والمثقفين واستلقاط كلمة او سطر او فقرة من رواية او قصيدة وانزال أحكام التكفير عليهم.

٣– ان هذه الحملة دعوة الى القتل والتصفية الجسدية للأدباء، خصوصا المشرفين على السلسلة التي اصدرت الرواية.

٤ – ان ما كتبه حيدر حيدر يدخل تحت بند حرية الابداع، وانه لم يحمل مساسا بالدين، ولا مقدساته وان الفقرة التي تم ابتسارها واستثمارها في غير

هدفها، وان الوصف جاء على لسان احدى شخصيات الرواية، ومن ثم فالروائي لايتبناها.

هذه الأسباب تبدو من الخارج منطقية ومتماسكة، لكن بمجرد تأملها نكتشف انها عوراء،ان لم تكن عمياء، وانه اذا اتفق بعضنا على ان هذه الحملة استخدمت اساليب تهييجية غوغائية، فمن يقظة الضمير ان نقول: ان مواجهة الغوغائية لاتكون بالغوغائية نفسها، وان التهييج الصادر من جريدة «الشعب» يدعو الى كون هذا الاديب كافرا، وتصدى له تهييج يسارى يرى ان هذا حرية ابداع، وان هؤلاء ارهابيون، بل وصل الى وصف احدهم بانه يتطاول على رموز الدولة!!

وفى ظنى ان مافعلته جريدة «الشعب» حقها الطبيعى الذى لايناقشها فيه احد، صحيح ان الجريدة بالغت حتى التطرف والشطط في استعداء الناس على حيدر حيدر، وناشر الرواية، وصحيح انها اصيبت بجنون ملاحقة النصوص فيما يشبه محاكم التفتيش التى تاخذ فى ارجلها ابرياء كثيرين ولاتعطي فرصة لاحد كي يلتقط نفسا، او يرفع حسا.

لكن هذه الأساليب كلها معهودة فى هذا التيار، وجزء اصيل من رسالته السياسية، ولا هى مستغربة، ولا مستوحشة، بل متسقة تماما.. لا ارى جديدا لكن للمفارقة، فالقضية التى تسلمتها الحملة بسيطة وواضحة تماما

سؤال: هل من حق أحد ان يصف القران بالخراء..؟!

اجب.. انطق.. قل الحق.. وماتراه يرضى ضميرك..

لن تجد سوى إجابة واحدة.. لا.. ليس من حق احد..

ثم ماعقوبة من يقول ان القران خراء؟

ان يقتل.. ان تقطع يداه، ورجلاه من خلاف..

لم تقل الحملة ذلك. طالبت بوضوح.. معاقبة المسئولين الموظفين.. هذه واحدة. وطالبت بتظاهر الشعب، وإعلان غضب المسلمين فى مصر من هذه الجريمة.

عداها العيب!!

اذا كانت هذه مطالبها فقد عداها العيب فعلا.

بل ارى ان من الواجب على المثقفين امام رواية حيدر حيدر، وما جاء فيها من وصف حقير للقران الكريم حتى لو على لسان كلب في الرواية، وليس على لسان احد أبطالها.

من الواجب علينا الاعتذار وليس الاستكبار.

نعم.. أجد نفسى خجلان فعلا من ان احدا من الكتاب كتب هذه الفقرات ونشرها غيره من المثقفين.. وارى واجبا عليهم الاعتذار لا الاستكبار.

لاكان يقصد، ولاكانوا يقصدون.. اسفون للراى العام.. اسفون للحس المسلم السليم.

اما الاستكبار والقول بان وصفنا القران بالخراء حرية ابداع فهذا امر والله العظيم «ثلاثة» يسىء الى حرية التعبير، والابداع، ويجعلها خراء حقا.. وينفر الناس منا، ويدعو جماهير القراء والمواطنين الى كراهيتنا وبغضنا فاذا كان العالم معسكرين.

معسكر يقول له انه ضد وصف القران بالخراء

ومعسكر يقول له ان تعبير «القران خراء» هو ابداع جاء على لسان شخصية فى الرواية وليس على لسان الروائى «حلو شغل الحواة ده؟!».

فسوف أكون - كاى مواطن سليم العقل والوجدان - مع المعسكر الاول فورا.

حرية ابداع ايه «ياروح امكم»؟ انتظروا هذا الرد..

اعود فاقول: لو انشغل المثقفون المصريون الذين استنفروا ضد حملة الشعب على خراء حيدر حيدر نصف هذا الاستنفار حين تم اعتقال الكتاب والمفكرين في السجون، ضد سجن الصحفيين، تلك الجريمة السياسية النكراء القذرة، ضد مصادرة كتاب سياسي، او رواية صادرتها مباحث امن الدولة ضد تزوير انتخابات، ضد قانون الطوارىء.. لكنا احترمنا حرية الابداع حقا.

لا افهم سر ان احدا من المثقفين لايتحرك الا اذا كان فى الامر هجمة من تيار دينى تحت ستار الدين ضد مبدع متهم بالاساءة الى المقدسات «لااقول مناقشة اجتهادات المفسرين، ولا اقول مناقشة صحة احاديث منسوبة الي النبى، ولااقول خزعبلات شيوخ الطاعة.. لا.. اقول: الإساءة الى المقدسات!!».

ما السر؟

اعلم ان عشرات من المثقفين المصريين قالوا لى انهم يكرهون رواية حيدر حيدر ويرونها عملا تافها، وانهم ضد ماذكره، ويرونه شيئا حقيرا، لكن ماذا يفعلون الا مواجهة الهجمة الارهابية؟

واقول لهم: ما الذى جعلنا نعتقد ان الحملة ضدنا اساسا؟

واذا كانت ضد مثقف او اديب او مشرف سلسلة ادبية فعليه ان يوضح ويستوضح.. ومن الجائز جدا ان يشعر انه اخطأ فيعتذر، او يستقيل «بالمناسبة.. ابراهيم اصلان - المشرف على هذه السلسلة - واحد من انقى وارقى واطهر رجال الأرض، وشخص اصيل رائع واعتقد ان هذه الحملة لم تمس حتى طرف بنطلونه، فمن الجائز ان تكون الرواية قد عبرت عليه دون ان يتفحصها، ومن الجائز ان يكون تقديره قد اخطأ، ولاطعن فى دينه ولا فى اسلامه.. واظن انه اصلب عودا واقوى قلبا واصمد روحا من ان يبتزه اى واحد فينا»، حينما رسمت رسامة صهيونية منذ اعوام خنزيرا وكتبت عليه محمد «نبينا المصطفى» لم يقل احد لاعندنا ولاحتى عندهم انها حرية ابداع، وعندما تخرج السينما الامريكية بفيلم يقدم ارهابيا وقاتلا ممسكا بمصحف شريف نصرخ: إنها امبريالية وصهيونية، ما الذى ننتظره اذن عندما نمس نحن مقدساتنا؟!

بقيت ثلاث نقاط، واحدة مكررة واثنتان جديدتان، نبدأ بالجديد..

أ - قرات للكاتب محمد عباس، ما يكتبه، وقرات محاولة إصابته بالسهم نفسه الذى اصاب به حين استلقطوا له بعض الجمل والفقرات فى روايته «قصر العينى».. والحقيقة اننى ارى فى محمد عباس كاتبا جريئا وجسورا، يكتب مايراه، ومايريده ويحصل اللى يحصل.. والحقيقة ان كتاباته فيها خطابة، ومنبرية، ووعظية وحس تظاهرى ومنبرى للغاية، لكن ما الضرر.. هو حر.. اتفق معه واختلف، احبه او اكرهه، لكن هذا سمته وصفته وكتاباته، ولقد رأيت فى مقالات كثيرة له شجاعة ليست فى كثير من المثقفين فى مواجهة الظلم والاستبداد والفساد وامن الدولة!

اما ما ذكروه عن روايته التى لم اقراها فان كل ماجاء من فقرات فى الرواية لايسيء الى محمد عباس فى شيء «ياللمفاجأة!!».

طبعا... لاتوجد رواية فى العالم لاتمس الجنس من قريب او بعيد، ولا يوجد مايمنع او يعطل كاتبا عن الحديث عن الجنس فى رواية له، وليس فى ذلك مايسيء على الاطلاق.. ضد الفحش فى الجنس، ممكن حتى هذا فيه كلام.. لا احد ضد الاستعارة من القران الكريم، والفاظه، وجمله، ومعانيه، لم يقل احد على الأرض شيئا من هذا قبلا ولابعدا.

محمد عباس ليس فى روايته - على ما قرأت من فقرات مختارة بعناية، ويترصد ويتربص - ما يسيء له

الخلاصة عندي.. هل قال محمد عباس - على لسان شخصية من شخصيات روايته - ان القران خراء، او ان نبيا شاذ، او ان الانجيل كذا؟! لا.. لم يقل.

اذن يكتب مايحلو له، وانتم مالكم.. حتى لوكتب ما ادانه عند حيدر حيدر تبا للاثنين ان صح.

الامر الثانى: اننى قرات قطعا رواية «وليمة لاعشاب البحر»، وقرات كل ما كتب عنها من دراسات نقدية وادبية «كله على ما اظن»، ويسعدنى ان اسجل رايي لزملائى واصدقائى جميعا - مع احترامى للنقاد الكبار ذوى الذين امتدحوها حتى كدت اظن

انها المثال والنموذج ـ وهو رايي في جملة واحدة.

«إنها رواية خراء طازج».

وهذا ليس وصفا ادبيا ولانقدا ادبيا، إنه مجرد رأى ينطوى تحت حرية الرأى والتعبير.

أخيرا.. كان من الممكن ان يضع المرء لسانه في حلقه ويسكت ويعتزل هذه الفتنة وتتحرقوا جميعا.. اسلاميين على يساريين، فلا أحد منكم مد يدا ولا أفرغ مداد حبره لنجدة كاتب مصادر ومطارد، اغلقوا سبع صحف له وصادرت مباحث امن الدولة روايته دون ان يهرع البعض الى طبعها تحديد للسلطة او للسلطان.

كان من الممكن ان اصمت، ولم يكن احد يرمي رذاذه بعدها في وجه رايي ابدا، لكن لو كنا ممن يضعون السنتهم في حلوقهم ماكان حالنا هكذا ولا هذا مآلنا.

مرة أخيرة.. حرية الرأى والابداع والتعبير هي التي نوجهها ضد الجمود، والقهر، والكبت والقمع، وفى سبيل الحرية والديمقراطية، والشفافية، والنهوض بأمتنا، ومجتمعاتنا.

اما عدا ذلك فهو ليس كذلك، وينجينا رب الممالك من المهالك.. قول يا رب

ولنا تعليق:

تعتبر «أخبار الأدب» نفسها في معركة دفاعا عن حرية الابداع وحق التفكير الذى لايصح ان يشهر في وجهه سلاح التكفير. ولأن الحرية لاتتجزأ، ننشر هنا مقالا لرئيس تحرير جريدة «الدستور» الموقوفة ابراهيم عيسى الذى طلب ان يقدم صوته «المختلف» من خلال اخبار الادب ونحن نرحب به.

وكما ان الدين لايهدمه سطر في رواية، فان حرية الابداع لايمكن ان يهدمها مقال ابراهيم عيسى، الذى يستحق التامل من اكثر من زاوية، فهو:

● اولا: يجرم من السطور الأولى بحق الطلاب في التظاهر ضد الراوية دون ان يقراوها ـ هو الذى تعرض لهذا في ابداعه وعمله الصحفي ـ وهو لايكتفى بهذا بل يقرر من البداية ايضا ان الرواية تمس المقدسات.

● ثانيا: يرى ابراهيم عيسى ـ ولا احد يخالفه ـ ان مقاومة فقهاء السلطان ووعاظ الطاعة اجدى مما اعتبره اهانة للمقدسات: وسؤالنا اليه: ما الذى اخرج نصر حامد ابوزيد من مصر؟ هل كتب رواية هو الآخر ام ان معركته كانت مع فقهاء الطاعة؟

● ثالثا: من المدهش انه يرى الاساءة في رواية حيدر، بينما لم يجد في رواية محمد عباس اية اساءة بما في ذلك تحريف سورة الاخلاص، فان كان ما نشرناه في العدد السابق للناقد عبدالعزيز موافي غير كاف، فاننا نحيل الصديق ابراهيم عيسى الى المنشور في هذا العدد ايضا، ليرى ما ذكره عباس عن «مريم العذراء» المقدسة في الديانتين المسيحية والاسلامية.

المصادر والمراجع

١ - **أبو نواس الحسن بن هاني** ... عباس محمود العقاد - مكتبة الأنجلو - القاهرة (د . ث) .

٢ - **إحياء علوم الدين** ... أبو حامد الغزالي - دار الشعب - القاهرة (د . ث) .

٣ - **أدب الرسائل فى صدر الإسلام** ... الدكتور جابر قميحة - الجزء الأول : عصر النبوة - دار الفكر العربى - القاهرة سنة ١٩٨٦ .

٤ - **الأدب الشيوعى** ... ماهر نسيم - دار المعارف - القاهرة (د . ث) .

٥ - **الأدب وفنونه** ... الدكتور محمد عنانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٩٧ .

٦ - **الأدب وفنونه** ... الدكتور عز الدين إسماعيل - دار الفكر العربى - الطبعة الثالثة - القاهرة .

٧ - **أركان القصة** ... أ . م . فورستر . ترجمة كمال عباد - دار الكرنك - القاهرة سنة ١٩٦٠

٨ - **أسباب النزول** ... الواحدى أبو الحسن على بن أحمد . تحقيق الدكتور السيد الجميلى - دار الكتاب العربى - بيروت سنة ١٤١٢ - ١٩٩١ .

٩ - **الإسلام بين العلماء والحكام** ... عبد العزيز البدرى - باكستان سنة ١٣٩٩ .

١٠ - **الإسلام وأصول الحكم** ... على عبد الرازق . نقد وتعليق الدكتور ممدوح حقى - دار مكتبة الحياة - بيروت سنة ١٩٧٨ .

١١ - **الإسلام والفلسفات المعاصرة** ... الدكتور محمد البهى - المكتب الفنى للنشر - القاهرة سنة ١٩٥٩ .

١٢ - **الأسلوب** ... أحمد الشايب - دار النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة الثامنة سنة ١٩٨٨ .

١٣ - **أصول التشريع الإسلامي** ... على حسب الله - دار المثقف العربى - الطبعة السادسة - القاهرة سنة ١٩٨٢ .

١٤ - **أصول الشريعة** ... محمد سعيد العشماوى - مدبولى الصغير - الطبعة الرابعة - القاهرة سنة ١٩٩٦ .

١٥ - **أصول الفقه** ... محمد زكريا البرديسى - مطبعة دار التأليف - الطبعة الثانية - القاهرة سنة ١٩٦١ .

١٦ - **أعشاب وطحالب فى حياتنا الثقافية** ... الدكتور محمد سليم العوا . دراسة فى مجلة وجهات نظر - العد ١٧ - يونية ٢٠٠٠ .

١٧ - **الأغانى** ... أبو الفرج الأصفهانى . تحقيق إبراهيم الإبيارى - دار الشعب - القاهرة (د . ث) .

١٨ - **أنساق القيم فى الإبداع المصرى** ... طلعت رضوان . وزارة الثقافة المصرية . سلسلة كتابات نقدية ١٠٣ - مايو ٢٠٠٠ .

١٩ - **بين الكتب والناس** ... عباس العقاد - دار الكتاب العربى - الطبعة الأولى - بيروت سنة ١٩٦٦ .

٢٠ - **التاريخ الحديث لهزيمة الحب والثورة** ... داراسة لمحمد برادة . أخبار الأدب - العدد ٣٥٦ - ٢٠٠٠/٥/٧ .

٢١ - **تاريخ الخلفاء** ... السيوطى - جلال الدين عبد الرحمن . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - باكستان (د . ث) .

٢٢ - **تاريخ الرسل والملوك (المعروف بتاريخ الطبرى)** ... محمد بن جرير الطبرى . تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٧٧ .

٢٣ - **تحليل السرد الروائى** ... الدكتور أحمد صبرة . دراسة بمجلة فصول . مجلد ١٦ - العدد ٤ - ربيع ١٩٩٨ .

٢٤ - **التشريع الجنائى الإسلامى** ... عبد القادر عودة - دار الكاتب العربى - بيروت (د . ث) .

٢٥ - **تفسير الجلالين** ... جلال الدين محمد بن أحمد المحلى ، وجلال الدين السيوطى - دار المعرفة - بيروت (د . ص) .

٢٦ - تفسير القرآن العظيم (المعروف بتفسير ابن كثير) ... إسماعيل بن عمر - مكتبة الإيمان - المنصورة - مصر سنة ١٩٩٦ .
٢٧ - التفسير النفسى للأدب ... الدكتور عز الدين إسماعيل - دار النهضة المصرية - القاهرة سنة ١٩٨٦ .
٢٨ - التفكير فريضة إسلامية ... عباس محمود العقاد - دار الهلال - القاهرة (د . ث) .
٢٩ - The Element Of Drama : I.L. Styan (Combridg univ press 1969)
٣٠ - جامع البيان عن تأويل آى القرآن (المعروف بتفسير الطبرى) ... أبو محمد ابن جرير الطبرى . تحقيق صدقى العطار - دار الفكر - بيروت سنة ١٤١٥ - ١٩٩٥ .
٣١ - الجامع لأحكام القرآن (المعروف بتفسير القرطبى) ... أبو عبد الله محمد ابن أحمد - دار الشعب - القاهرة (د . ث) .
٣٢ - جاهلية القرن العشرين ... محمد قطب - دار الشروق - القاهرة سنة ١٤٠٩ - ١٩٨٩ .
٣٣ - الجمالية الماركسية ... هنرى أورفون . ترجمة جهاد نعمان - دار عويدات - بيروت سنة ١٩٧٥ .
٣٤ - جوهر الإسلام ... محمد سعيد العشماوى - دار مدبولى الصغير - الطبعة الرابعة - القاهرة سنة ١٩٩٦ .
٣٥ - الحريات العامة فى الفكر والنظام السياسى فى الإسلام ... الدكتور عبد الحكيم العيلى - دار الفكر العربى - القاهرة سنة ١٩٨٣ .
٣٦ - حقائق غائبة فى قضية الوليمة ... الدكتور فؤاد زكريا - مجلة المصور ، العدد ٣٩٤٥ .
٣٧ - الحكومة الإسلامية ... الدكتور محمد حسين هيكل - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٧٧ .

٣٨ - **الخراج** ... أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم - دار الاعتصام - القاهرة سنة ١٩٨١ .
٣٩ - **الخلافة الإسلامية** ... محمد سعيد العشماوى - دار سينا للنشر - الطبعة الثانية - القاهرة سنة ١٩٩٢ .
٤٠ - **ديوان أبى نواس** ... أبو نواس الحسن بن هانئ . ضبط وتحقيق ، وشرح أحمد عبد المجيد الغزالى - دار الكتاب العربى - بيروت (د . ث) .
٤١ - **رسالة الغفران** ... أبو العلاء المعرى . تحقيق وشرح بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن - دار المعارف - القاهرة - الطبعة السادسة سنة ١٩٧٧ .
٤٢ - **الرواية فى الوطن العربى : نماذج مختارة** ... الدكتور على الراعى . دراسة عن رواية حيدر - أخبار الأدب - العدد ٣٥٦ - ٢٠٠٠/٥/٧ .
٤٣ - **رواية ما بعد الحداثة** ... عابد الخازندار - الطبعة الأولى - جدة سنة ١٩٩٢ .
٤٤ - **سارتر والوجودية** ... الدكتور مصطفى غالب - دار ومكتبة الهلال - بيروت سنة ١٩٨٦ .
٤٥ - **السيرة النبوية (سيرة ابن هشام)** ... حققها وضبطها مصطفى السقا وآخرون - الطبعة الثانية - مصطفى الحلبى سنة ١٣٧٥ - ١٩٥٥ .
٤٦ - **السيميولوجيا والأدب** ... الدكتور أنطوان جمعة . دراسة فى مجلة عالم الفكر (الكويتية) . المجلد ٢٤ - العدد ٣ يناير / مارس سنة ١٩٩٦ .
٤٧ - **الشخصية العربية فى القصة العبرية** ... الدكتور محمود حميدة . دراسة فى مجلة عالم الفكر الكويتية . المجلد ٢٤ - العدد ٣ يناير / مارس سنة ١٩٩٦ .
٤٨ - **الشروط الاجتماعية للإبداع** ... الدكتور مصطفى سويف . دراسة بمجلة فصول . المجلد ١١ - العدد الأول : ربيع ١٩٩٢ .
٤٩ - **الطب النبوى** ... ابن القيم . تحقيق شعيب الأرنؤوط ، وعبد القادر الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة - الطبعة الثالثة - بيروت سنة ١٩٨٢ .
٥٠ - **طرائق تحليل السرد الأدبى** ... من منشورات اتحاد كتاب المغرب - الطبعة الأولى - الرباط سنة ١٩٩١ .

٥١ - **الظاهرة الجمالية فى الإسلام** ... صالح أحمد الشامى - المكتب الإسلامى - الطبعة الأولى - بيروت سنة ١٤٠٧ - ١٩٨٦ .
٥٢ - **غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى** ... الدكتور يوسف القرضاوى - مكتبة وهبة - الطبعة الأولى - القاهرة سنة ١٩٧٧ .
٥٣ - **فتح البارى بشرح صحيح البخارى** ... ابن حجر العسقلانى - دار الريان للتراث - القاهرة سنة ١٤٠٧ - ١٩٨٧ .
٥٤ - **فن القصة** ... محمد يوسف نجم - الطبعة الثالثة - بيروت سنة ١٩٥٩ .
٥٥ - **فن كتابة القصة** ... حسين قبانى - الدار المصرية - القاهرة (د . ت) .
٥٦ - **فى الثقافة المصرية** ... محمود العالم ، وعبد العظيم أنيس - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة سنة ١٩٨١ .
٥٧ - **فى الشعر الملحمى** ... أحمد أبو حاقة - دار الشرق الجديد - الطبعة الأولى - بيروت سنة ١٩٦٠ .
٥٨ - **فى ظلال القرآن** ... سيد قطب - دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٧٨ .
٥٩ - **فى نظرية الرواية (بحث فى تقنيات السرد)** ... الدكتور عبد الملك مرتاض - العدد ٢٤٠ من سلسلة عالم المعرفة - الكويت سنة ١٩٩٨ .
٦٠ - **القصة القصيرة** ... رشاد رشدى - الطبعة الثالثة - مكتبة الأنجلو - القاهرة سنة ١٩٧٠ .
٦١ - **القصة من خلال تجاربى** ... عبد الحميد جودة السحار - معهد الدراسات العربية - القاهرة سنة ١٩٦٠ .
٦٢ - **القصة والرواية** ... الدكتورة عزيزة مريدن - دار الفكر - دمشق سنة ١٤٠٠ - ١٩٨٠ .
٦٣ - **كتاب الصناعتين** ... أبو هلال العسكرى . تحقيق الدكتور مفيد قميحة - بيروت سنة ١٩٨١ .
٦٤ - **كتاب الأموال** ... القاسم بن سلام - دار الفكر - القاهرة سنة ١٩٨١ .
٦٥ - **لباب النقول فى أسباب النزول** ... جلال الدين السيوطى - دار إحياء العلوم - بيروت - الطبعة الثامنة سنة ١٤١٤ - ١٩٩٤ .

٦٦ - **لله يا زمرى** ... كريمان حمزة - دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩٩ .
٦٧ - **مبادئ النقد الأدبى** ... أ . م . رتشارد . ترجمة الدكتور مصطفى بدوى - مطبعة مصر - القاهرة سنة ١٩٦٣ .
٦٨ - **مجتمع يثرب** ... خليل عبد الكريم - دار سنا - القاهرة سنة ١٩٩٢ ..
٦٩ - **مدخل إلى تحليل النص الأدبى** ... الدكتور عبد القادر أبو شريفة ، وحسين لافى - دار الفكر - عمان سنة ١٤١٣ - ١٩٩٣ .
٧٠ - **المدخل إلى القيم الإسلامية** ... الدكتور جابر قميحة - دار الكتاب المصرى اللبنانى - القاهرة سنة ١٩٨٤ .
٧١ - **مطالعات فى الكتب والحياة** ... عباس محمود العقاد - الطبعة الثالثة - بيروت سنة ١٩٦٦ .
٧٢ - **المعارضة فى الإسلام بين النظرية والتطبيق** ... الدكتور جابر قميحة - الطبعة الأولى - دار الجلاء - القاهرة سنة ١٩٨٨ .
٧٣ - **المعارضة فى الفقه السياسى الإسلامى** ... الدكتورة نيفين عبد الخالق - مكتبة الملك فيصل الإسلامية - القاهرة سنة ١٩٨٥ .
٧٤ - **معجم مصطلحات الأدب** ... الدكتور مجدى وهبة - مكتبة لبنان - بيروت سنة ١٩٧٤ .
٧٥ - **من فنون الأدب (المسرحية)** ... الدكتور عبد القادر القط - دار النهضة العربية - بيروت سنة ١٩٧٨ .
٧٦ - **منهج العقاد فى التراجم الأدبية** ... الدكتور جابر قميحة - دار النهضة المصرية - الطبعة الأولى - القاهرة سنة ١٩٨٠ .
٧٧ - **منهج الفن الإسلامى** ... محمد قطب - دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٧ .
٧٨ - **موسوعة السياسة** ... عبد الوهاب الكيالى وآخرون - بيروت سنة ١٩٩٠ .
٧٩ - **الموشح : مآخذ العلماء على الشعراء فى عدة أنواع من صناعة الشعر** ... المرزبانى : أبو عبيد محمد بن عمران بن موسى . تحقيق على محمد البجاوى - دار نهضة مصر - القاهرة سنة ١٩٦٥ .

٨٠ - **نشيد الثورة المجهضة** ... محمود أمين العالم . دراسة فى مجلة (أخبار الأدب) - العدد ٣٥٦ - ٢٠٠٠/٥/٧ .
٨١ - **النظريات السياسية الإسلامية** ... الدكتور محمد ضياء الدين الريس - دار التراث - الطبعة السادسة - القاهرة سنة ١٩٧٦ .
٨٢ - **النقد الأدبى : أصوله ومناهجه** ... سيد قطب - دار الشروق - الطبعة السابعة - القاهرة سنة ١٤١٣ - ١٩٩٣ .
٨٣ - **النقد الأدبى الحديث** ... الدكتور محمد غنيمى هلال - دار النهضة - القاهرة سنة ١٩٧٣ .
٨٤ - **هوامش على دفتر التنوير** ... الدكتور جابر عصفور - الهيئة العامة لقصور الثقافة - الطبعة الثالثة - القاهرة سنة ٢٠٠٠ .
٨٥ - **الوافى بالوفيات** ... صلاح الدين الصفدى . عناية س ايدرينغ فيسبادن - القاهرة سنة ١٩٧٢ .
٨٦ - **الوساطة بين المتنبى وخصومه** ... القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى - مطبعة صبيح - القاهرة سنة ١٩٤٨ .
٨٧ - **وليمة لأعشاب البحر** ... حيدرحيدر - الهيئة العامة لقصور الثقافة فى مصر - القاهرة سنة ١٩٩٩ .

* * *

من الـدوريات :

١ – جريدة آفاق عربية .

٢ – مجلة أخبار الأدب .

٣ – مجلة أكتوبر .

٤ – جريدة الأهرام .

٥ – مجلة الأهرام العربى .

٦ – جريدة الأيام الجديدة .

٧ – مجلة روز اليوسف .

٨ – جريدة السياسى المصرى .

٩ – جريدة الشعب .

١٠ – مجلة عالم الفكر (كويتية) .

١١ – مجلة فصول .

١٢ – جريدة القاهرة .

١٣ – مجلة المصور .

١٤ – جريدة الميـدان .

١٥ – مجلة وجهات نظر .

* * *

الكاتب دكتور جابر قميحة فى سطور

- من مواليد مدينة « المنزلة » بشمال دلتا النيل بجمهورية مصر العربية سنة ١٩٣٤ م .

حاصل على المؤهلات الآتيـة :

- ليسانس دار العلوم التربوى من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة .
- ليسانس الحقوق - من كلية الحقوق بجامعة القاهرة .
- دبلوم عال فى الشريعة الإسلامية - من كلية الحقوق - جامعة القاهرة .
- ماجستير فى الأدب العربى الحديث - من جامعة الكويت .
- دكتوراه فى الأدب العربى الحديث - من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

عمل بالتدريس فى الكليات الآتيـة :

- كلية الألسن - جامعة عين شمس .
- جامعة (يل) Yale ، بولاية (كنكتكت) بالولايات المتحدة .
- الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان) .
- جامعة الملك فهد للبترول والمعادن (قسم الدراسات الإسلامية والعربية) - الظهران - المملكة العربية السعودية .

حضـر كثـيرًا من المؤتمرات العالمية .. منها :

- مؤتمر الشباب المسلم العربى بمدينة (سبرنج فيلد Spring Field) بالولايات المتحدة .
- مؤتمر شباب الجامعات الإسلامية بإسلام آباد .
- مؤتمر رابطة الأدب الإسلامى العالمية بأسطنبول - تركيا .

● مؤتمر « ظاهرة ضعف اللغة العربية فى التعليم الجامعى » - جامعة الإمام محمد ابن سعود - الرياض .

● مؤتمر رابطة الأدب الإسلامى العالمية بالدار البيضاء بالمغرب .

عضو فى :

● اتحاد الكتاب المصريين .

● رابطة الأدب الإسلامى العالمية .

الكتب المطبوعة للمؤلف :

١ - « منهج العقاد فى التراجم الأدبية » .

٢ - « أدب الخلفاء الراشدين » .

٣ - « أدب الرسائل فى صدر الإسلام » .

٤ - « التقليدية والدرامية فى مقامات الحريرى » .

٥ - « صوت الإسلام فى شعر حافظ إبراهيم » .

٦ - الشاعر الفسطينى الشهيد عبد الرحيم محمود .. أو : ملحمة الكلمة والدم .

٧ - « التراث الإنسانى فى شعر أمل دنقل » .

٨ - « فى صحبة المصطفى ﷺ » .

٩ - « المدخل إلى القيم الإسلامية » .

١٠ - « المعارضة فى الإسلام بين النظرية والتطبيق » .

١١ - « الأدب الحديث بين عدالة الموضوعية وجناية التطرف » .

١٢ - « آثار التبشير والاستشراق فى الشباب المسلم » .

١٣ - « الزحف المدنس » (ديوان شعر) .

١٤ - « لجهاد الأفغان أُغَنِّى » (ديوان شعر) .

١٥ - « حديث عصرى إلى أبى أيوب الأنصارى (ديوان شعر) .

١٦ - « لله والحق وفلسطين » (ديوان شعر) .

١٧ - « أثر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية فى اللغة العربية » .

١٨ - « الإمام الشهيد حسن البنا بين السهام السوداء وعطاء الرسائل » .

البحوث المنشورة :

وهى عشرات من البحوث والمقالات نشرت فى المجلات الآتية :

١ - مجلة الدارة (سعودية - فصلية - محكمة) .

٢ - مجلة الدراسات العربية (مصرية - فصلية - محكمة) .

٣ - مجلة الدراسات الإسلامية (فصلية - باكستانية - محكمة) .

٤ - مجلة الشعر (مصرية - شهرية) .

٥ - مجلة الفيصل (سعودية - شهرية) .

٦ - مجلة الحرس الوطنى (سعودية - شهرية) .

٧ - المجلة العربية (سعودية - شهرية) .

٨ - مجلة المنهل (سعودية - شهرية) .

٩ - مجلة الوعى الإسلامى (كويتية - شهرية) .

١٠ - مجلة المجتمع (كويتية - أسبوعية) .

١١ - مجلة المنتدى (تصدر فى دبى - شهرية) .

١٢ - المسلمون (سعودية - أسبوعية) .

والحمد لله رب العالمين .

* * *

فهرس الكتاب

القســم الأول

مع الرواية دينًا وأدبًا

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

* * *

* * *

الموضـــوع | الصفحة

* * *

خاتمة المطاف

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣١٥٠ / ٢٠٠٠

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى - ١١٢٣١

كلمة الناشر

ليس هذا الكتاب دفاعاً عن الإسلام .. فإن الله تعالى حافظه .. ولا دفعاً للأذى عن رسول الإسلام .. فإن اللّه تعالى حارسه .. ولا خوفاً على أتباعه .. فإن اللّه تعالى ناصرهم فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .. ولا هو ردٌ بالمفهوم الشرعى على رواية « وليمة لأعشاب البحر » .. فإن رجال الأزهر وعلماء المسلمين والكتاب والصحفيين المنصفين قد أدوا واجبهم .. وإن مجمع البحوث الإسلامية قد تكفل بالرد فى بيان وافٍ نشره على الناس .

ولكن هذا الكتاب - إلى جانب خواطره الروحية وثوابته الشرعية - ردٌ أدبى على أدعياء الأدب المتطفلين على علم الرواية من التنويريين الذين يصموننا بالظلامية ، ويتهمون الذين انتقدوا الرواية بالجهل بحقائق الأدب وأصوله ، وفن الرواية وقواعدها .

و « الظلامية » و « السطحية » و « الرجعية » تعبيرات عصرية ترددت على ألسنة الكارهين للإسلام فى زمن الصحوة . . فكل ما هو إسلام هو فى نظرهم ظلام . . وتأخر . . وانحدار . . لأن ضوابط الإسلام يمكن أن تشكل حَجْرًا على الرأى . . أو مصادرة للفكر . . أو قيدًا على الإبداع . . حتى ولو كان الرأى هدماً للفضيلة والأخلاق . . والفكر تدميراً للمبادئ والقيم . . والإبداع إحياء للأدب الفاضح : أو الأدب المكشوف !!

ولنا أن نتساءل فى عجب . . كيف لم تخجل اللجنة التى شكلها وزير الثقافة لتقييم الرواية حينما مرت مرور الكرام على تعبير سافل سفيه ورد فى الرواية يصف اللّه عز وجل بأنه « فاشل !!! » [تعالى اللّه عن ذلك علوًا كبيراً] هكذا وردت هذه العبارة بالنص فى « الرواية الجريمة » ثم يؤكد تقرير اللجنة التى رأسها الدكتور القط بأن ما ورد فى الرواية لا يُعَدُّ مساساً بالدين ، ولا يجوز محاكمة الرواية من منظور غير أدبى ، وأن ما قيل عن الرواية فيه افتراء عليها ، وتحريف للكلمات عن مواضعها ، وتجاهل لقيمتها الفنية المتميزة .

وقد كنا نفضل أن لا يعتذر الدكتور أحمد هيكل وزير الثقافة السابق عن الاشتراك فى اللجنة لخبرته الطويلة فى مجال الأدب ، ولحصيلته الوفيرة من العلوم الشرعية . . فقد كان يمكنه أن يضرب بسهم فى اللجنة . . لحساب الدين . . والعقل . . والأدب !

وقد ركز المؤلف . . الكاتب الكبير . . والشاعر الأديب الأستاذ الدكتور جابر قميحة أستاذ الأدب العربى بجامعة عين شمس والذى كان قاسماً مشتركاً أعظم فى العديد من المؤتمرات الأدبية . . الدولية والمحلية . . ركز على الجوانب الفنية فى الأدب والقصة والرواية ، فأبان عما فى الرواية من ضعف وقصور وجفاف وفقدان للطوابع الدرامية بمفهومها الفنى الراقى ، وما فيها من دعاية للماركسية الملحدة والوجودية المارقة . حتى جاءت الرواية - كما أبان الدكتور جابر - مجاراة للأدب الصهيونى فى سقوطه وشعوبيته .

والكتاب يتصدى كذلك للتقرير المتهافت الذى كتبته اللجنة ، ويبين عما فيها من ضعف وتناقض .

وقد نسف كتاب الدكتور جابر كذلك محاولات هؤلاء الأدعياء « توظيف » القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، ومعطيات التراث العربى - بتأويل مارق خبيث - فى الدفاع عن حيدر وروايته الساقطة .

ولن نستطيع فى هذه العجالة أن نقدم كتاب الدكتور جابر قميحة . . فإن الرجل لم يهدأ منذ ظهرت هذه « الرواية الجريمة » على أرض مصر الإسلامية فجمع المراجع ، ورصد الأحداث ، وألَمَّ بالتعليقات لكل من المنصفين والمغرضين على حدٍّ سواء . . ثم خرج بهذا البحث القيم الأصيل ليسعف به القارئ المتلهف بعد البلبلة والحيرة التى لَفَّتْ كل المشتغلين بالأدب والحريصين على قيم هذه الأمة من الضياع .

ولعله من الإنصاف أن يتبنى المسئولون عن التعليم . . لا سيما فى الأزهر الشريف هذا البحث القيم الذى عالج القضية . . ديناً وأدباً ، وأن يمكنوا شبابنا العربى والإسلامى من الاستفادة بهذا الكتاب لما فيه من الجهد والدراسة الأدبية والحرص على تنقية العقول وتصحيح المفاهيم .

حسن عاشور

قرش جنيه ١٠٫٠٠